

العبث والمعنى

احمد سعيد

(العبث والمعنى)

رواية من تأليف:

أحمد سعيد

حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

© 2024

الإهداء

إلى كل مكتئب قاوم عبث وجوده وجاهد
ظلمات نفسه ليقرأ حروف هذه الرواية.

تحياتي

المؤلف

أحداث الرواية وشخوصها من نسج الخيال، وأي تشابه بينها وبين الواقع لا ينبغي أن يدعو للعجب، فالواقع أغرب من الخيال بكثير.

الفصل الأول

"العودة"

-1-

"أعزائي المســافرين أهلا بكم في مطار الخرطوم الدولي، الســاعة الآن الواحدة وسـبع عشـرة دقيقة بالتوقيت المحلي ودرجة الحرارة تســع وثلاثون درجة مئوية، الرجاء البقاء في مقاعدكم حتى تطفئ إشارة ربط أحزمة المقاعد"...

سـحب ياسـر بصـره المرسـل عبر نافذة الطائرة وانتقل من مطالعة مباني المطار المتفرقة والمتواضـــعة إلى مطالعة الركاب. كان يعلم بحكم خبرته أن منهم من لن يمتثل لطلب قائد الطائرة. وبالفعل لم يخب ظنه، فالراكب الجالس عن يمينه وبضـــعة ركاب آخرين هبوا قائمين يفتحون خزائن الأمتعـة فوق رؤوســهم ليخرجوا منهـا حقـائبهم وكـأنهم يســتعجلون الخروج من هذه المركبة الضــيقة إلى رحاب الوطن الواسع.

لوى ياسـر شـفتيه ممتعضـا من سـلوكهم والتفت إلى الوراء ينتظر قـدوم المضــيفـة لتنهـاهم عن ذلـك، فهو يعلم بحكم خبرته أيضـــاً أنها ســتأتي. لعل هذه رحلته الـمائة إلى السودان. جرب كل شركات خطوط الطيران المتاحة، وقدم إلى هنا من مختلف المطارات والبلدان والقارات، وفي كل مرة مـا أن تطـأ عجلات الطـائرة المـدرج الوحيـد لمطـار

الخرطوم وما أن يبدأ الكابتن في التهنأة بالوصـــول وســـرد المعلومات المعتادة والتحذير من القيام قبل توقف الطائرة وإطفاء إشــــارة ربط أحزمة المقاعد... في كل مرة يقوم بعض المسـافرين من مقاعدهم ليخرجوا حقائبهم من فوقهم، وفي كل مرة تأتي المضـيفة مسـرعة من الخلف طالبة منهم العودة إلى كراسيهم. أشياء تحدث باستمرار وتكرار متوقع، كأنها قانون فيزيائي، أو سنة من سنن الله الكونية.

لم تتأخر المضـــيفة في الظهور من الخلف. أمرت الرجل الجالس عن يمين ياسر بالعودة إلى مكانه، ففعل ذلك بعد أن وضـــع حقيبته التي جلبها من فوقه على قدميه، يحتضـــنها منتصــرا. أخذ ياســر ينظر بركن عينه إلى الرجل وفرحته الطفولية بحقيبته، واســـتمر في مراقبته وهو يخرج هاتفه ويتصـــل في لهفة ويتكلم في صـــوت عال مزعج "أهلا يا منصـــور... الطائرة نزلت الحمد لله. هل أنتم في المطار؟ هل سـعاد معكم؟ تمام. نصـف سـاعة لأنتهي من الجوازات والعفش وأراكم إن شاء الله. سلم عليهم جميعا".

أشـــاح ياســر بوجهه بعيدا عن الرجل وثرثرته نحو النافذة، يطـالع الطـائرات القليلـة المتراصـــــة ببؤس في المطـار الصغير. "نصف ساعة؟! ها... يا للمسكين" أخذ ياسر يفكر

في تقديرات الرجل اللا واقعية، فبحكم تجاربه الســابقة يعلم أن ذلك أقرب للمستحيل.

"نصــف ســاعة ســتحتاجها بالكاد لعبور صــف الجوازات، وبعدها نصف ساعة مثلها على الأقل لاستلام الأمتعة، عدا عن زمن العبور إلى الصالة والمرور عبرها".

ذابت أفكار ياســر حول الزمن وتقديراته وســط طوفان من مكالمات الهاتف المماثلة من ركاب كثيرين حوله. يبدو أنّ لا أحد يطيق صـــبرا حتى تتوقف الطائرة ليجري بعدها اتصـــالاته. "لماذا هم مســـتعجلون هكذا؟ ما الذي يتلهفون عليه هكذا في هذا البلد؟". عند هذا التســـاؤل أوقف ياســـر قطار أفكاره ونزل منه وعاد يرســـل بصـــره عبر النافذة، يراقب الطائرة تتهادي في بطيء على مدرج المطار. إنه لا يريد الاســـتمرار في التفكير في حماس من حوله للنزول، فبقدر اســـتخفافه بهم وبحماســـهم ولهفتهم إلا أنه يعلم أنهم على الأقل لديهم شيء ما ينتظرهم وينتظرونه، على عكسه هو، فلا أحد ينتظره في المطار ولا شــيء ينتظره في البلاد ولا هو شــخصــيا ينتظر أحدا أو شــيئا. قدومه إلى الســودان هو مجرد عبث، غير أنه يأمل أن يكون أقل عبثية من حياته العابثة في أمريكا...

-2-

توقفت الطائرة أخيرا بعد مضـــي دقائق طويلة أخذت فيها تتهادى ببطيء ممل على المدرج منذ أن هبطت. قام جميع الركاب من أماكنهم بحماس يغيظ ياســر، يلتقطون ســقط أمتعتهم ويتراصون صفا في ممر الطائرة استعدادا للنزول منها. لم يتحرك ياسـر من مكانه وأرسـل عينيه عبر شـباك الطائرة البيضـــاوي ينظر في المباني المجاورة، عمارات حي (العمـارات) الملاصـــق للمطـار، يفترض أنهـا أجمل وأرقى مباني العاصمة، لكن ياسر لا يرى فيها سوى هذيان معماري يفتقر للجمال والنظام. رؤيتها تؤذي العين لما فيها من التفاوت في الأطوال وفي النسق. هلوسة هندسية قبيحة وإن تلبســـت بـألواح الالمنيوم والزجـاج العـاكس. بـل إن وجودها نفســه قرب الطائرات الهابطة لهو في حد ذاته قمة الهزل.

- تفضل يا استاذ

صــوت المضـيفة وحده هو الذي أخرج ياسـر من سـلسـلة أفكاره النقدية للهندســة المعمارية الســودانية. التفت فرأي الطائرة خاوية لم يبق بها سواه وطاقم المضـيفين. من تحت مقعده تنـاول حقيبتـه التي بهـا حـاســبـه المحمول وجوازه

ونقوده، وسـار ماضـيا نحو باب الطائرة وفي باله منظران يرتقب أن يراهما الآن، الأول هو منظر المطار والسـودان عموما الذي سـيراه عبر باب الطائرة قبل أن يخطو خارجها. لطالما أثار هذا المنظر تسـاؤلاته، فهو يبدو مشوشا مغبشا، كأنه شاشة تلفاز قديم خرب. في كل البلدان الاخرى التي وطأتها قدماه تبدو صورتها عبر باب الطائرة جميلة جدا، فائقة الدقة وعالية الجودة. لكن الحال ليس كذلك مع السـودان. هل هو الغبار اللعين العالق في سـمائها التعيسـة؟ أم هل هي أشعة الشمس الساخطة المنعكسـة في كل مكان؟ أم لعله فقط قدر البلاد البائس الذي لم يمنح صورتها نقاءا مثل نقاء غيرها من البلدان؟

وقف ياسـر أمام باب الطائرة ونظر لصـورة البلاد التي لم يخيب تشـوشـها توقعاته. خطا خارج الطائرة وبدأ يهبط السـلم وفي باله المنظر الثاني الذي يرتقبه الآن، منظر ما فتئ يتكرر في كل رحلاته إلى الوطن. التفت يمينا وهو هابط على السـلم ولمح ما كان يتوقعه، نعم إنه دائما هناك، ذلك العسكري ذو زي الشرطة الاخضر الذي أبهتته أشعة الشـمس، يضـع منشـفة صـغيرة خلف عنقه لتمتص بلل عرقه، وتنظر عيناه من تحت قبعته الشـرطية للنازلين على سـلم الطائرة، وعلى شـفتيه ترتسـم شـبه ابتسـامة يصـعب فهمها، وزيه الشرطي الواسع جدا على جسده النحيل يزيد

المنظر غرابة وبؤسا وعبثا. لطالما تساءل ياسر عن سر وجود ذلك العسكري الذي يرمق العائدين إلى الوطن بتلك النظرة المحيرة، ولماذا يرتسم على وجهه وشفتيه تعابير لا تميّز إن كانت تدل على الفرحة أو الرغبة أو الحسد أو التشفي؟ ولماذا بشكيره الصغير خلف عنقه يثير الحنق أكثر مما يثير التعاطف؟ ولماذا لا يلبس زيا عسكريا يليق بقوامه النحيل بدلا من هذا الفستان الواسع الذي يرتديه؟ أسئلة سألها ياسر لنفسه ربما للمرة المائة وهو ينظر إلى عيني العسكري تتابع خطواته النازلة على سلم الطائرة وعلى شفتيه ترتسم تلك الابتسامة المريبة العصية على التأويل.

صعد ياسر إلى الحافلة المتهالكة التي تحمل المسافرين إلى صالة الوصول. مكيفاتها معطلة والجو بها خانق. وصراخات الاطفال بها تمتزج مع ثرثرات الركاب وضجة محركاتها الصدئة لتخلق مناخا ضوضائيا منفرا. تمنى ياسر لو تركوه يمشي بأقدامه إلى الصالة التي لم تكن بعيدة أصلا عن المكان التي توقفت به الطائرة. لكن هي العادة السيئة لمن يتولون أمر هذه البلاد في الاكتفاء بأشباه الأشياء ليوهموا أنفسهم بأنهم متقدمون ومتحضرون مثل غيرهم، وبأن لديهم أيضا مطارا وحافلات تنقل المسافرين، مع أن مطارهم هذا ليس مطارا حقيقيا ولكنه شيء يشبه المطار، وهذه الدابة خربة التكييف التي يمتطونها الآن ليست حافلة

ولكنها شـــيء يشـبه الحافلة، وكل شـــيء في هذه البلاد ليس هو ما يتسمى باسمه بل شيء يشبهه، فشوارعها شيء يشبه الشـوارع، ومسـتشـفياتها ليسـت مسـتشـفيات ولكنها شـيء يشـــبهها، وجامعاتها ومدارســـها وحكومتها وجيشـــها كلها اشـياء تحمل هذه التسـميات زورا، فهي ليسـت هي ولكنها أشـــياء تشـــبهها، وربما هذه البلد برمتها ليســـت بلدا بل هي شبه بلد.

وصـلت الحافلة إلى صـالة الوصـول وأخذ الركاب ينزلون منها مندفعين إلى داخل الصـالة لعلهم يظفرون بمكان متقدم في صف الجوازات. بتباطء وتثاقل تبعهم ياسر يجر خطاه، فلا شـــــيء يدفعه ليركض مثلهم. بهدوء أخذ مكانه في أحد الصـــفوف وعينيه الممتعضـــتين تتقلبان في المشـــاهد من حوله. مشـاهد يألفها ويتوقعها، فهنا عسـكري يأتي لمسـافر يعرفه ليأخذه من مؤخرة الصف لأوله متجاوزا كل الواقفين ولا أحد يعترض ســـوى بهمهمات مقهورة. وهنا مســـافر يدور على الآخرين باحثا عن قلم يكمل به البيانات المطلوبة في اســتمارة الدخول البلهاء. اســتمارة لا يفهم ياســر لماذا يطلبونها وكل المعلومات التي يريدونها هي أمامهم في حواســـيبهم الآلية، وأين يا ترى يحتفظون بتلك المئات من الأطنان من الاستمارات عديمة الجدوى التي يتركها ملايين المسافرين؟

تقدم ياسر لضابطة الجوازات. استلمت منه جوازه وببطء تحسده عليها السلاحف أخذت تضرب حروف اسمه على لوحة مفاتيح حاسبها الآلي حرفا حرفا بأصبع سبابتها الأيمن المصبوغ بالحناء السوداء القاتمة، تنظر إلى الجواز ثم تنظر إلى لوحة المفاتيح باحثة عن الحرف المطلوب وعندما تجده تسافر سبابتها اليمنى المصطبغة بالحناء ببطيء فوق أزرار لوحة المفاتيح نحوه لتنقر عليه، تنظر بعدها إلى شاشة الحاسوب لتتأكد أنها اختارت الحرف السليم، ثم تعود بعد كل ذلك لتنظر من جديد إلى الاسم في الجواز ولتكرر نفس العملية الموغلة في البطء والملل مع الحرف الذي يليه. قرون مضت قبل أن تعيد الجواز إلى ياسر قاذفة إياه دون أي كلمة ترحيب، لكن ياسر المعتاد على هذا الاسلوب الفظ أخذ الجواز دون تعليق ومضى للأمام.

-3-

أربعون دقيقة أو أكثر أنقضت من حياة ياسر أمام حزام الأمتعة الكهربائي في انتظار حقيبته، قضاها في تأمل البشر من حوله، معظمهم كان يبدو عليه إرهاق السفر والضجر من تأخر الأمتعة والشوق لمغادرة هذا المكان.

كان ياسر يتفرس في الوجوه المتبعثرة في الصالة ويختلق بدماغه قصة تناسب ملامح كل وجه يراه. فتلك المرأة الشابة الجالسة هناك تمسك بطفلها الرضيع هي لا شك قادمة من الخليج من عند زوجها، يدل على ذلك إسرافها في رسم الحناء على يدها وأساور الذهب المتراصة في ساعديها. و هذا الرجل الواقف بقربه يرتدي بزة كاملة وربطة عنق لا شك أنه مسؤول حكومي عائد من مأمورية خارجية، فوجهه يبدو عليه الشقاء كما أن بزته من النوع الرخيص وألوانها تفتقر للتناسق. وتلك الفتاة الواقفة في الجهة الاخرى من حزام الامتعة تعبث بهاتفها المحمول لا شك أنها طالبة جامعية جاءت تستأنف دراستها بعد إجازة قضتها مع أسرتها في الخليج، يدل على ذلك نقاء بشرتها واهتمامها بزينتها وملابسها نصف الفاخرة الغير متوفرة لأهل السودان. أما هذا الرجل من خلفه مباشرة فهو من كان يركب بجواره في الطائرة، ما زال ينتظر حقائبه وهو يتحدث مع منصور ويخبره بكل التفاصيل الصغيرة التافهة من حوله.

أخيرا وبعد طول انتظار ظهرت حقيبة ياسر تتقدم ببطئ على حزام الامتعة. انتظرها حتى وصلت إلى مكانه ثم

حملها ووضعها على عربة الامتعة وتحرك بها نحو المخرج وهو يسمع صوت ذلك الرجل يأتي من خلفه يقول

- نعم يا منصور... أخيرا جاءت الشنطة، إني أراها هناك على حزام الامتعة، ثوان وأكون معكم...

-4-

قبل أن يخرج من صالة المطار انحرف ياسر يمينا وهو يدفع عربة أمتعته وتوجه نحو نافذة صرافة. وقف ينظر إلى السعر الرسمي المتدني على لوحة أسعار الصرف وابتسم. السعر المعروض هو أقل من السعر الحقيقي بأربع مرات. توجه نحو النافذة وألقى بالتحية على الموظف الجالس خلفها وقال

- أرغب بصرف مائتي دولار
- حسنا... السعر أمامك على اللوحة
- أعرف ذلك لكنني أرغب بصرفها بالسعر الحقيقي
- عفوا يا استاذ هذا هو السعر الرسمي

نظر ياسر طويلا في عيني الرجل الذي بدا متمسكا بموقفه. ابتسم وانصرف عنه ومشى بصحبة أمتعته بضعة أمتار بعيدا عن نافذة الصرافة ثم وقف متكئا على الجدار. هو يعلم ما سيحدث لأنه فعل ذلك كثيرا من قبل. وبالفعل بعد ثلاث دقائق من الانتظار حدث ما توقعه ياسر، فقد جاءه الرجل في مكانه يحمل من الجنيهات السودانية ما يوازي سعر السوق الأسود لمائتي دولار. وفي صمت بدأت عملية التحقق بين الطرفين، تأكد ياسر من تمام عدة نقود الرجل، وتأكد الرجل من سلامة عملة ياسر، ثم انصرفا في اتجاهين معاكسين بعد أن أتما هذه العملية غير القانونية.

دفع ياسر عربة الأمتعة عبر مخرج صالة المطار مارا بعشرات الناس المتجمهرين في انتظار وصول من ينتظرونهم. لم يحدق بهم طويلا فهو يعلم أنه لم يكن منهم أحد في انتظاره. وما أن خرج عبر بوابة الصالة حتى انهمر عليه سائقو سيارات الأجرة من كل مكان يطاردونه بالأسئلة عن إلى أين سيذهب وعن إذا ما كان يريد سيارة صغيرة أم كبيرة وعن إذا ما كان يحتاج مساعدة ما في حمل حقائبه. قديما كان ياسر يرد عليهم بلطافة بالاعتذار والشكر ولكن لم يعد له موفور طاقة لذلك فاكتفى بالصمت تاركا إياهم ينبحون بالأسئلة من حوله. شق طريقه عبرهم حتى وصل إلى مصطبة لا تبعد كثيرا عن مخرج المطار

وجلس عليها. التف السائقون حوله مواصلين القاء اسئلتهم وعروضـــهم عليه لكنه واصـــل تجاهلهم. أخرج نظارته الشـــمســـية من جيب حقيبته، ارتداها وأخذ يتأمل ببرود وصـــمت فيما يجري من حوله. بعد مدة انصـــرف عنه السائقون ليطاردوا غيره من الزبائن المحتملين، لكن واحدا منهم عاد إليه، وقبل أن يفتح فمه لينطق بادره ياسر بالسؤال

- بكم تأخذني إلى الملازمين؟
- الملازمين أمدرمان؟ ســـأوصـــلك إلى هناك بألف جنيه
- مائتان فقط
- إنها قليلة جدا على مشوار بعيد كهذا. فلنقل ثمانمائة
- مائتان وخمسون
- والله إنها لا تكفي. لا يوجد مشـــوار لأمدرمان بأقل من خمسمائة جنيه
- ليس عندي أكثر من ثلاثمائة
- خلاص أتذهب باربعمائة؟
- ثلاثمائة فقط
- حسنا توكلنا على الله. فقط لأنك أول زبون

دفع الرجل العربة التي تحمل حقيبة ياســـر باتجاه ســـيارته ومشـــى ياســـر خلفه. الحقيقة أن ياســـر لا يعلم كم يكلف هذا

المشوار، فقيمته قد تغيرت كثيرا عبر السنوات الماضية مع انخفاض قيمة العملة المحلية، لكن ما يعلمه ياسر أن هؤلاء السائقين العاملين حول المطار هم مسرفون في الطمع، ويجيدون استغلال القادمين الغافلين إلى البلد ليأخذوا منهم مبالغا أعلى بكثير من قيمة مشاويرهم الحقيقية. لا يحس ياسر أنه ظلم هذا السائق فهو بالتأكيد ما كان ليوصله إن لم يكن هذا المشوار مجديا اقتصاديا بالنسبة له. إن كان ثمة مظلوم هنا فلا شك أنه هو الذي سيدفع ثلاثمائة جنيه في مشوار ربما لا تتعدى قيمته الحقيقية نصف هذا المبلغ.

-5-

شقت سيارة الأجرة القديمة التي تحمل ياسر طريقها خارج المطار، وسلكت دربها عبر شارع افريقيا ثم التفّت حول مباني القيادة العامة للجيش قبل أن تعبر كوبري النيل الازرق باتجاه مدينة بحري. ظلت عينا ياسر تتأمل بصمت من خلف نظارته الشمسية في المناظر البائسة من حوله. أخذ يفكر كما يفكر كل مرة عند وصوله إلى السودان بأن لا شيء يتغير في هذا البلد... نفس الوجوه الكالحة والعربات المزعجة والشوارع المهترئة والارصفة المتسخة والشمس الساخطة. كل شيء على حاله. للحظة

باغت عقله السؤال عن ماذا يفعل في هذه البقعة من الأرض؟ وما الذي أتى به إلى هنا؟ لوى شفته امتعاضا لأنه يعرف الإجابة القاسية وليس بإمكانه الفرار من حقيقتها المؤلمة... لقد جاء إلى هنا هاربا. ترك عمله وأسرته ومعيشته في أمريكا وجاء هنا ليحتمي من نفسه، من فشل زواجه، من عبث معيشته، من اكتئابه الطويل الذي سود الدنيا في عينيه. هو كان يتمنى مغادرة هذا العالم وانهاء حياته التي لا قيمة لها، لكنه لما عجز عن ذلك اكتفى بمغادرة أمريكا والعودة إلى أرض طفولته، وهي خطوة عند كثير من الناس لا تختلف كثيرا عن الانتحار.

سارت سيارة الأجرة فوق اسفلت شارع البلدية في بحري مارة بمسجد السيد علي ومواصلة طريقها نحو كوبري شمبات الذي يربط مدينتي بحري وأمدرمان من فوق النيل. الطريق مزدحم ككل شوارع العاصمة والسيارات تتحرك ببطء. سائق الأجرة حاول عدة مرات أن يبتدأ حوارا مع ياسر، أخذ يرمي بتعليقات عدة حول زحمة الشوارع وحرارة الطقس وتدهور الاقتصاد وفساد الحكومة وتذمر الشعب لكنه لم يلق من ياسر أية استجابة فكف عن محاولاته واستسلم للصمت. بعد دقائق نطق ياسر أخيرا بعد أن اجتازا الكوبري

- انحرف يسارا لو سمحت قبل صينية الأزهري
- حسنا

ها هو حي الملازمين يظهر أمام عيني ياسر فيعيد له ذكريات كثيرة عن طفولته ومراهقته وشبابه، عن والديه المتوفين وعن جيرانه واصدقائه القدامى، عن دراسته ولعبه للكرة ومغامراته مع فتيان الحارة وفتياتها. ابتسم ياسر لنفسه في برود وأخذ يفكر أن كل ذلك لا معنى له، فكل أحداث حياته لا قيمة لها على المستوى الكوني، مجرد حيوان ثدي آخر بين مليارات الحيوانات الثدية ولد وترعرع وأكل وشرب وتناكح وتكاثر وسيموت بعد أن يعيش زمنا قصيرا. لن يعبئ كوكب الأرض ذي المليارات الاربعة من العمر بشيء مما فعله أو أنجزه. كل حياته العابثة بما فيها من أحلام وآلام ستكون أقل من فمتو ثانية بمقاييس الكون، وسيتحول بعدها إلى رماد من ذرات الكربون ربما ينتهي بها المطاف في خلية نباتية في عود برسيم يأكله حمار ثم يخرجه من دبره.

- انحرف يسارا هنا ثم قف عند ثالث بيت على اليمين

-6-

توقفت سيارة الأجرة أمام بوابة بيت ياسر. نزل ياسر منها معلقا على كتفه حقيبته الصغيرة التي رافقته طوال رحلته التي ابتدأت من بيته في تشارلوت في ولاية كارولينا الشمالية مرورا بنيويورك وبعدها دبي حتى وصل أخيرا إلى هذه اللحظة أمام داره بالملازمين. ست وثلاثون ساعة استغرقتها رحلته بين داريه في غرب الأرض وشرقها ما بين الطيران والترانزيت، لكنه وصل أخيرا.

وقف ياسر يتأمل في البيت الذي قضى فيه سنوات طفولته وقسما من شبابه. تنهد عميقا وبرأسه تمر لقطات سريعة لأحداث عاشها في هذا البيت، منها ما هو سعيد ومنها ما هو ليس كذلك. تأمل في بوابة البيت ذات الطلاء المهترئ ثم رفع بصرها للنخلة العالية التي تتطاول من خلفها، ومد النظر يتأمل في الطابق الثاني من أوله إلى آخره ثم تنهد مرة أخرى، ففي هذا الطابق عاش أجمل ايام حياته مع زوجته سارة قبل أن يهاجرا إلى أمريكا. ليت تلك الأيام تعود عندما كان انسانا سعيدا تملؤه الأحلام وتدفعه الآمال. أيام كان فيها أنسأنا حيا. وها هو يعود لنفس المكان بجسده فقط بعد أن فقد روحه.

وضـــع ســـائق الأجرة حقيبة ياســـر التي أخرجها من خلفية السـيارة بجواره وهو يهنئه على سـلامة الوصـول. أخرج ياســـر ثلاثمائة جنيه دفعها له شـــاكرا ثم راقبه بعينيه حتى انصـرف. بعدها طرق ياسـر الباب ثم أخذ يبحث بين نقوده وجوازه وأوراقه عن مفتاح البيت حتى وجده والتقطه. ولما هم أن يدخل المفتاح في القفل انفتح الباب...

- ياسر... يا للمفاجأة السعيدة
- أهلا يا عم زكريا

تعانق الرجلان لكن عناق عم زكريا كان أكثر صدقا وعمقا من اعتناق ياســـر له بالرغم من أن ياســـر يكن الكثير من الاحترام لهذا الرجل الكهل الذي عاش سنوات طويلة معهم في الدار، حارسـا لها، وسـائقا لوالديه الراحلين، ومسـؤولا عن الاهتمام بحديقتها، وتحصـيل إيجار الدكان الذي ورثوه عن جده في ســـوق أمدرمان. هو رجل محترم وخدوم لكن كل ما في الامر أن ياسـر صـار متبلد المشـاعر مما يجعله باردا في الاتصـــالات الجســـدية مثل العناق والمصـــافحة، يفضـل ألا يلمســه أحد وألا يلمس أحدا، وحبذا ألا يتكلم مع أحد وألا يكلمه أحد، ولو كان بإمكانه أن يختار لاختار ألا ينظر لأحد وألا ينظر إليه أحد.

- حمدا لله على السلامة يا ياسر... متى الوصول؟
- سلمك الله... قبل قليل...
- لماذا لم تخبرني حتى أنظف لك البيت وأجهزه؟
- لقد حدث كل شيء بسرعة، قررت السفر بشكل مفاجئ وركبت الطائرة في نفس اليوم
- خيرا إن شاء الله؟ أتمنى ألا يكون هناك مكروه ما...
- لا ليس هناك شيء من هذا القبيل
- الحمد لله... كم ستمكث معنا؟
- لقد نويت الاستقرار هنا

ارتفعت حواجب الرجل دهشة، فليس من المعتاد أن يترك شخص ما أمريكا أو غيرها من بلاد الدنيا المرفهة ليعود ويمارس الشقاء في السودان باختياره. لكن زكريا سكت ولم يعلق وتناول حقيبة ياسر يحملها إلى الداخل. حاول ياسر منعه لأنه لا يحب أن يخدمه أحد خصوصا إن كان رجلا كهلا كعم زكريا بيد أن الرجل أصر. عبرا الحديقة الأمامية للبيت مرورا بالنخلة الطويلة حتى وصلا إلى باب البيت الداخلي. أمسك ياسر بحزمة المفاتيح وبحث عن مفتاح الطبلة الخارجية حتى وجده وفتحها، وبعدها فتح الباب فظهرت أمامه الصالة الكبيرة التي تستقبل الداخلين إلى البيت. خطا ياسر خطوات قليلة فوق أرضيتها المغبرة

ووقف في منتصـــفها يتأمل طقم الجلوس المغطى بأغطية تكتسي بأكوام من الغبار، وكذا يملأ الغبار أسطح الطاولات وقطع الأثاث. "تبا... من أين يأتي هذا الغبار اللعين رغم أن كل النوافذ والأبواب مغلقة؟ " فكر ياسـر في نفسـه وهو يتـأمـل الخطين المتوازيين على الأرض المغبرة الـذين تركتهما عجلات حقيبته التي دفعها عم زكريا إلى منتصـف الصـــــــــــــــــالـــــــــــــــــــــة .

- ســـأتصـــل بحياة لتأتي وتنظف البيت... أتمنى ألا تتأخر.
- حسنا... شكرا يا عم زكريا

أخرج زكريا هاتفه من جيبه وهو منصـرف خارجا لينفذ ما قاله، بينما ســحب ياســر حقيبته إلى الداخل مارا بالمطبخ والحمام ثم نظر يسـارا إلى غرفة والديه المغلقة وهز رأسـه في أســى قبل أن ينعطف يمينا ويفتح باب غرفته، الغرفة التي قضــى فيها شـطرا مقدرا من حياته، أكثر مكان يحس بالانتماء له على هذا الكوكب. أخذ بحبور يتأمل في سـريره ودولاب ملابســه وقطع الاثاث المتناثرة. أحس بشـــيء من الفرح يتســلل إليه بالعودة إلى هذه الغرفة، لكن اتســاخها بأطنان من الغبار عكر عليه فترك حقيبته فيها وانصــرف عنها خارجا .

-7-

خرج ياسر من باب الصالة إلى الحديقة ثم انعطف يسارا مرتين حتى وجد سيارته أمامه. (هيونداي اكسنت) بيضاء مصنوعة عام 2007، هي كل ما تبقى من السيارات الثلاث التي كانت تملكها أسرته، مازالت تقف هنا في تحدي تحت هذه المظلة المصنوعة من الزنك، والتي تقيها من أشعة شمس أمدرمان التي لا ترحم .

مجددا أمسك ياسر بحزمة مفاتيحه وتناول مفتاح السيارة وفتح بابها. ألقى بحقيبة كتفه على مقعد السائق ثم سحب زر فتح غطاء مقدمة السيارة وتوجه إليه ورفعه إلى الأعلى. تأمل في محركها وأجهزتها وابتسم، فكل شيء يبدو على ما يرام رغم الغبار العالق. أمسك بسلكي بطارية السيارة المفصولين ووضعهما في مكانيهما على قطبي بطارية السيارة فاشتغلت اشاراتها مباشرة وأصدرت صوتا منبها يدل على عمل جهاز الإنذار فيها. زفر ياسر أنفاسه في راحة، فهو لن يكون بحاجة لتكلف عناء الذهاب إلى السوق الشعبي والبحث عن بطارية جديدة وشرائها كما فعل في زيارته السابقة إلى السودان قبل عام. أغلق غطاء المحرك وعاد إلى داخل سيارته وأدارها فدارت على الفور .

منح ياسر السيارة عده دقائق ليسمح بمحركها بالدوران بعد هذه المدة الطويلة من الســــبات. ظهر عم زكريا من خلفه وفتح باب الجراج ثم اقترب من ياسر وقال

- لقد اتصلت بحياة... إنها في الطريق
- شكرا يا عم زكريا
- اعتقد أنها ســـتحتاج إلى ســـاعتين على الأقل حتى تنظف الطابق الأرضي
- لا بأس
- أتريد منها أن تنظف الطابق الأعلى أيضاً؟
- لا داعي لذلك فلن افتحه
- حسنا
- شكرا يا عم زكريا
- يمكنك أن تمضـــي مباشـــرة ولا تأبه لباب الجراج فسأغلقه خلفك مباشرة
- حسنا... شكرا مجددا يا عم زكريا

-8-

ســار ياسـر بسـيارته عبر طرقات حي الملازمين الخربة، فهي مليئة بالحفر والتعرجات، شــأنها في ذلك شــأن معظم

شوارع العاصمة. وصل إلى ميدان الشهداء حيث يلتحم السوق بموقف المواصلات الكبير وتابع رحلته حتى وصل إلى حي الركابية الأمدرماني العتيق. أوقف سيارته على شارع الاسفلت الرئيسي وحمل حقيبته على كتفه وسار على قدميه، فشوارع الحي يستحيل سبرها بالسيارة لضيقها وتعرجها، لأن بيوت هذا الحي القديم تتناثر عشوائيا، تماما كما نشأت قبل مائتي عام، واحتفظت بفوضويتها هكذا وظلت عصية على التخطيط .

وصل ياسر أخيرا إلى مقصده، إلى بيت عمته خديجة، الإنسان الوحيد في هذه البلاد الذي يعني شيئا له، يكن لها ودا من بعض ود أبيه، وهي لطيفة المعشر ظريفة الحديث رطبة الخلق، تهتم بصدق لأمره، وعلاقتهما عميقة حتى من قبل أن يتوفى والده قبل سنوات خمس، ولذلك يحرص ياسر على التواصل معها كلما وطئت قدماه السودان، على عكس تواصله المنقطع بكل أقربائه الآخرين الذين لا يهتم لهم ولا يهتمون له، وإن كان فيما مضى يحاول مواصلتهم من باب البر وصلة الرحم، بيد أنه ما عاد له طاقة للاستمرار في ذلك .

طرق الباب وتنحى جانبا، بعد ثوان جاءه صوتها متسائلا

- من بالباب؟
- أنا ياسر يا عمة خديجة
- ياسر من؟
- ياسر ابن شقيقك علي يا عمة خديجة

فتحت خديجة الباب وقالت "الغالي ابن الغالي... حمدا لله على السلامة" وأخذت بياسر في حضنها وهي تبكي شوقا. استسلم ياسر لحضن عمته في سعادة، أغمض عينيه وتذكر أباه وأمه ودعا لهما بالرحمة. حاول أن ينزل دمعة من عينيه لتنضم إلى دموع عمته لكن غدده الدمعية الجافة خذلته، غير أنه على الأقل أحس بالسعادة في حضن عمته أكثر بكثير من حضن عم زكريا الغفير .

-9-

أمسكت العمة خديجة بيد ياسر وقادته ماشية ببطء إلى داخل دارها مرسلة إلى ذهنه عاصفة من الذكريات، فكل شيء في هذا البيت ظل كما هو على حاله عبر ثلاثين عاما من الزيارات الودودة وذكريات اللحظات القديمة، فها هو زير المياه يستتب على قاعدته أمام الباب متحديا مرور السنوات، وها هي راكوبتها المعروشة بسعف النخل لا

تزال منتصبة في قلب حوش البيت، وها هما السريران الكائنان تحتها لا يزالان موجودين في تحد للزمن. كم من أحباب رقدوا عليهما مستظلين بهذه الراكوبة ثم غادروا الدنيا ليرقدوا تحت التراب، كلهم ذهبوا وهما لا يزالان باقيين، سريرين أزليين لا يفنيان. ربما تنقرض الحياة وتتبعثر المجرات ويتلاشى الكون وينعدم الوجود وهما هنا على حالهما، يستقران بأمان تحت راكوبة عمته، ويخرجان لسانهما للعدم.

جلس ياسر على أحد السريرين بحبور وأخذ يتلمس بيديه ملائة عمته القديمة التي فرشت عليه ويحس بالأمان والاطمئنان والسعادة، بالعودة إلى موطنه الأول، كجنين عاد إلى رحم أمه. دخلت عمته إلى الحجرة الصغيرة التي تقابل الراكوبة والتي تدعوها مطبخا ثم جاءت حاملة ما توقعه ياسر، نفس الصينية الحديدية المستديرة الصغيرة، ونفس الكوبين فوقهما، أحدهما ماء والآخر عصير ذو لون برتقالي. "رباه لا شيء يتغير في هذا المكان الجميل" قالها ياسر لنفسه مبتسما. وضعت عمته الصينية أمامه وجلست قبالته على السرير الآخر وقالت

- حمدا لله على السلامة يا ياسر... متى الوصول؟
- قبل قليل يا عمتي

- لماذا يا ولدي لم تخبرني قبلها كي أجهز لك غداءا... لا شك أنك جائع
- لقد قررت السفر فجأة وحدث كل شيء بسرعة ...
- حسنا، لدي بامية مطبوخة ومحشي في الثلاجة هل أسخنهم لك؟
- لا يا عمتي شكرا، لست جائعا، أود فقط السلام والاطمئنان عليك
- أنا بخير يا ولدي... فقط آلام الظهر المزمنة... والمعيشة التي أصبحت جد غالية... السكر والطماطم والزيت واللحمة كله أصبح غاليا...
- كأن الله في العون يا عمتي... هل ياسين موجود؟
- لا إنه يخرج من الصباح ولا يعود الا متأخرا. إنهم يهلكونه بالعمل في هذا البنك. يشقى كثيرا ومرتبه ملاليم. لو رأيته ستحن عليه... نقص وزنه واعتلت صحته
- كأن الله في عونه أيضاً
- هل أحضر لك قهوة؟
- لا داعي لذلك يا عمتي شكرا

مدت خديجة يدها تحت مخدة سريرها وسحبت من هناك علبة سجائر وولاعة ثم أشعلت سيجارة واستلقت راقدة على السرير تنفث الدخان للأعلى. راقب ياسر المشهد

بحبور، فهو يرسـل إلى دماغه تيارا من ذكريات الطفولة. لطالما ارتبطت عمته خديجة في ذهنه بالسـيجارة. وقد مضـى عليه زمن قبل أن يدرك أن ما تفعله ليس عاديا بمقاييس المجتمع من حوله، فلا وأحدة من عمات كل اصـدقائه الذين سـألهم تفعل ذلك. ثم إنها هي الوحيدة التي تدخن بين كل قريباته. لا بد أنها بسـنواتها الثمانين تنتمي لزمن آخر، زمن مختلف وأكثر انفتاحا من هذا الزمن الذي يلف حياة ياسر، فحتى إن كان التدخين في أصله ضارا وسـيئا إلا أن تدخين المرأة في هذا المجتمع المتسلط الذكوري لهو ثورة وتحدي، وعمته الحنونة الوديعة العجوزة التي تنفخ سـيجارتها تحت ظل هذه الراكوبة البدائية هي ثائرة جيفارية حتى وإن لم تكن تدرك ذلك .

فتح ياسـر حقيبته المعلقة على كتفه وأخرج منها صـندوقا من علب السجائر ومده نحو عمته قائلا

- تفضلي يا عمتي...
- لماذا يا ولدي هذا التكلف؟
- إنها شيء بسيط، أخذتها لك من السوق الحرة

مدت العجوز يدها تلتقط منه في فرح صـندوق السـجائر وتقلبه وتتأمله ثم قالت

- يا ســـلام... ســـجائر بنســـون الماركة الإنجليزية الاصلية
- أجل
- لقد أصـــبحت معدومة هنا، والموجود فقط هو من الصناعة السودانية الرديئة
- أنت تعرفين يا عمتي رأيي في التدخين وضـــرره الصحي والاقتصادي عموما، قلته لك مرارا سابقا، ولكني أعرف أيضا كم تسعدك
- لم يتبق لدي يا ياسر من بهجة الدنيا سوى السيجارة والقهوة. رحـل الأحبـاب عني واحـدا بعـد الآخر وظللـت هنـا وحـدي. الكثير منهم غـادروا الـدنيـا والبقية غادروا السـودان. الحمد لله أن ياسـين ولدي عـاد من غربتـه ليؤنس وحـدتي، كمـا أن عمر ابن عمك عصـــام قد أتى اليوم من البلد إلى العاصـــمة. لقد اتصل بي قبل قليل وسيزورني في المساء. لديه امتحان التخصص، وإذا نجح فيه سيصبح اخصائيا في طب الاطفال ما شـــاء الله، وكم أنا الآن ســـعيدة بوجودك أيضاً... كم ستمكث في السودان؟
- لا أعرف بعد يا عمتي... لكن لعلها مدة أطول من إجازاتي المعتادة
- هل الأولاد وأمهم بخير؟

- جميعهم بخير الحمد لله

قام ياسـر عن السـرير وأدخل يده في حقيبته مجددا وأخرج منها مائتي دولار ومدها لعمته الراقدة قائلا

- هذه هدية بسيطة مني يا عمة خديجة
- لماذا تكلف نفسك كثيرا يا ولدي؟
- لا تكليف يا عمتي... سـأنصـرف الآن وسـأزورك مجددا في أقرب وقت. أوصلي تحياتي إلى ياسين
- رافقتك السلامة يا عزيزي... لا تنقطع عني

-10-

خرج ياسر من بيت عمته سائرا في أزقة حي الركابية نحو الشـارع الرئيسـي حيث تقف عربته، يعصـف به شـعور من الحنين وظلال من السـعادة بعد هذه الزيارة، فعمته تمثل له صـورة حياته السـابقة، الحياة المترعة بالأحباب والآمال والأحلام. لو كان يعرف حينها أنه سيصل إلى هذه المرحلة التي هو فيها الآن من انقطاع الحياة وتعطل الآمال وتوقف الأحلام لتمنى سـاعتها أن يتجمد به الزمن هناك، شـابا يافعا مكافحا وسـط أحبابه يواصـل الحلم. ما كان سـافر لهولندا

ودرس الماجستير، ولا تزوج سارة ولا أنجب منها ابناؤه الثلاثة، ولا كان هاجر لأمريكا ولا ترقى في عمله في بنوكها، ولا كان حقق كل ذلك الذي كان يتطلع اليه ويحسده عليه الآخرون. كل ذلك الآن أضحى بلا معنى لديه. لعل متعة الحياة الحقيقية هي في الرحلة نحو تحقيق الأحلام وليس في ذات تحققها، إذ أن هذه الأحلام عندما تتحقق تجلب معها الكآبة إن لم تعوضها أحلام أخرى، تماما كما حدث له، أصبح رجلا بلا أحلام ولا آمال ولا تطلعات باستثناء تطلعه لمغادرة هذه الحياة. ربما يستطيع الإنسان أن يعيش بلا مال، لكن الحياة بدون أحلام غير ممكنة .

فتح ياسر باب سيارته وهم بالركوب عندما سمع صوتا ينادي باسمه من خلفه. التفت لمصدر الصوت ورأى رجلا ينزل من سيارته في الجهة الاخرى من الشارع، يرتدي هنداما أنيقا ويحمل حقيبة رسمية. أغلق ياسر باب سيارته وقطع الشارع متوجها إليه، ودخل الرجلان في عناق قصير

- حمدا لله على السلامة يا ياسر...
- سلمك الله يا ياسين... سعدت برؤيتك... كنت قبل قليل عند عمتي وسألتها عنك

- أنا سـعيد بأني أدركتك قبل أن تغادر. أجئت في إجازة قصيرة؟
- الحقيقة لا، أفكر ربما في الاستقرار هنا إذا كانت الظروف مناسبة
- وماذا عن الأولاد وأمهم؟
- لا يزالون هناك في أمريكا وأمورهم على ما يرام
- أيعقل هذا؟ أتترك عملك الممتاز في بنوك أمريكا لتأتي وتنسحق معنا في طاحونة هذا البلد
- ماذا أقول؟ هو نوع من التغيير... ربما أضيف نكهة جديدة لهذا الطحين
- وهل لديك خطة ما؟ عرض عمل ما؟
- الحقيقة لا. لقد وصلت قبل ساعات فقط
- هل تود أن أعرفك على مدير البنك الذي أعمل فيه؟ فلربما يرغبون في خدماتك

ارتبك ياسر عند سماعه لهذا العرض المفاجئ. هو في الحقيقة لم يكن يرغب في البحث عن أي عمل، وكان فقط ينوي قضاء وقته متسكعا في ردهات نفسه معتمدا على مدخراته التي جلبها معه من أمريكا. يشعر أنه لا طاقة له ولا رغبة لبدء عمل جديد. هو لم يترك عمله المجدي في أمريكا ودولاراته الكثيرة ليعمل مجددا هنا بفتات مرتبه السابق. حاول أن يرد على عرض ابن عمته معتذرا غير

أن الكلام توقف في حنجرته. لم ينتظر ياسين كثيرا قبل أن يقول

- سأخبره عنك غدا. وإن تحمس للفكرة فسأرتب لك موعدا معه. هل ما زلت محتفظا بنفس رقم هاتفك القديم؟

قال ياسر في وداعة واستسلام "نعم"

ابتسم ياسين ومد يده إلى ياسر مصافحا وقال "اذن اتفقنا"، ثم ودعه وانصرف عنه قاطعا الشارع وداخلا إلى زقاق بيتهم في حي الركابية. عاد ياسر نحو سيارته متثاقلا يجر قدميه، ركبها وجلس لحظات يفكر، غاظه عجزه عن الرفض وساءه استسلامه هكذا لمجرى الأحداث. هو لم يعد بطلا لفيلم حياته الخاصة وإنما شخصية ثانوية تحركها بقية الشخصيات من حوله. تنهد مهدئا من نفسه وطاردا الأفكار السلبية عنها يطمئنها أنه سيعتذر ببساطة إن اتصل به ياسين ليطلب منه مقابلة المدير. هو في الحقيقة لا يرغب في العمل ولا في مقابلة مدير ياسين ولا في مقابلة ياسين نفسه. كل ما يرجوه أن يتركوه وحيدا هكذا يتوه في ملكوت ذاته بلا مضايقات حتى تفتي الاقدار في شأنه. أدار ياسر محرك السيارة وأنطلق بها عائدا إلى بيته في الملازمين

وهو يقول في نفسه "تبا لياسين... فقد قضى على البهجة التي حصلتها من لقاء عمتي بعرضه الغبي".

-11-

وصل ياسر إلى البيت وأدخل سيارته في الجراج ثم نزل متجها عبر الحديقة إلى باب الدار. أوقفه عم زكريا الذي جاء مسرعا من الجزء الخلفي لحوش البيت وأخبره أن حياة لا تزال تنظف ولكنها أوشكت على الانتهاء. أخرج ياسر من حقيبته بعض الجنيهات التي صرفها في المطار وقدمها لعم زكريا وطلب منه أن يحاسبها عندما تنتهي. ثم دخل إلى الصالة التي أخذ رخام ارضيتها يلمع بعد أن زال عنه الغبار. مر بالمطبخ والتفت إلى حياة المنهمكة في تنظيف أرضيته وألقى عليها التحية ثم واصل سيره نحو غرفته. وجدها نظيفة ومرتبة وعلى السرير افترشت ملاءة نظيفة تراوده عن نفسها لأن يرقد عليها. أغلق باب غرفته ونزع عنه ملابسه وشغل مروحة السقف وألقى بنفسه فوق السرير يتقلب عليه. أحس بقدر من الهناء والراحة، لكن تعب رحلته الطويلة بدأ يظهر نفسه ويدعوه لأخذ قسط من النوم. قام إلى خزانة ملابسه يبحث عن شيء يتغطى به. وجده والتقطه، وقبل أن يعود إلى سريره فتح الدولاب

الكبير الـذي يتخـذ مكـانـه بقرب خزانـة الملابس، وبقي لحظات يتأمل سـاكنا ومغتبطا في منظر الكتب المتراصـة التي ملأت ناظريه. مكتبته الحبيبة... لكل كتاب هنا قصـة رحلة معه. تلخص هذه المكتبة سـنوات حياته ومسـيرة تطورها، فهنا عشـرات الروايات التي قرأها في صـباه، وبعدها دواوين من الشعر لشعراء قدامى ومحدثين، ثم تأتي كتب إسـلامية شـتى، فقه وتفسـير وحديث وعقيدة، وكتب أخرى عن أديـان وملـل وفرق ومعتقـدات، وبجوارهـا تصـطف كتب العلوم الطبيعية المتنوعة في الفيزياء والفلك والجيولوجيا والأحياء، وبعدها ترتص كتبه الجامعية في الاقتصاد والإدارة، ثم كتب فلسفية شتى تغطي قسما لا بأس به من مدارس الفلسـفات المتعددة، وأخيرا كتبه الحديثة الاقرب لقلبه عن الصـوفية ونزعاتها وفلسـفتها ومذاهبها. رحلة طويلة مع القراءة اسـتمتع ياسـر بكل خطواتها، لكنه وصل إلى نهايتها. لم يعد به شغف لقراءة أي شيء. لا قديم يعاد ولا جديد يثير الرغبة. أغلق مصـراعي دولاب مكتبته وحمل غطائه في يده إلى السرير.

وضـع ياسـر رأسـه على المخدة متدثرا بغطائه. أغمض عينيه وتمنى أن ينام ولا يستيقظ أبدا.

-12-

انقطعت الكهرباء في البيت فأصبح الجو فيه خانقا لا يطاق مما أيقظ ياسر من نومته. كانت الشمس قد غربت لكن بقية من ضوئها لا تزال عالقة في الأفق. خرج ياسر من البيت يمشي على قدميه بلا هدف، يريد فقط أن يهرب من سجن بيت مضجر بلا كهرباء. سار عبر شوارع حي الملازمين حيث يقع بيتهم إلى أن وصل شارع النيل المطل على النهر الذي يحمل اسمه، وأخذ يسير فيه باتجاه الشمال. مر من تحت كوبري شمبات الذي يقطع النيل شرقا نحو بحري، ومشى مارا بباعة الفواكه المتراصين بمحاذاة الشارع يعرضون ثمارهم للراغبين، ومر بجوار سيارات كثيرة ركنت يمينا بجانب الرصيف ليتزود اصحابها بالبرتقال والموز والجوافة والبطيخ وغيرها من طيبات الأرض. وقف ياسر عند طاولة أحد الباعة واشترى كيلو من الجوافة، وأخذ يقرضه حبة وراء حبة وهو يسير في طريقه. وعندما بدأ سوق حي (ابو روف) يظهر عن يساره عبَر الشارع للجهة الأخرى وتوغل داخل الحي، إلى أن وصل إلى قلب السوق قبالة الجامع. تذكر أيام كان يأتي هنا كثيرا عندما كان طالبا، فجل ثيابه آنذاك قد صنعت هنا، فبالقرب من هذا الجامع كان يقع دكان شوبو، الخياط الجنوبي ذي المقص الايطالي البارع. كان قادرا على أن

يحول أمتار القماش المملة إلى أعمال فنية رائعة تكســو الاجساد. نظر إلى الدكان المغلق منذ سنين وتنهد، فصاحبه الفنان قد رحل عنه منذ أن حل عليه بغتة صباح لم يعد بعده مواطنا في هذه الدولة، وإنما أضـــحى فجأة ينتمي إلى بلد آخر عندما انقسم السودان الواحد إلى سودانيين. أخذ ياسر يفكر كيف أن صدفة قدرية عشوائية جعلت شوبو ابنا لأب من قبيلة النوير المتوطنة في مدينة ملكال بجنوب الســودان هاجر إلى العاصمة ليقيم فيها ويتزوج ويلد ابنه شوبو بها، وكيف أن صــدفة قدرية عشــوائية أخرى أجبرت هذا الابن المولود في هنا على ترك مكان عاش فيه خمســين ســنة، وترك دكان كان محور عمله وحياته لأكثر من ثلاثة عقود، والرحيل إلى مكان آخر لا يعرفه، ولكنه أجبر على الذهاب إليه فقط لأن والده قد ولد فيه. هل يا ترى تتســلى الأقدار بمثل هكذا عبث؟!

عندما خرج من عمق أفكاره اكتشــف أن قدميه قد تعبتا من المشي. رأى على جانب الشارع مصطبة قد هيئت للجلوس والاستظلال فاتجه نحوها. وهو سائر إليها أخذ يقرأ ما كتب على اللوحة المعدنية الملحومة في أعلاها

لروح المرحومة عائشة محجوب الزبير
تاريخ الوفاة 15 رمضان 1415 الموافق 15 فبراير 1995

جلس على المصـطبة وحيدا، يفكر في أنه لا يوجد ما يبرر تواجد هذه المصـطبة المظللة هنا، فهذا المكان لم يعد موقفا للمواصلات، لكن لعله كان كذلك قبل بضعة وعشرين عاما عندما توفيت عائشة. تساءل ياسر "كم كان عمرها يا ترى عندما ماتت؟ وما هو سبب موتها؟ وهل بقي منها شيء في قبرها؟ هل تصلها هناك حسنات أو بركات لجلوسي الآن تحت مظلتها؟ هل كان لها زوج أو أولاد؟ وأين هم الآن؟ هل يتذكرونها يا ترى أم أنهم اكتفوا بعمل هذه المظلة البائسة ليذكرها العابرون بلا هدف من امثالي؟ هل كانت امرأة طيبة أم شريرة؟ كم مشكلة يا ترى جمعتها مع جارتها؟".

فكر ياسر أنه لم يتبق من وجود هذه الإنسانة المسماة عائشة محجوب الزبير شيء سوى هذه المظلة التي تحمل اسمها، وربما بضع نسخات من جيناتها وزعتها في أولادها إن كان لها ذرية، لكن هذه الجينات حتى إن وجدت فهي لم تعد لها. لابد أن عائشة قد عاشت حياة كحياة اي انسان آخر، حياة ملئى بالأحلام والآمال والآلام والأفراح والأتراح والانجازات والتحديات. ربما أَحَبّت وأُحِبّت وتزوجت وتطلقت وصادقت وعادت وكسبت وخسرت ومرضت وتعافت، لكن كل ذلك انتهى منذ أكثر من عشرين عاما،

ولم يتبق منها سوى اسم تحمله مظلة. كأن كل حياتها تلك كانت عبث رضيع يلهو، ولا شيء أكثر هزلا وعبثا من اسمها الذي يتناقض بصفاقة مع واقعها.

وضع ياسر يده على وجهه وكأنه يحمي نفسه من حرارة أفكاره. فكر لو أن عائشة هذه لم تكن هي وانما كانت ماري كوري مثلا، العالمة الفذة الحائزة على جائزة نوبل مرتين... هل كان الامر ليختلف؟ مدام كوري اسمها ليس معلقا على مظلة متهالكة في حي ابو روف الأمدرماني ولكنه بالتأكيد معلق على قاعات عدة في جامعات عالمية راقية، وسيرتها العلمية الفائقة تملأ الكتب، وذكرها سيظل باقيا أكثر من عائشة هذه التي سينتهي أمرها عندما يأكل الصدأ ما تبقى من لوحة مظلتها المتواضعة، في حين أن ذكر ماري كوري سيبقى خالدا...

"خالدا؟! " تمتمت شفتا ياسر بآخر كلمة جلبتها سلسلة أفكاره، "خالدا إلى متى؟! " سائل نفسه... "هل سيبقى لها ذكر بعد مائة عام؟ ماذا عن ألف عام؟ حسنا مليون عام؟ " ... هز رأسه يمنة ويسرة كأنه يجيب بالنفي على تساؤله، ثم رفع بصره سامها إلى السماء فرأى القمر الذي بدأ يتخذ مكانه في الأفق. زمّ شفتيه وأخذ يفكر... هذا القمر موجود بقرب الأرض منذ مليارات السنين، كم من عائشة وكم من

ماري كوري نظرت إليه، جميعهم ذهبوا وبقي هو، لكنه مع ذلك ليس خالدا، فهو لم يظهر للوجود أصلا إلا في الثلث الأخير من عمر الكون ذي الأربع عشر مليارا من الأعوام، ومصير هذا القمر أيضاً إلى زوال، تماما مثل عائشة ومدام كوري، غير أنه محظوظ أكثر بكثير من البشر التعساء، لأنه لا يسأل من أين أتى ولا إلى أين سيذهب، وليس مهتما بالخلود ولا بالفناء، هو فقط يدور ويدور، بينما نحن من ابتلينا بشقاء التساؤل، وشقاء اتباع ما تنسجه خيالاتنا من أجوبة، ومع أن وجودنا عبثي كوجود القمر وزوالنا حتمي كزوال القمر إلا أن خيالنا الخصب جمح بنا وصنع لنا فكرة الخلود المرهقة، لعله أراد أن يريحنا من وطئ غربتنا الكونية فأتعبنا عوض ذلك، ونفس هذا الخيال الجامح هو من صور لنا كذبا أن هذه الكرة الصخرية الميتة التي تدور حول الأرض بلا هدف منذ أربع مليارات سنة هي المعيار الأسمى للجمال، فاصبح اسمها صفة يكنى بها عن الجمال الباهر. كم هو مريض هذا الخيال!

بدأ ياسر يتحرك عائدا إلى البيت. نظر إلى كيس الجوافة الذي يحمله فوجده قد فرغ إلا من حبة أخيرة، تناولها وقضمها ثم كمش الكيس الفارغ في قبضته وواصل سيره متلفتا بحثا عن حاوية للقمامة حتى وصل إلى شارع بيته.

داهمه قدر من السعادة لما رأي أنوار بيوت الحي مضاءة. "الحمد لله لقد عادت الكهرباء" قالها في نفسه. توجه نحو باب بيته وكيس البلاستيك الفارغ ما زال منكمشا في قبضته. لم يجد أية حاوية للقمامة على طول الطريق، وعندما تلفت حوله وجد النفايات تتناثر على الأرض على امتداد الشارع. فتح قبضته ونظر إلى الكيس المنكمش على راحة يده، قال له "اذهب والتحق برفاقك" وألقى به على الأرض ثم دخل إلى داره.

-13-

قضى ياسر ليلته على فراشه في غرفته المظلمة، يحدق في السقف تارة، وينقلب على جوانبه تارة، حتى حل النوم المعاند أخيرا بعينيه الساهرتين. ما كاد ينام سوى بضع ساعات حتى استيقظ مرغما منزعجا في الصباح الباكر، ولم يكن ذلك بسبب أشعة الشمس الجاهرة التي ملأت غرفته فقط وإنما أيضاً بسبب الحر الخانق. لقد انقطع التيار الكهربائي مجددا اثناء نومه وتوقفت المروحة التي تمده بنسمات الهواء عن الدوران. قام ياسر من سريره متسخطا متضايقا من شلالات عرقه التي ملأت ثيابه وفراشه، توجه إلى الحمام، تجرد مما يلبسه ودخل تحت مياه الدش

المنهمرة يغسل عن جسده بقايا عرقه ويطرد عن عينيه بقايا نوم لم يكتمل .

خرج من الحمام، ارتدى ثيابه، ثم امتطى سيارته وتوجه لشارع النيل في الخرطوم. ليس لديه خطة ولا هدف، فلولا انقطاع الكهرباء واستحالة الجلوس في جو البيت الخانق بلا مروحة تتحرك لما قام من سريره. لا شيء يدفعه لذلك... فلا عمل لديه ولا رغبة عنده للقاء صديق أو قريب. يشعر أنه كيان بلا قيمة، يعيش في بلد بلا قيمة، على كوكب بلا قيمة. الحياة بالنسبة له أصبحت عبئا ثقيلا، حالة من العبث المرهق المكلف لا يعرف إلى أين تسير به ولا إلى أين تنتهي. تمر عليه الدقائق والساعات متأنية وقاسية، كأمواس حادة تتحرك على جلده ببطء .

ظل ياسر يتمرغ في أوحال أفكاره السوداء حتى وصل إلى شارع النيل، وواصل سيره فيه عابرا بالقصر الجمهوري ثم بجامعة الخرطوم، ولما رأى جسر النيل الازرق يعبر من فوقه واصلا مدينتي الخرطوم وبحري لمعت في ذهنه فكرة مفاجئة فأوقف سيارته ونزل منها، وأخذ يمشي وعيناه تتقلبان في وجوه الجالسين على ضفة النيل، المتبعثرين بين (ستات الشاي) المنتشرات على طول الطريق. هو لم يقف في هذا المكان عبثا على عكس كل العبث الذي يتلبس

أفعاله، وإنما يسير باحثا عن شيء يخدر به ألمه، فهذه المنطقة على النيل بمحاذاة هذا الجسر والتي تدعى كولمبيا هي أشهر سوق للمخدرات والمكيفات في العاصمة.

مسافة قصيرة قطعها ياسر على قدميه قبل أن يناديه أحدهم

- تفضل يا شاب

نظر ياسر إلى الشاب النحيل الجالس وسط مجموعة من الرجال، شعره كث متنافر، وشاربه طويل بينما ذقنه محلوقة جيدا، يرتدي نظارة شمسية داكنة السواد، ويحمل في يده سيجارة حديثة الاشعال. عن يمينه رجل آخر جالس وفي حجره كيس يخرج منه (قناديل البنقو)، يتأملها ويشمها ثم يعيدها إلى الكيس ثانية. وإلى اليمين من ذلك الرجل شخص ثالث ينفث سيجارة كبيرة محشوه امتلأ المكان بعبق رائحتها، بينما يجلس الرابع على كرسيه في سكون ورأسه للأسفل، يصعب التحديد إن كان نائما أم سكرانا أم مسطولا أو حتى ميتا. توجه ياسر نحو الرجل الذي ناداه، وقف على مسافة بعيدة قليلا كنوع من الحذر الفطري وسأله:

- ماذا لديك؟
- ماذا تريد؟

- ارى أن هناك بنقو ولكن هل لديك شــــيء آخر أيضاً؟
- نعم لدينا شاش كذلك
- هل أجد عندك حبوبا؟

مد الرجل جســمه للأمام وقام بلكز الرجل الســاكن المحني الرأس، فانتفض الأخير رافعا رأســـه للأعلى كاشـــفا عن عينين محمرتين تنضحان دما، قال له ذو النظارات السوداء

- هذا الشاب يريد حبوبا
- بريجابالين... ترامادول... كوزموس... كلوزبام... لجة...

رددها الرجل بصـــورة آلية، كمذيع النشــــرة الجوية وهو يستعرض درجات الحرارة في المدن. اندهش ياسر من هذه الجرأة في العرض والبيع. يســـتعرض الرجل بضـــاعته المحرمة قانونا بكل بساطة وكأنه يبيع خضارا أو عصيرا، واحتار أكثر في هذا التنوع الكبير في المعروضـــات. لقد تطور سوق المخدرات السودانية بصورة ملحوظة، ويبدو أن هذا هو المجال الوحيد الذي نســتطيع فيه مقارعة الدول المتقدمة. باستثناء الترامادول لم يتعرف ياسر على أي من الأصـــناف التي ذكرها الرجل. ولأول مرة منذ زمن طويل

يشـعر ياسـر بالإثارة، شـعر بالشـغف والرغبة لتجربة كل هذه الأصـناف، شعور كان قد نساه، جعله يحس أنه لا زال حيا متفاعلا ولذلك أحبه، حتى وإن كان يعي أن ما ينوي الإقدام عليه قد يكون سـببا في هلاكه. فكر في نفسـه "وما الغريب في ذلك؟ فلدى الإنسان دائما نزوع إلى افناء الذات، لذلك يدخن البشـر ويسـكرون، ويصـومون ويترهبون، ويقاتلون ويسـتشـهدون، ويتناولون المخدرات. الكل يريد التحرر والتخلص من ذاتـه الفـانيـة أملا في ذات أعلى تحتويهم".

سـأله الرجل ذو النظارات السـوداء عما يريد قاطعا عليه حبل أفكاره المتفلسـفة، أجابه ياسـر بأنه يريد كل شـيء، وبدأت بين الطرفين عملية من التفاوض حول الكم والسـعر لبضع دقائق، بعدها حمل ياسر كيسا به خليط من مخدرات شتى وتحرك عائدا الي سيارته.

-14-

كان ياسر عالقا في زحمة من العربات تسير مع عربته في شـارع الجامعة بالخرطوم. الشـارع شـبه واقف لا يتحرك، ومكيف السـيارة أخذه الإنهاك وهو يقاوم في الحر القائظ.

"لماذا لا يتحرك هذا الشـــارع اللعين؟ لا بد أن هناك حادث ســـير أو أن مســـؤولا حكوميا أبلها في طريقه إلى القصـــر الجمهوري ويجب على أجسادنا أن تتفسخ تحت الشمس في انتظار معاليه" أخذ ياســـر يفكر حانقا. رن هاتفه المحمول، طالع بشاشته ليعرف من المتصل، إنه عمر ابن عمه، كيف عرف أنه وصل؟

- حمدا لله على سلامتك يا زعيم
- سلمك الله يا عمر
- نورت البلاد والعباد
- النور مقطوع يا عمر، والكهرباء عموما
- لا عليك يا قريبي فستعتاد على ذلك. أجدادنا عاشوا بلا كهرباء ونحن ماضون على دربهم
- أجدادنا لم يتركوا لنا ســـوى الخراب، في حين أن اجداد باقي العالمين قد حلوا مشـــكلة الكهرباء منذ القرن التاسع عشر
- أين أنت الآن يا ياسر؟
- أنـا هـائم على وجهي في الخرطوم لأن الكهربـاء مقطوعـة في المنزل والجلوس بـه دون مروحـة تتحرك يندرج تحت خانة التعذيب
- اذن تعـال عنـدنـا فنحن لـدينـا الكثير من الكهربـاء الطـازجة. لقد اسـتأجرت شـقة مفروشـة بالقرب من

منزلكم بالملازمين، أسكن بها أنا وصديقي معتصم، أنت تعرفه فقد تقابلتما من قبل، هيا أسرع إلينا فنحن في انتظارك

في ظروف عادية لا يلبي ياسر مثل هذه الدعوات، فرغم أنه يكن بعض الود لابن عمه لأنه شخص لطيف وظريف إلا أنه لا يستطيع التفاعل جيدا مع ما يرويه عمر عادة من حكايات وقصص ونكات، فكلها بالنسبة لياسر لغو حديث لا يضيف لروح الإنسان ولا لعقله شيئا. ولأن قصص عمر تعجب غالبا الآخرين فإن ذلك يزيد من إحساس ياسر بغربته عن هؤلاء الناس وعن هذا العالم، ولذا درج على تجنب التجمعات الإنسانية الحمقاء التي تجتمع فيها هذه القردة العليا ليؤانسوا بعضهم البعض بسقط الحديث.

- حسنا يا عمر، أنا قادم اليك، أرسل لي موقعك

أنطلق ياسر يتبع الطريق الذي رسمه له برنامج الخرائط على هاتفه والذي سيقوده لشقة عمر وهو يفكر"طالما لديه كهرباء ومروحة تدور فلا مانع من تحمل نفايات حديثه البشرية".

-15-

أوقف ياسـر سـيارته أمام مدخل العمارة التي يقطنها عمر والتي للمصـادفة لم تكن بعيدة عن بيت ياسـر. عمر الواقف عند المدخل استقبل قريبه بأحضـان مفتوحة وعانقه بصـدق وعمق مما أدفئ قليلا من مشاعر ياسر الفاترة. أمسك عمر ياسـر من معصـمه وقاده إلى داخل العمارة ثم صـعودا عبر السلم إلى الطابق الأول حيث شقته.

- لماذا يا ابن عمي لم تحطنا علما بقدومك؟ ولم تعطنا الفرصة لاستقبالك بنحر الذبائح وحرق البخور؟

ابتسم ياسر ولم يعلق، واصل عمر

- بارك الله في عمتي خديجة التي اخبرتني بمقدمك الميمون. لقد اشتقنا لك جدا يا زعيم
- وأنا كذلك والله يا عمر

للحظة انتابته مسحة من الشعور بالذنب لحلفه بلفظ الجلالة كذبا، فهو منذ زمن بعيد لم يحس بهذا الشـعور الذي يدعى الشـوق. الأحياء هم فقط من يشـتاقون، أما هو فرجل ميت الاحساس والشعور، وإن كان من شيء يمكن أن يشتاق له

فهو أن يموت فعلا. لكن شعوره بالذنب سرعان ما تلاشى عندما وسوس له عقله بأن هذه الحليفة تندرج تحت لغو اليمين كقول الرجل (لا والله ونعم والله) كما يتذكر ذلك السطر جيدا من كتاب مادة الدين للصف الخامس الابتدائي.

- تفضل يا ياسر... نورتنا

قال عمر وهو يفتح له باب الشقة. ظهرت الصالة غير المرتبة التي تتبعثر على كنباتها الملابس والقوارير على وقع إضاءة زرقاء خافتة ورائحة المكان مختنقة بالسجائر. قال ياسر ساخرا

- فعلا أنتم بحوجة إلى نوري، أو إلى أي نور آخر من أي نوع
- أتظن أني أصريت على مجيئك سدى؟ نورك هو ما نحتاجه لنستكمل مذاكرتنا وتحضيرنا لامتحان التخصص... أليس كذلك يا معتصم؟

من جانب الباب ظهر معتصم يرتدي ملابس رياضية بيتية فضفاضة، ذقنه غير مرتبة وشعره هائج متمرد على التصفيف، وعيناه متكاسلتان تدنوهما هالات سوداء. بابتسامة ودودة وأحضان مفتوحة سلم على ابن عم صديقه.

- حمدا لله على السلامة... نورت السودان يا ياسر
- السودان منور بأهله يا معتصم، باستثناء شقتكم هذه

جلس ياسـر على الكنبة بعد أن أبعد عمر عنها قميصـا كان ملقيا بإهمال عليها، وابتدأ الحوار الممل الذي يمقته ياســر بالسـؤال عن أمريكا وعن صـحة الأولاد وبالحديث المجتر عن أوضـاع السـودان المتدهورة اجتماعيا واقتصـاديا. بذل ياسـر جهده للحفاظ على رمام ابتسـامته، وعلى هزة خفيفة من رأسه تدل كذبا على الاهتمام بما يقال حوله، كان كل ما يعنيه هو نسـائم الهواء التي ترسـلها تجاهه مروحة السـقف الدائرة فوق رأسه بنعمة الكهرباء. في غمرة الحديث أخرج معتصم علبة سجائره ومدها لياسر

- شكرا... أنا لا أدخن
- أوكي يا معلم

قالها معتصـــم طاويا يده الممتدة بعلبة الســـجائر ومخرجا إحداها لتتبوأ مكانها بين شفتيه.

- الا إذا كانت سيجارة محشوة...

عبارة أضافها ياسر وتعمد أن يكسوها بنبرة ساخرة حتى يمكنه التراجع عنها إن لم تلق الاستحسان، إلا أنها أثارت اهتمام معتصم الذي التفت إلى ياسر بكل جوارحه واتسعت عيناه وسأله بصوت خافت وجاد

- هل لك فعلا في هذا الجو يا صاحبي؟

صمت ياسر لبرهة ثم هز رأسه وقال بحذر"أحيانا". ابتسم معتصم حتى بدت نواجذه، وقال بنغمة أمارة بالسوء

- حسنا، إن كان لديك شيء منها فلنشعلها معا

اتقدت شمعة من الحماس في قاع نفس ياسر المظلمة، فإن نفخ البنقو والضياع في متاهات أخيلته لهو أفضل كثيرا من هذا الحديث العام الماسخ الذي يدور بينهم. أراد أن يقوم ليحضر كيس المخدرات المخبأ بعناية أسفل مقعد السائق في سيارته، ولكنه قبل أن يقوم نظر إلى عمر مستفهما إن كان يوافق على ما ينوي هو ومعتصم الإقدام عليه. ملامح عمر كانت متوجسة وتنضح بالرفض، لكن معتصم الذي فهم ما يدور بين القريبين قطع حبال نظراتهما المتبادلة بقوله

- لا عليك من عمر يا ياسر... ناولني البضاعة
- إنها تحت في السيارة
- ماذا تنتظر؟! هيا أحضرها

-16-

عاد ياسر إلى الشقة المظلمة بعد أن تناول كيس المخدرات من سيارته وألقى به في حجر معتصم. اتسعت حدقتا عيني هذا الأخير وهو يقلب محتويات الكيس ويكاد لعابه يسيل من ركن فمه من فرط الاستثارة. أمسك بنصف قندول البنقو وأخرجه من الكيس ووضعه على المنضدة التي أمامه استعدادا لعملية تحويل بعضه إلى سيجارة يستنشق دخانها في الصدور. ثم وضع الكيس جانبا وقام إلى غرفته قائلا بصوت سعيد

- سأحضر ورق بفرة نلف به سيجارة حنينة وبعدها نتأمل في كيس البهجة هذا التي أحضرته

في نفس اللحظة خرج عمر من الغرفة ليروعه منظر نصف قندول البنقو القابع على الطاولة في عجرفة وتحدي.

تســـمر مكانه قليلا ثم تلفت حوله بحركة لا إرادية قبل أن يبتلع ريقه ويقول

- أنا نازل للسوبرماركت لإحضار بعض الحاجيات. خذوا راحتكم...

أحس ياسر بالذنب، فمن الواضح تماما أن عمر غير مرتاح بل ومستاء مما يجري في شقته. قال له مسترضيا

- أنتظر يا عمر... واضــح جدا أنك متوتر... خلاص سننسى الفكرة ولن ندخن
- يعني ايه ننســـى الفكرة يا معلم؟! أكيد طبعا لن ننســـاها... بإمكانك يا عمر أن تأخذ جولة على كل ســـوبرماركتات العاصـــمة إلى أن ننتهي من مشروعنا

قال معتصم ذلك بصوت صارخ مستهتر وهو يخرج من غرفته ممسكا بورق لف السجائر. تناول سكينا وصينية من المطبخ، واتخذ مكانه على المقعد قبالة المنضـــدة. وضـــع قندول البنقو على الصينية بعناية كأم تضع رضيعها على الفراش، ثم قطع بسكينته جزءا صغيرا من مؤخرة القندول ببطء وحذر وشفقة وكأنه يعتذر له عما يصيبه من ألم.

كان عمر لا يزال واقفا يتأمل بعينين متســـعتين ما يدور أمامه، قبل أن ينتبه إلى أنه يقف الآن في ساحة جريمة ضد القانون، فَجَرَت به أقدامه نحو باب الشقة وخرج منه وأغلقه وراءه بسرعة وهو يتنفس الصعداء.

-17-

أطلق معتصــم من صــدره أدخنة التبغ المخلوط بالبنقو ومد السيجارة الملفوفة إلى ياسر قائلا

- شغل نضيف يا معلم

تناول ياسر السيجارة واجتر منها نفسا جعله مباشرة يسعل بقوة من سخونة دخانها. سحب نفسا ثانيا أجبره أن يكح من جديد كســابقه، وأخذ يطارد الأنفاس ويواجه الكحة املا في أن يخدر عقله التعس.

- على رسلك يا معلم... الدنيا لن تطير

قالها معتصم وهو يمد إليه يده طالبا منه السيجارة. ناولها إياه ياسر ثم استرخى على مقعده وأغمض عينيه، يحاول أن يركز ليعرف إن كانت السطلة قد بدأت تسري في دماغه أم ليس بعد. هو يعرف أنه لا يجيد التدخين وليس ماهرا في إدخال الدخان إلى صدره أولا، ولا في حبسه هناك ثانيا رغم أنه يعلم أن كلا الأمرين مطلوب وضروري للوصول إلى سطلة فعالة.

مد له معتصم السيجارة من جديد وبدأ ياسر رحلة اخرى من التدخين المجتهد المتبوع بكحة قاسية. كفاح ياسر واصراره أثار استنكار معتصم فقال له

- هذا الموضوع لا يبدو أنه يناسبك يا ياسر فلتتركه

أجابه ياسر بصوت ممزوج بالكحة

- لا يا معتصم... سأستمر في المحاولة فأنا ارغب في الانسطال بصدق
- في المرة القادمة سأحضر لك حشيشا، فهو أبرد من البنقو عند تدخينه، ولن يسبب لك هذا السعال المزعج

- هل تعلم يا معتصـــم أن هذه ربما ثالث أو رابع مرة أدخن بها في حياتي. أنا لســـت من هواته، لا أحبه ولا أجيده، كما أن التدخين ضار بالصحة...

أخذ معتصـــم يقهقه ضـــحكا على عبارة رفيقه الأخيرة، وأعدى بضـــحكه ياســـر الذي بدأ يقهقه هو أيضـــاً حتى انقطعت أنفاسه قبل أن يقول

- رغم أن العبارة غير مضـحكة إلا أن هذا الضـحك الزائد عن الحد لهو علامة إيجابية تدل على أن المادة الخضـــراء الســـحرية قد بدت تســـري في الدماغ...

اســـترخى ياســـر مجددا على مقعده وأغمض عينيه وأخذ يسـبح مع تيارات أفكاره شـبه المخدرة. كل لحظة انسـطال جديدة تعيده إلى تلك اللحظة الأولى في امســـتردام قبل سنوات طويلة عندما فضت الماريجوانا عذرية دماغه لتنقله من عالم الواقع المعلب إلى عالم الخيال المجنون. لكن تلك النقلة لم تكن عبر سـيجارة متعذرة الامتصـاص كسـيجارة معتصـم وإنما عبر كعكة فضـائية، نعم إنهم يسـمونها هكذا في امســـتردام، Space Cake، كعكة شـــوكولاتة عادية لكنها تحتوي على الوقود الحامل إلى الفضاء، نصف جرام

من الماريجوانا، طعمها غريب نوعا ما يمزج بين الطعم المعتاد للكعك وطعم الحشـــائش الخضــراء، التهمها ياســر ساعتها برفقة زميلة دراسته الألمانية التي ظلت توسوس له كثيرا وتحثه على خوض المغامرة.

- هل تعلم يا معتصم...

كسر ياسر جدار الصمت المطبق ليجذب نحوه عيني رفيقه المسطولتين الناظرتين بتركيز حاد في اللا شيء...

- هل تعلم أن والدي رحمه الله لو عرف أنني جالس الآن اتعاطى المخدرات كان ســـيموت من جديد صدمة وحسرة
- رحمه الله...

قالها معتصم بنبرة متطاولة وابتسامة سخيفة على وجهه لا تتناسب مع جدية إيقاع الموضوع المطروح. واصل ياسر

- لن يستطيع تصديق أن ياسر المثالي قرة عينه ودرة حيواناته المنوية يمكن أن يكون حشاشا

- هون عليك... فلفظة حشـــاش غير واقعية لوصــف شـخص يسـتطيع بالكاد أن يجتر نفسـا من السيجارة مثلك

أكمل معتصم عبارته الاخيرة وهو يقاوم الضحكات المنفلتة منه والتي انتقلت بدورها لياســـر فغرقا في نوبة طويلة من الضحك الحاد. قبل أن يواصل ياسر الحديث في الموضوع الذي بدأه

- لو أخبرتني أو أخبرت أحدا يعرفني قبل خمســـة عشـر عاما أنني سـأتعاطى البنقو في يوم ما لم يكن أحد ليصـــدقك بل ولربما قذفوك بالجنون، فلا يعقل أن ياســـر المثالي الموجود دائما في الصـــف الأول في المســـجـد وفي الصـــف الأول في قـاعـة المحاضـــرات وفي الصـــف الأول في عمل خير والذي لا يذكر لسـانه إلا خيرا ولا تقترف جوارحه إلا طيبا... لا يعقل أن يعرف شخصا يتعاطى البنقو ناهيك أن يتعاطاه هو

أجابه معتصم بصوت يخلط التحسر بالفكاهة

- هيييه دنيا...

- أجل دنيا غريبة يا معتصم... كل شيء فيها عرضة للانقلاب رأســـا على عقب. عندما كنت أصـــغر ظننت أن حياتنا تمضـــي وفق قوانين كونية ثابتة، مثل أن تجتهد فتجني أكثر من من لم يجتهد، أو أن تكون خيّرا صـالحا فتسـير أمورك جيدا في الحياة، أو أن تجد امرأة تحبها وتحبك لتتزوجها وتعيش معها في سبات ونبات، وعندما كبرت وقاربت سنة النبوة والحكمة أدركت أن لا شيء من ذلك صحيح، فهذه ليســـت إلا أوهاما يخدع بها الناس أنفســـهم ليمنحوا بعض المعنى لسيرك العبث الذي يعيشـون فيه. لا قانون ثابت في هذا الكون ســـوى قانون الجاذبية...

أطلق معتصــم قهقهة عالية من أقصـــى أعماقه حتى أنحنى على نفســه في الكرســي الذي يجلس فيه، بينما اكتفى ياسـر بالابتسام وواصل حديثه الممزوج بعبق البنقو

- أنت تضــحك يا معتصــم لأن النبتة الخضــراء قد مـارســـت مفعولها العقاري على خلايا دماغك، فصـرت مشـتت التركيز مسـترخيا، وفص دماغك الأمامي مغمور بجزيئات الدوبامين والسـيروتينين التي تجعل مزاجك ســـعيدا عاليا، وتزيد قابليتك

للضحك على ما لا يضحك عادة، لدرجة أنك تقهقه الآن على ما أطرحه من إشكالية وجودية مستعصية لو أمعنت التفكر فيها لبكيت وأحسست بالغربة والوحشة والصقيع في هذا الكون المظلم الذي وجدنا به أنفسنا

- وأليس أفضل ما نفعله يا صديقي في هذا الكون الموحش المظلم أن نشرب هذه السيجارة الخضراء لتمنحنا قليل من النور والبهجة؟

نظر ياسر بتركيز إلى معتصم الذي قال عبارته وظل فمه مفتوحا في بلاهة ينتظر تعقيب ياسر ليبدأ بعدها نوبة جديدة من الضحك. لكن ياسر لم ينبس ببنت شفة. ظل فقط محدقا في معتصم وعقله النصف مخدر يحاول أن يحلل عبارته. بدت له تلك العبارة عميقة رغم سطحيتها الظاهرية. ربما هو فعلا كذلك كما يقول معتصم، فياسر لم يشعر برغبة قديما في تجريب أية مخدرات قبل أزمته النفسية والوجدانية. عندما كانت نفسه سليمة كانت مخدرة طبيعيا بتلك الأوهام الاجتماعية التي كان يصدق بها. لم يشعر حينذاك بالغربة والوحشة الكونية التي كان يحكي عنها للتو، وعندما لسبب ما زال مفعول المخدرات الاجتماعية عن عقله أنكشف ظهره ليواجه الواقع المظلم الموحش وحيدا. معركة مرهقة لعقل حيوان ثدي ضعيف وقاصر في

مواجهة كون جبار لا متناهي. معركة غير متكافئة وخاسرة حتما، والأهم من ذلك أنها مؤلمة لأبعد مدى، لذا لهو من حســـن الحظ أن هناك عقاقير في هذا العالم تخدر هذا الألم ولو قليلا، وتجلب بعضـــا من الســـعادة ولو قليلا، حتى وإن كانت ســـعادة زائفة نابعة عن جرعة عالية غير طبيعية من الدوبامين والسيروتينين.

- يا معلم... أين ذهبت؟

أخرجه سؤال معتصم من شلال أفكاره، رد عليه أخيرا

- معك حق يا معتصــــم... خذوا الحكمة من أفواه المساطيل

-18-

عاد عمر من الســـوبرماركت يحمل اكياس ما اشـــتراه من أطعمة. ألقى السلام على صاحبيه فحاول ياسر رد السلام لكنه وجد صـــعوبة في جمع الكلمات وعســـرا في التعبير، فتجاهل قريبه والتفت إلى معتصم وقال له

- سيجارتك هذه لا بأس بها
- لا بأس بها فقط؟! انظر إلى ابن عمك يا عمر... لقد حملته السطلة بعيدا
- لا يا استاذ... لا أنكر أنها أحدثت شيئا ما في عقلي، لكنها لم تمنحني العبور الذي أحتاجه، العبور نحو الجزء الآخر...
- وأين يقع هذا الجزء الآخر إن شاء الله؟!
- هناك في الما وراء... في عالم الغيب... عالم متحرر من كل قوانين الفيزياء
- حتى من قانون الجاذبية؟!
- حتى من قانون الجاذبية!

وانجرف الصديقان المسطولان في نوبة جديدة من الضحك ووقف عمر حاملا أكياسه يقلب نظره بينهما وقد أقلقه عبق البنقو الذي ملأ جو شقته. دخل إلى ركن المطبخ المفتوح على الصالة لا يفصل بينهما سوى نصف حائط، وضع الأكياس على الطاولة وشغل مروحة الشفط لعلها تنقص قليلا من هذه الرائحة المشبوهة قبل أن تصل إلى الجيران .

بدأت التأثيرات الجانبية للقنب الهندي في الظهور فأحس المسطولان بالجوع. قام معتصم متثاقلا ينكش في ما أحضره عمر معه من الغذاء. التقط كيسا كبيرا من شرائح

البطاطس المملحة وقضــى عليه سـريعا مع ياسـر. ثم أخذا كيســا يحوي العديد من قطع الخبز والتهماه بالكامل أيضـــاً مع أي شــــيء توفر أمامهما، مع الجبن والزيتون والخيار والتونة ولم تشـــبع بعد رغبتهما في التهام المزيد. قال لهم عمر متعجبا: "لم يبق لكم ســوى أن تأكلوني أنا". ضـــحك ياســـر كثيرا على عبارة ابن عمه غير الطريفة حتى كاد يتقيأ ما أكله. وهو في غمرة ضــحكه وســطلته انتبه لحقيقة أنه يضحك، وأنه سعيد، وأنه لا يفكر في الموت ولا في أي من أفكاره الســـوداوية. ربما كان معتصـــم على حق، فإن أفضـل ما يفعله الإنسـان في مواجهة الأزمات الوجودية هو الانسطال.

تابع الشــابان المتخدران الأكل. أكلا بقايا صـــحن فول قديم، وبعدها أكلا بطيخة كاملة والعديد من قطع الموز والبرتقال. قال ياسر متخما

- لم أشـــبع بعد، ولكن لم يعد هناك مكان خال في معدتي

رد عليه معتصم وهو مسترخ في كرسيه

- ما رأيك أن نشعل سيجارة ثانية؟

- هل أنت مجنون؟ تكفينا هذه. لن أستطيع العودة إلى البيت إن انسطلت أكثر من هذا

سكت الثلاثة وعم الصمت وتعلقت العيون بالتلفاز تشاهد فيلما قديما بالأبيض والأسود، لا يعرف ياسر متى بدأ ولا من هم هؤلاء وماذا يفعلون داخل التلفاز. حاول أن ينظر ويتابع لكن دماغه المسطولة كانت تركز عميقا في حدث واحد فقط وتغوص في تفاصيله وتحاول أن تستوعبه، وعندما تنجح في ذلك تكون عديد المشاهد التالية قد مضت، وتنقطع سلسلة أفكاره ليعود بعدها ويبدأ محاولة استيعاب جديدة.

بقي معتصم وياسر على مقعديهما ينظران بعيونهما المحمرة إلى التلفاز صامتين، أما عمر فدخل إلى غرفته وأغلق الباب وتركهما في عالمهما المسطول الصامت. لا يعلم ياسر كم من الوقت مر عليه في هذه الجلسة لأن البنقو يؤثر على مركز التوقيت في المخ ويبطئه. أتما مشاهدة الفيلم وبدءا بعدها مشاهدة فيلم جديد ووضعهما على حاله لم يتغير.

أحس ياسر بهزة في كتفه فانتبه ووجد عمر يلفته اليه، تلفت حوله مذعورا يحاول أن يكتشـف أين هو بالضـبط وما هذا المكان وما الذي جاء به إلى هنا...

- لقد نمت كثيرا يا ابن عمي...
- حقا؟ كم الساعة الآن؟
- الخامسة عصرا
- يا إلهي!
- خذ اشرب بعض القهوة كي تصحصح
- لا داعي لذلك فســوف تحرمني النوم ليلا. أخبرني فقط أين الحمام؟
- هناك...

قام ياسـر متثاقلا نحو المكان الذي أشـار له عمر، طرطش الماء على وجهه فاستفاق، ونظر إلى انعكاس صـورته في المرآة المنصـوبة فوق الحوض فراعه احمرار عينيه، لكنه ابتسم في رضـا وخرج من الحمام وهو يقول في نفسـه "لقد كانت سطلة شبه موفقة".

خرج من الحمام عائدا إلى صـالة الشقة عندما لمح معتصم داخل الغرفة عبر بابها المفتوح جالســا على طاولة مكتب،

يقرأ ويذاكر في أرتال من الكتب تتبعثر عليها. استغرب من نشاطه ومن بياض عينيه. وقف في حلق الباب وناداه

- هل كل شيء على ما يرام يا صاحبي؟
- مية مية يا معلم
- أراك في كامل نشاطك وتركيزك
- أنا قديم وخبير في هذا الأمر ولســـت مجرد هاو مثلك

مط ياسر شفتيه استهجانا وابتسم، قال له "فلتوفقك السماء" ثم التفت لعمر قائلا

- شكرا يا ابن عمي على الاستقبال الحافل
- العفو يا ياسر
- والمعذرة إن كنت قد قضيت على كل مخزونكم من الطعام
- لا عليك... بالهناء
- حسنا أنا ذاهب الآن

هب معتصـم من الغرفة مسـرعا وقال "لا تنسـى كيسـك يا ياســـر"، واتجه إلى كيس المخدرات الملقى على الطاولة وتناوله، وقبل أن يعطيه لياســـر فتحه وأخرج منه شـــريط

دواء به عشـــر حبات مدورة حمراء اللون. اتســـعت عينا معتصم انبهارا وسعادة ومد الشريط أمام وجه ياسر وقال

- فراولة يا معلم
- فراولة؟؟
- أجل، إنها أفضل أنواع الترامادول
- حقا؟ هذه معلومة جديدة علي
- دماغها عال جد... تشعرك بالسعادة والنشاط وبأن الحياة حلوة
- حسنا... منكم نستفيد
- لا يبدو بأنك مهتم بذلك
- فعلا لســت مهتما، لم أجربها من قبل ولم اشــتريها إلا من باب الفضــول، لكن بعدما ســرى البنقو في دمائي زهدت فيها وفي باقي الأشـــياء التي معها. يمكنك الاحتفاظ بالشريط وبالكيس كله إذا أردت
- حقا؟ يا إلهي! إنها أجمل هدية في التاريخ!

ضحك الرجلان بينما وقف عمر يراقبهما في قلق. هو رجل تقليدي ومحافظ لذا فإن الحديث عن المخدرات وحضـورها حوله يوتره. أحس ياسر بهذا التوتر فقال لمعتصم

- لكن لا تحتفظ به هنا فهذا لن يعجب عمر

- دع عمر لي ولا تقلق بشأنه
- حســـنا الوداع اذن. اجتهدا في مذاكرتكما وأتمنى لكما كل التوفيق .
- مهلا يا ياســـر... متى موعد الســـيجارة القادمة؟ سأبحث لك عن حشيش فاخر لا يسبب لك السعال

نظر ياســـر إلى معتصـــم في اســـتنكار وحاول أن يخفى امتعاضــه. صــحيح أنه يجرب التحشــيش أحيانا ولكنه ليس حشـاشـا محترفا لينفخ كل يوم سيجارة. صـمت برهة يبحث عن كلام يقوله ليقتل به اندفاع صـــاحبه الذي أخذ يتطلع فيه بحماس. أخيرا فتحت السماء عليه فقال

- لقد استمتعت بالنفخ معك اليوم يا معتصم، لكني أود حقيقة أن تكون سيجارتي القادمة بصحبة فتاة...

ضـــحك معتصـــم عاليا. ظن ياســـر أن هذه الحجة الســـخيفة ستجعله يرعوى عمّا يطلبه منه لكنه فوجئ به يقول

- بسيطة يا معلم... علا موجودة
- علا؟؟
- نعم علا... فتاة رائعة واســـتاذة في هذا المجال. هي أحسن من يتقن لف السيجارة .

نظر إليه ياسر مستعجبا غير مصدق لما يسمعه. كان يستغرب تدخين عمته العجوز للسجائر العادية، والآن يكتشف أن هناك فتيات يدخن السجائر المحشوة. واصل معتصم

- سأرتب معها واتصل بك
- حسن جدا... الوداع يا أعزائي

-19-

نزل ياسر على السلم هابطا من شقة ابن عمه نحو الطابق الأرضي. هو يشعر أنه على ما يرام وأن تأثير المخدر الأخضر ليس مسيطرا على عقله، لكنه إمعانا في الحرص هبط بهدوء وحذر، يسير بخطوط مستقيمة، ويغير اتجاهه بزوايا قائمة، إلى أن وصل إلى سيارته وجلس على مقعدها. ابتسم في سعادة، فقد أتم الجزء الأول من المهمة بنجاح، وبقي الجزء الأصعب، عليه الآن أن يقود هذه السيارة إلى بيته. من حسن الحظ أن المسافة قريبة بين البيتين ولكن نسبة لأن ظرفه الذهني غير عادي فيجب عليه أن يبذل مجهودا مضاعفا حتى يصل إلى مقصده بأمان.

أدار السيارة وبدأ يتحرك ببطء. يعرف ياسر أن للقنب تأثيرا على نسيج الزمكان لم يضمنه اينشتاين في نظريته النسبية، إنه يطوي الزمكان، يقوسه ويحدبه، يباعد الأمكنة ويطيل الأزمنة، ويبطئ السرعات ويعظم من التسارع. كل هذه الأفكار كانت تضطرم في عقل ياسر المسطول حديثا وهو ينظر في عداد السرعة، يسير بسرعة ثلاثين كيلو مترا في الساعة في شوارع حي الملازمين الجانبية، ولا يثق في هذه اللحظة بتقدير فصوص دماغه لسرعته وتسارعه وإنما وضع كل ثقته في شركة (هيونداي) الكورية التي صنعت عداد سرعة سيارته. يعرف أنه كي يصل بأمان عليه أن يسير بسرعة مناسبة، لا تكون سريعة على ردة فعله المسطولة، وفي نفس الوقت لا تكون بطيئة جدا بحيث تثير شكوك البشر الطفيليين المتواجدين في الشارع.

مستعينا بهذا التكتيك وموزعا نظرات عينيه المحمرتين بين عداد السرعة والشارع من أمامه تمكن ياسر أخيرا من الوصول لبيته. استغرقت رحلته أربعة دقائق لكنها كانت سنوات بالنسبة إليه. خرج من السيارة سعيدا بفرحة انجازه ولما هم بدخول البيت للاستلقاء على سريره في متعة أوقفه صوت من وراءه...

- أووه ياسر حبيبنا... حمدا لله على سلامتك

التفت ياسر ببطء وقلق، فدماغه ليست في حالة مستعدة لأية حوارات بلا طائل، لكن قلقه انقشـــع عندما رأي الرجل الاسمر الممتلئ الذي تساقط شعره عن مقدمة رأسه مبرزا جبهته اللامعة...

- أووه مؤيد... يا للصدفة الجميلة

عانق ياســـر الرجل الذي يقترب عمر صـــداقته به من عمرهما، وعانقه مؤيد بحماس وقوة واخلاص كعادته، ولم ينقص من حماســه اســتجابة ياســر الفاترة، فقد كان متعودا على ذلك، حتى وإن لم يعلم بأن يـاســـر في هذه اللحظـة تحديدا أكثر فتورا لأسباب خضراء أخرى.

- متى وصلت يا صديقي؟
- بالأمس يا مؤيد
- يا سلام... نورت لنا الحي
- هو نوركم، ونور الكهربـاء أحيـانـا عنـدمـا تكون موجودة

ضــحك مؤيد عاليا كعادته، فهو رجل بشــوش يحب المزاح والضحك مثلما كان ياسر أيضاً قبل أن يغيره الزمن.

- تفضل إلى الدار... دعنا نعرف اخبارك
- دعها مرة اخرى يا ياســر. هناك ضــيوف قادمون في طريقهم إلى بيتنا وعليّ أن اكون هناك
- حسنا أخبرني فقط... هل وجدت أم ليس بعد؟
- وجدت ماذا؟
- ما ظللت تبحث عنه في الخمس عشــرة ســنة الأخيرة، أعني وأحدة مناسبة...
- للزواج؟
- نعم
- لقد توقفت عن الســعي في هذا الموضــوع يا صديقي، وتركت أمري لله

ابتسم مؤيد وهو يرد على ياسر، لكنها كانت ابتسامة تكشف عن المرارة واليأس. لم يستغرب ياسر من ردة فعل صاحبه المنحوس في هذا الامر، فيأســه طبيعي بالنظر إلى علاقاته الجادة العشــرة التي فشـلت كلها، منهم ثلاثة على الأقل بعد إقامة الخطوبة. قال ياسر مواسيا

- صـــدقني يا مؤيد... لقد قدم لك الزمن أجمل هدية بإفشال مخططاتك الزواجية
- الزمن؟ أتعرف ما الذي قدمه لي حقا؟ إنها هذه الصلعة الزاحفة فوق رأسي

أشـار مؤيد بإصـبعه إلى مقدمة رأسـه الجرداء من الشـعر وهو يقهقه. ابتسـم ياسـر مجاملا وقد جر الكلام عن الزمن عقله نصـف المسـطول للتفكر في أشـياء بعيدة تماما عن الزواج وعن الصلعة، فقطع قهقهة صاحبه قائلا له

- هل تعلم يا مؤيد أن الزمن ربما يكون مجرد وهم؟

قطب مؤيد ملامحه متفاجئا، عجز عن فهم المراد بهذه الانعراجة في الحديث، لا يعرف إن كان سـؤال ياسـر المباغت جادا أم هازلا، وهو في ذلك معذور لأنه لا يعلم ما جرى قبل ساعات في شقة عمر. واصل ياسر كلامه لما لم يرد عليه صديقه

- اعتقد نيوتن أن الزمن مطلق، وأن ما يحدث الآن هو فعلا يحدث الآن بالنسـبة لكل الكون، وظل هذا الاعتقاد قائما حتى جاء اينشتاين وغيره
- بنظريته النسبية؟

- أجل، نظريتيه بالأصح، النسبية الخاصة والعامة، ووضح لنا أن الزمن نسبي وليس مطلقا، يتسارع ويتباطأ، يتأثر بالسرعة والجاذبية، وهو لا ينفصل عن المكان مشكلا معه أبعاد الكون الاربعة
- حسنا وأين الوهم هنا؟
- الوهم هو تقسيمنا لهذا البعد الكوني الآخر إلى ماض وحاضر ومستقبل. وصفه اينشتاين بأنه "وهم مستمر بعناد" وهو وهم تسقط فيه أدمغتنا المتطورة في هذا الكون الرباعي الأبعاد، تقسيمها للزمن ضروري لإضفاء المنطق على حركة الكون من حولها. لكن بالنسبة للكون فإن كل شيء يحدث الآن، لا ماض هناك ولا مستقبل، فالزمن عند فوتون الضوء ثابت، الانفجار العظيم وبناء الاهرام ونمو شعرك وتساقطه كله يحدث الآن بالنسبة له.

ضحك مؤيد قليلا ثم علق

- ما هذا الكلام الذي تقوله يا ياسر؟ هل أنت مسطول؟

اضطرب ياسر لدى سماعه كلمة صاحبه وفكر في نفسه "هل ذلك يا ترى واضح عليّ جدا؟ أتراني قد اضطربت في الكلام وفضحت سطلة رأسي؟ هل من الأفضل أن اعترف له ليتركني أمضي إلى فراشي بسلام؟ هل تراه سيخيب ظنه بي وسيهز رأسه إحباطا من صديقه الحشاش؟ "

- أو لعل اينشتاين هو المسطول...

أضاف مؤيد ضاحكا عبارته الأخيرة لينقذ ياسر من اعترافه الوشيك. رد عليه متمتما في راحة

- الفيزياء غريبة لأنها تصف كونا غريبا فعلا...
- على كل حال يا صديقي دعنا من الفيزياء ومن الزمن ومن اينشتاين فعليّ أن امضي الآن ولكن لنا لقاء قريب. مع السلامة يا ياسر
- مع السلامة يا مؤيد

انصرف مؤيد ودخل ياسر إلى داره متجها مباشرة إلى فراشه. خلع ملابسه واستلقى عليه وهو يحلق بسعادة في مروحة السقف التي تدور فوقه ببركة الكهرباء. أغمض

عينيه وسلم رأسه الخامل ببقايا عبق البنقو إلى سلطان النوم.

-20-

رن هاتف ياسر عاليا فأيقظه من سباته الطويل. فتح عينيه فملأهما ضوء الصباح الخافت المتسرب من النافذة. مد يديه تحت مخدته والتقط هاتفه ونظر بعينين نصف مفتوحتين إلى اسم المتصل. امتعض قليلا لكنه قرر أن يرد لينهي نبيح هذا الرنين المزعج

- الو...
- الو... صباح الخير يا ياسر
- صباح الخير يا ياسين
- أتمنى ألا اكون قد ايقظتك من نومك
- لا عليك
- لقد حدثت المدير في شأنك وهو يرغب بشدة أن يقابلك اليوم
- اليوم؟!
- نعم، هل يمكنك المرور علي في البنك عند الساعة التاسعة؟

- ألا يمكن أن نؤجلها ليوم آخر؟
- لماذا؟ هل لديك ارتباطات اخرى؟
- لا ولكني أرغب ببعض الوقت في التفكير في هذه الخطوة
- هذه يا عزيزي مقابلة غير رسمية لست ملزما فيها بشـــيء. تعال والتق المدير وبعد ذلك خذ كل ما تحتاجه من وقت للتفكير
- حسنا... وأين يقع البنك؟
- في الســوق العربي على شـــارع القصـــر، لافتته واضحة جدا... البنك السوداني الألماني
- أوكي
- أراك بعد ساعة ونصف. مع السلامة

أغلق ياســر المحادثة ثم طالع الســاعة في هاتفه، إنها فعلا الســابعة والنصـف، والزمن المتبقي يكفي بالكاد للاسـتعداد والوقوف في زحمـة الكوبري للعبور إلى الخرطوم. كـان ياســـر يود أن يواصـــل نومه ويطارد الأحلام التي ملأت خلايا دماغه المخدرة. صحيح أنه نام أكثر من ثلاث عشرة ساعة متواصلة لكنه كان يرغب في الاستزادة لولا مضايقة ياسـين ومديره الغبي له. لام نفسـه لأنه لم يكن أكثر حسـما وإصـــرارا في الرفض بســـبب عقله الناعس غير مكتمل الاستيقاظ. استسلم أخيرا لقدره وبدأ ينهض قائما عن فراشه

متجها للحمام ولسانه يلهج بالشتائم واللعنات على ياسين ومديره وبنكه.

بعد أن أخذ دشا وارتدى ثيابه أنطلق ياسر بعربته نحو الخرطوم. سلك طريقه في شوارع الحارة إلى أن وصل إلى شارع النيل واتجه جنوبا بمحاذاة النهر نحو الجسر الحديدي القديم الرابط بين أمدرمان والخرطوم. مر بمباني الاذاعة والتلفزيون أولا وبعدها بسوق السمك الكبير في الموردة ووصل إلى مبنى البرلمان بقرب الجسر قبل أن يعلق في زحمة السيارات. أخذت عربته تزحف ببطء وسط عشرات العربات الزاحفة مثلها نحو الجسر. شعر بالضجر والسأم وأخذ يتلفت في المركبات من حوله وفي الناس الراكبين بها والعالقين مثله في هذا الجسر بطيء السير. سائل ياسر نفسه لماذا الدنيا مليئة بكل هؤلاء البشر اللذين لا داعي لوجودهم؟ ولماذا يريدون عبور الجسر إلى الخرطوم مثله؟ تبا لهم فليبقوا مكانهم في أمدرمان، فبالتأكيد لا شيء مهم يترقبونه في الخرطوم، وتبا لأجدادهم الذين استوطنوا هذه الأرض التي يقسمها النيل ليتعسوا أحفادهم بشقاء الزحف على هذا الجسر البائس، وتبا للإنجليز الذين نقلوا العاصمة من أمدرمان إلى الخرطوم ومعها نقلوا كل المؤسسات والخدمات ليعذبوا الأمدرمانيين ويشقوهم كل صباح بهذا العبور اليومي الإلزامي إلى الخرطوم، وتبا

لياســـين الذي أفاقه من فردوس النوم ليقذف به في هذا الجحيم التعس المزدحم.

ظلت الأفكار الغاضبة الحانقة السلبية تعصف بذهن ياسر طوال نصف ساعة حتى عبر أخيرا الجسر وبدأت عجلات ســـيارته تدور فوق أرض الخرطوم. هدأ غضـــبه قليلا مع انفراجة حركة السـير فواصـل طريقه حتى وصـل السـوق العربي وهناك عد اختناق العربات مجددا، لكنه واصــــل الزحف مخترقا السوق ببطء حتى انتهى إلى شارع القصر ولمح ببصره لافتة البنك الذي يعمل فيه ياسين. أخذ دورتين حول المكان حتى وجد أخيرا موقفا لسيارته فأوقفها وترجل متجها إلى بوابة البنك .

-21-

دخل ياسر إلى صـالة البنك عبر البوابة الأتوماتيكية فصـدم وجهه نســيم الهواء البارد المتولد من مكيفات البنك الحديثة مما منحه شعورا بالراحة والسعادة، وبرد قليلا من حرارته الخـارجية التي أوقدتها فيه شـمس العاصـمة الملتهبة، وبرد أيضـاً من حرارته الداخلية التي ولدها سـخطه وتبرمه على كل ما لاقاه في طريقه، ومن قبل ذلك غضـــبه المكتوم من

ابن عمته ياسين الذي أحضره إلى هذا المكان الذي لا يريده، ليقابل مديرا لا يهمه، بخصوص عمل لا يرغب فيه، في بنك لا يستهويه.

وقف ياسر في صالة البنك بقرب أحد المكيفات الكبيرة وترك نسائم هوائه البارد ترتطم بظهره المُعْرَقّ لترسل في أوصاله تيارا لذيذا من البرودة. أخرج هاتفه واتصل بياسين وأخبره أنه قد وصل فطلب منه هذا الاخير أن يصعد إليه في الطابق الأول. اتجه ياسر إلى السلم وارتقى الدرج حتى وصل هناك وأخذ يقلب بصره في المكاتب المتراصة أمامه لا يفصلها سوى جدران اصطناعية جزئية لا يصل ارتفاعها إلى السقف. مسح المكان بناظريه بحثا عن ياسين فلم تقع عيناه عليه لكنه رأى براد مياه منزويا في الركن فشعر فجأة بعطش في حلقه. اتجه للبراد والتقط كوبا من الأكواب البلاستيكية المصفوفة بقربه، ولما هم بملئه اصطدم كوبه بكوب آخر تمسكه يد أنثوية سمراء كانت على وشك أن تملئه. عاد ياسر بكوبه إلى الوراء وقال بصورة آلية "أنا آسف" ثم رفع بصره ببطء ليرى وجه صاحبة اليد الممسكة بالكوب الآخر، ولما رآها كتم شهقته وصرخ في نفسه "يا ألطاف السماء".

- لا مشكلة... تفضل أنت

قالتها الفتاة ذات العينين العسليتين الواسعتين واللتين تظللهما رموش طويلة متوازية ومتناسقة، ويرتسم فوقهما حاجبين سوداويين رشيقين وأنيقين. ابتلع ياسر ريقه مداريا الجراح التي سببتها له سهام عينيها وقال

- لا العفو... تفضلي أنت أولا

أخذت الفتاة تملأ كوبها من براد المياه ووقف ياسر يتأملها، عيناها الفاتنتين هما أكثر ما يميزها، فهي سمراء متوسطة الطول تميل للقصر، وزنها أيضاً متوسط وإن كانت أدنى للنحافة، لكن خطوط وتعرجات أنوثتها في صدرها ومؤخرتها تتموج في تحدي. أنهت الفتاة ملئ كوبها ثم التفتت إلى ياسر وقالت مبتسمة "شكرا" وانصرفت. لم تنتظر منه ردا على شكرها وحسنا قد فعلت، فتلك الابتسامة التي منحتها لياسر أرسلته بعيدا إلى عوالم وردية حالمة. انفراجة شفتيها المصطبغتين وارتصاص أسنانها من خلفها في تلك الابتسامة الفاتنة شكلت مع عينيها العسليتين الواسعتين مزيجا فردوسيا سحريا، من يتعرض له يشتم رائحة الجنة. لم يعد ياسر يشعر بالعطش لكنه ملأ كوبه من البراد ليشرب، لعله كان يأمل أن تكون ذرة ما من تلك الفتاة قد علقت في البراد فيتحصل هو عليها .

- مرحبا بك في البنك السوداني الألماني يا ابن خالي

وضع ياسين القادم من الخلف يده على كتف ياسر المنهمك في شــرب الماء. ابتلع ياســر الماء ســريعا حتى يرد على تحية قريبه الذي لم يمهله وأمسكه من ذراعه وسار به عبر ردهات البنك وقال

- هيا بنا فالمدير في انتظارنا

-22-

- فرصة سعيدة يا استاذ ياسر
- أنا الأسعد يا استاذ محمود

صافح ياسر الرجل الضخم الاصلع الذي يرتدي بذة رمادية داكنة أنيقة، ثم جلس بصحبة ياسين على الكرسيين الوثيرين قبالة المكتب الفخم الذي جلس خلفه محمود. ابتدر الأخير الحديث قائلا

- أخبرني ياسين بأنك ترغب في العمل معنا

تفاجئ ياسـر بهذه البداية العارية تماما عن الصـحة. التفت إلى قريبه ومنحه نظرة عتاب سريعة عاد بعدها ببصره إلى الرجل وقال

- لقد عدت من أمريكا حديثا وأنوي الاسـتقرار في السـودان، ولذا بدأت في اسـتكشـاف الفرص التي يمكن أن تكون مناسـبة لي، ومن ضـمنها بنككم بحسب توصية ياسين
- جميل... ما هو آخر موقع شغلته قبل عودتك؟
- كنت مدير قسـم التمويل في أحد فروع البنك الذي كنت أعمل به هناك
- ما شـاء الله... أخبرني ياسـين أيضـا أنك حصـلت على شهادة الماجستير من هولندا
- أجل في الاسـتراتيجيات الاقتصـادية، وإضـافة إلى ذلك حصـلت على دبلوم عالي من جامعة ميتشـجان الأمريكية في التحليل الاقتصادي
- ما شاء الله... كم هي فخيمة شهاداتك
- شكرا سيادة المدير... الحقيقة أني استفدت كثيرا من العلوم التي تحصـلتها خلال دراسـتي في شـتى المواقع التي شـغلتها في أمريكـا، لأن العقليـة الإدارية هناك علمية تماما وبالتالي فإن القرارات

والخطط المســـتقبلية تبنى على الدراســـات وليس هناك الكثير من المجال للحدس أو العشـــوائية أو التفضـــيلات الشـــخصـــية كما هو حال العديد من مؤسساتنا المالية

وضع ياسين يده على فخذ ابن حاله وكأنه يطلب منه الهدوء وتخفيف حدة نبرة حديثه. اســتنكر ياســر ذلك، فهو لا يرى في حديثه شيئا قاسيا أو مجرّحا، لكنه سكت إرضاءا لقريبه. تكلم المدير قائلا

- الحقيقة أننا نود في هذا البنك أن نستفيد من خبرتك. لدينا خطة اســتراتيجية لزيادة التغطية التمويلية في القطاعات الصـــناعية الإنتاجية، ولعلك يا اســـتاذ ياسر ستكون الشخص المناسب لتنفيذ هذه المهمة

سكت ياسر ولم يعلق، يحس أن الخناق بدأ يضيق عليه وأنه في طريقه ليعلق في مصـــيدة حياتية جديدة، ولكن انبثقت فجأة في رأســه صــورة تلك العيون العسـلية الواسـعة التي رآها قبل قليل عند براد المياه، وأخذ يفكر أنه إذا عمل في هذا البنك فســيكون بإمكانه على الأقل رؤية تلك الحدقات العسلية يوميا. لما طال صمت ياسر تدخل ياسين متحدثا

- اعتقد أنها مهمة تناسبك تماما يا ياسر، فأنت تملك المؤهلات والخبرة لها، أليس كذلك يا سيادة المدير؟
- أجل يا ياسين... اعتقد أن المدير العام والزملاء بالفرع الرئيسي سيكونون سعداء إذا ما وافق الاستاذ ياسر على التصدي لهذه المهمة
- ماذا؟ الفرع الرئيسي؟ أتعني أن موقع عملي لو قدر لي العمل معكم لن يكون هنا في هذا الفرع يا استاذ محمود؟

تساءل ياسر منزعجا وهو يحس أن برعم الحماس الصغير الذي نبت في دواخله تجاه هذه الوظيفة في طريقه للموت المبكر إذا كانوا ينوون ابعاده عن الأحداق العسلية. رد المدير

- أجل يا استاذ ياسر، فهي وظيفة إشرافيه تغطي أفرع البنك المختلفة وبالتالي لا بد أن تكون قريبا من الإدارة العامة في الفرع الرئيسي حيث يتم اتخاذ القرارات العليا
- الحقيقة لا أعرف ماذا أقول، هذا كله يحدث بسرعة شديدة علي وأحتاج لبعض الوقت للتفكير قبل أن أرد عليكم

- أتفهم ذلك، ولكن يجب علينا أولا أن نرتب لك لقاءا مع مساعد المدير العام ليقابلك بطريقة رسمية، ومنه ستفهم أكثر عن طبيعة الوظيفة، ومنه ستسمع أيضاً عن المقابل المالي الذي سيعرضه البنك عليك

سكت ياسر ولم يجب، يفكر كم يا ترى سيعطونه؟ في أمريكا كان مرتبه عشرة آلاف دولار شهريا عدا الحوافز، وهو ترك كل ذلك وراءه وهرب إلى هنا بحثا عن نفسه. لا تهمه الأموال ولا الألقاب ولا المناصب، هو يريد فقط أن يكون سعيدا ومرتاحا، ولا يبدو أن جسده المنهك ولا روحه الميتة سيقدران على تحمل أعباء هذه الوظيفة. أراد أن يفتح فمه لينطق بالاعتذار فسبقه ياسين قائلا

- اعتقد أنها خطة ممتازة يا أستاذ محمود... نرتب له موعدا قريبا مع مساعد المدير العام وأنا متأكد أنه سيتحمس أكثر لأن يكون جزءا فاعلا من عائلة بنكنا بعد أن يسمع منه، أليس كذلك يا ياسر؟
- إن شاء الله

قالها ياسر ببرود وبلا روح ولكن بابتسامة مجاملة تريد لهذه الجلسة أن تنتهي سريعا. قال المدير منهيا الحوار

- اذن اتفقنا. سنعلمك يا استاذ ياسر بالموعد بمجرد أن نرتبه. سعدت بلقائك ومعرفتك
- أنا كذلك يا استاذ محمود

نهض ياسر عن كرسيه الوثير وصافح الرجل مودعا ثم أعطاه ظهره منصرفا وهو يتنهد في راحة لانتهاء جلسة التعذيب هذه. وعندما خرجا من باب مكتب المدير أحاط ياسين كتف ياسر بذراعه وقال له

- هيا بنا إلى مكتبي نتناول بعض القهوة

-23-

جلس ياسين خلف طاولة مكتبه الأقل فخامة بكثير من طاولة مكتب مدير الفرع، وكذا جلس ياسر على كرسي قبالته أقل وثارة أيضاً من ذلك الكرسي الذي كان يجلس عليه قبل قليل. المساحة التي يتواجدان فيها الآن سماها ياسين مكتبا، لكنها في الحقيقة لا تشكل مكتبا منفصلا كمكتب المدير، وإنما هي مفصولة بجدران اصطناعية قصيرة، وتشكل هذه الجدران ثلاثة أضلاع من مربع لم

يكتمل، بينما الضلع الرابع المفتوح يشكل المدخل. صرخ ياسين فجأة

- وائل... يا وائل...

بعد عدة ثوان ظهر شاب نحيل حليق الرأس طويل اللحية يحمل في يديه صينية خاوية وقال

- نعم يا استاذ ياسين؟
- قهوة وماء للضيف بسرعة
- حاضر

قطب ياسر جبينه استغرابا لما رآه، يبدو أنه قد نسي كيف تسير الامور في السودان. في أمريكا لا يوجد ساعي أو موظف في البنك تنحصر مهمته في جلب القهوة والماء للموظفين وضيوفهم، بل إن هناك ماكينة قهوة كبيرة في مطبخ البنك ومن أراد شربها فعليه الذهاب بنفسه لهناك وإحضارها، كما أن طريقة نداء ياسين الصراخية للساعي بدت له همجية وغير حضارية بتاتا. فكر ياسر إن كان هذا نوع من الاستغلال للبشر واستعبادهم، لكنه صرف الفكرة عن رأسه سريعا، فكل العاملين في هذا البنك بما فيهم ياسين نفسه ومديره أيضاً هم مستغلون ومستعبدون من

أصحاب هذا البنك. صحيح أنهم يحصلون على بعض المال مقابل عملهم، لكن هذا العمل يجلب لأصحاب البنك أضعاف الفتات الذي يعطونه لموظفيهم نهاية كل شهر. لعله كان على حق من قال أن الوظيفة والعمل بأجرة هي عبودية العصر الحديث.

عاد وائل حاملا كوبي القهوة والماء ووضعهم على الطاولة. شكره ياسر بابتسامة ودودة وكأنه يقول له "أنا أقبل منك قهوتك لأنك انسان حر كريم مضياف وليس لأنك موظف مستعبد مجبر على إحضارها". قال ياسين منهيا حوار ياسر الداخلي حول الحرية والعبودية

- ما رأيك في لقاء اليوم مع المدير؟
- كان جيدا
- يبدو متحمسا ويريدك أن تعمل معنا
- أجل، لاحظت ذلك
- لكن القرار ليس عنده، القرار عند عباس مساعد المدير العام
- ربنا يسهل
- أنا متأكد أن عباس أيضاً سيعجب بك، ولكن حذار أن تتكلم ثانية عن اللا علمية واللا منهجية في اتخاذ القرارات عندنا

امتعض ياسر لتعليق ابن عمته، ولكن لا طاقة لديه للجدال معه فاكتفى بالصمت، ورفع كوب القهوة إلى ثغره يرتشف منه. في هذه اللحظة سمع صوتا أنثويا يقول عند المدخل

- استاذ ياسين... نحتاج توقيعك على هذا المستند

رفع ياسر بصره ببطء نحو مصدر الصوت وشفتاه لا تزالان ملتصقتان بالكوب ترتشفان القهوة، حتى التقت عيناه بتلك العيون العسلية الواسعة التي تقف صاحبتها عند المدخل المفترض لمكتب ياسين، ترتدي قميصا أبيض ناصعا وتنورة سوداء فاحمة وتلف رأسها بطرحة قاتمة اللون تجعل وجهها الاسمر يضيء وعينيها العسليتين تتوهجان

- تفضلي يا ليلى...

دعا ياسين الفتاة للدخول بينما رن الاسم في رأس ياسر "ليلى... هذا اذن هو اسم صاحبة العيون العسلية". تابع ياسين

- أقدم لك ياسر ابن خالي

أزاح ياسـر كوب القهوة الذي لا يزال ملتصـقا بشـفتيه عنه سريعا ووضـعه على الطاولة وهب قائما ومد يده نحو ليلى مصـافحا. رسـم على وجهه ابتسـامة أكثر ودا من تلك التي أعطاها لوائل السـاعي قبل قليل، وقال وهو يشـدد على مخارج الحروف

- فرصة سعيدة جدا يا ليلى
- أنا أسعد يا ياسر

قالت الفتاة مبتسـمة مادة يدها لياسـر، وعندما تصـافحت الكفان أحس ياسر بشعور غريب، كأن ريحا سحرية تحمله إلى جنة بعيدة. أنهى ياسر المصافحة سريعا حتى لا تنفضح أحاسيسه وبحركة لا إرادية طالع كف الفتاة وهو يسحب يده عنها يتفحص أصـابعها ليرى إن كان ثمة من خاتم بها يدل على زواج أو ارتباط، وتنهد في أعماقه عندما رأى اصـابعها الجرداء من أية خواتم. لا يعرف لماذا فعل ذلك ولماذا ارتاحت نفسـه عندما لم يجد ما كان يخشـاه، فهو بالتأكيد لا يرغب في الزواج ولا الارتباط مجددا حتى من ليلى ذات العيون العسـلية، لكنها ربما تكون مجرد ردة فعل لا إرادية لغريزة أنانية قديمة لا تزال بقايا منها مشـتتة في أعماقه.

قال ياسين وهو يشير بيده نحو ابن خاله

- ياســـر يا ليلى ذو خبرة طويلة في العمل في قطاع البنوك في أمريكا، وحاصل على درجة الماجستير في مجال الاســتراتيجيات الاقتصــادية. التقى اليوم بالســيد المدير الذي يريد اســتقطابه للعمل معنا في البنك للاستفادة من خبراته

ردت ليلى بصوت يكسوه الانبهار وبابتسامة زادت وجهها ألقا وهي تقلب عينيها العسليتين بين القريبين

- حقا؟ ما شاء الله

نظر ياســر إلى ياســين لائما ومعاتبا على إســرافه في هذه المعلومات التقديمية عنه أمام الفتاة، خاصــة أنه يرى أن كل ذلك لا قيمة له، فالبنك والاقتصاد والدراسات العليا وأمريكا نفسـها لم يعد شـيء من ذاك يعني له شيئا، لقد ترك كل ذلك وراءه وهرب منه ولا يحب أن يتذكره. كان يفضـــل لو اكتفى ياســـين بتقديمه على أنه ابن خاله فقط. تمتم ياســـر موجها حديثه إلى ليلى في ود

- ياسين يبالغ قليلا

- لا أنا لا ابالغ. اترك عنك هذا التواضع الزائف

رد عليه ياسين مباشرة بصوت غليظ متجرد من الإحساس. رفعت ليلى كفها الأيمن تداري ابتســـامتها وظل ذراعها الأيسر يحتضن ملفا ورقيا ويضغطه على صدرها وبطنها. أخذ ياســر يتأمل فيها وفي وقفتها على تلك الهيئة، يحس أنه رأى هذا المنظر من قبل، لكن لا يتذكر متى وأين. داهمته ليلى بسؤال مباغت

- هل التقينا من قبل يا استاذ ياسر؟

ســكت ياســر قليلا وقد أخذه التعجب، فهذا بالضــبط ما كان يفكر فيه للتو دون أن يجد اجابة شـــافية له. بعد ثوان نطق مبتسما

- أجل التقينا عند براد المياه قبل نصف ساعة

ضـــحكت ليلى برقة معيدة كف يدها إلى وجهها تســـتر بها ثغرها الباســـم. لحن ضـــحكتها الفرائحي تســـرب إلى دماء ياسر فتراقصت أعضاء جسمه الداخلية طربا.

- لا يا استاذ ياسر... أعنى قبل ذلك

- لا أعرف، الذي أعرفه أن لقب اســتاذ هذا لا داعي له، نادني بياسر فقط
- ماجسـتير في الاسـتراتيجيات الاقتصــادية ولا تريد لقب استاذ
- نعم أفضــل اسـمي الذي أطلقه علي والداي رحمها الله مجردا يا استاذة ليلى
- حسنا فرصة سعيدة يا ياسر

قالتها ليلى بابتســامة ودودة واتجهت إلى مكتب ياسـين مادة له الملف. تســاقط جسـد ياسـر للأسـفل ليعود ويجلس على كرسيه وصدى حروف اسمه الذي نطقته ليلى مجردا يملأ فضاءات رأسه ويشعره بالسكر. لقد مضت دهور متطاولة منذ آخر مرة تفاعلت فيها دواخله بهذه الطريقة المغناطيسية تجاه أنثى ما. نســي كم هو جميل شــعور الهيمان هذا حتى وإن كان شعورا عشوائيا طارئا تجاه فتاة مجهولة لا يعرف عنها سوى اسمها وسطوة سحر عينيها العسليتين.

أخذ ياسين يقلب في الملف الذي جلبته ليلى ويطالع الأوراق بينما تقف ليلى بجانبه، ثم رفع بصره نحو ياسر وقال

- ليلى هي موظفة متدربة لدينا منذ حوالي الشـــهر، هي ذكية ومجتهدة، لقد أوصـــيت المدير أن يتم

تعيينها ولكن للأسف لا توجد وظائف شاغرة في موقعها حاليا

نظر ياسر إلى ليلى ونظرت هي إليه فجهر إشعاع عيونها العسلية بصره. أحنى رأسه للأرض وقال بأسى

- للأسف

واصل ياسين حديثه

- لكني لست قلقا عليها فهي لا شك ستعثر على مكان آخر سريعا، ثم إن صديقتها ريم الموظفة معنا والتي رتبت لها هذه الفرصة التدريبية ما زالت تحاول السعي لتوظيفها في فرع بحري. بالمناسبة متى زواجها يا ليلى؟
- الليلة إن شاء الله يا استاذ ياسين
- أرسلي لها تحياتي فلن أتمكن من حضور حفل الزفاف
- إن شاء الله
- وأنت يا ليلى متى زفافك؟

تجمد ياسر في مكانه وأحس أن الأرض تميد به عندما سمع سؤال ياسين الأخير الموجه للفتاة. استجمع شتاته وجمع كل حواسه ووضعها في طبلة اذنيه استعدادا لاستقبال ردها وهو في أشد التعجب من نفسه لتعلقها بمعرفة الإجابة. لقد عرف من سؤال قريبه أن ليلى غير متزوجة، ويريد من أقصى بواطنه ألا يكون لها خطط قريبة للزواج. بعد لحظات عصيبة متطاولة مضت على ياسر المتصلب في مكانه ردت ليلى أخيرا ضاحكة

- عندما يأتي صاحب النصيب يا استاذ ياسين

تنفس ياسر الصعداء من أعماقه عندما سمع إجابتها، كان يحس أنه على شفا جر هار يوشك أن ينهار به نحو قاع العدم حتى أنقذته إجابة ليلى النافية في اللحظة الاخيرة. ابتسم مرتاحا لثانية ثم سرعان ما قطب وجهه وسائل نفسه "ما الذي يحدث لي؟ لماذا أنا مهتم هكذا بهذه الفتاة؟ وما الذي يعنيني إن كانت مخطوبة أو متزوجة أو حتى أرملة؟ ما هذه المشاعر العبثية التي تجتاحني؟ تبا لك يا ياسر وتبا لها... اتركها وشأنها لتتزوج أو تتطلق أو تتبخر كما تشاء، فأنت على الأغلب لن تراها ثانية بعد اليوم".

- وأنت يا ياسر؟

انتبه لدى سـماع اسـمه المنطوق بصـوتها الناعم الجميل، نظر إلى ليلى المتطلعة اليه بإشراق وردّ متلعثما

- وأنا ماذا؟
- متى زفافك؟
- زفافي كان قبل أكثر من عشرة سنوات

علت الدهشة وجه ليلى ممتزجة بلمسة إحباط أخفتها سريعا مردفة بالقول

- أنت متزوج اذن؟
- كنت... لكني الآن منفصل

وضـع ياسـين القلم الذي كان يوقع به الأوراق بعنف على الطاولة محدثا دويا محدودا ورفع رأسـه للأعلى متجها بنظراته العصبية المندهشة نحو عيني ياسر وقال في نبرة حادة

- ماذا تقول؟ هل هذا صحيح؟
- نعم للأسف
- هل تعلم أمي بالأمر؟

- كلا، لا أحد يعلم ســـواكما الآن، وأرجو منك يا ياسين ألا تخبر عمتي

عم السكون المكان صابغا إياه بلون قاتم. اضطربت ليلى مما جرى أمامها فأخذت تجمع الأوراق المبعثرة على مكتب ياسين بسرعة وحملتها مع الملف لتنصرف. شكرت ياسين على امضائه ثم مشت حتى وقفت أمام ياسر الجالس، قالت بنصف ابتسامة وعيناها العسليتان تتلألآن

- فرصة سعيدة يا ياسر... مرة اخرى

ابتســم ياســر بخدر وهو يغوص في أمواج عســل عيونها وقال

- وفرصة سعيدة جدا يا ليلى... مرة اخرى

انصـــرفت ليلى خارجة من المكتب المربع ذي الأضـــلاع الثلاثة، وبقي ياسر يتأمل تقاطيع ظهرها وحركات أردافها المتناســـقة وهي تمشـــي مبتعدة عنهم، لم يكن دافعه لذلك جنســـيا وإنما كان صـــوفيا تأمليا بحتا، فمع خطواتها وحركاتها تصدح في أذنيه موسيقى كونية راقية تغني معها

كل الموجودات وتنطرب لها كل ذرات جسده. أخرجه ياسين من قلب تأملاته بسؤاله

- احك لي يا ياسر... ماذا جرى لك مع سارة ؟
- أرجوك يا ياسين أن تعفيني من ذلك، فلا أود الخوض في هذا الموضوع
- كما تريد يا ابن خالي

قام ياسر عن كرسيه وما زال طيف ليلى الماشية يجتاح مخيلته وموسيقاها الكونية تملأ مسمعه. أغمض عينيه قليلا ليغرق في اللحظة، ولما فتحهما قال لقريبه

- شكرا يا ياسين على القهوة وعلى اللقاء والاستضافة. عليّ أن أنصرف الآن وأتركك لتعود إلى عملك. إلى اللقاء يا ابن عمتي

-24-

خرج ياسر من البنك متجها نحو سيارته المركونة خلفه. افتقد النسائم الباردة التي تركها خلفه في صالة البنك وهو يعبر بوابته لتحل مكانها جزيئات الهواء الساخنة التي تملأ

سماء السوق العربي. أخذ يسير ويفكر في عبثية هذا المشوار الذي قضاه، فقد أضاع ساعة كاملة من عمره ليصل إلى هذا البنك التعيس، وساعة أخرى تبعثرت داخل البنك بصحبة ياسين البائس ومديره التعيس. الحسنة الوحيدة التي جناها من هذه الزيارة غير الميمونة كانت هي ليلى، فعيناها العسليتان مدتا روحه بنبض من طاقة غريبة منحته شعورا فريدا دغدغ خلايا الإحساس النافقة في دواخله. ضياع ساعتين من حياته العابثة عديمة القيمة لهو ثمن بخس مقابل شعور عجيب كهذا. لعله في المستقبل سيطل على ياسين السخيف بين الفينة والأخرى في هذا البنك لينهل من نبع عسل تلك العيون، وليعيش مرة أخرى هذا الإحساس الغامض الذي يستثير نوايا ذرات روحه الخاملة.

وصل ياسر إلى سيارته وعندما هم بركوبها رأى وجها مألوفا يسير باتجاهه، وقف يطالع فيه حتى التقت عيناهما وصبغت دهشة اللقاء غير المنتظر ملامحهما.

- ياسر؟! ماذا تفعل هنا؟
- بل أنت ماذا تفعل هنا؟

ضـــحك مؤيد عاليا وعانق صـــــاحبه، بادله ياســـر العناق ببرود، لا يفهم ما الداعي للإسراف في السلام بهذه الطريقة ولم يمض على عناقهما بالأمس ســوى ســاعات. اســتســلم مضـطرا في النهاية لأحضـان صـاحبه ولضـحكاته وفرحته المتضخمة التي أبداها تجاه هذه الصدفة التي جمعتهما بغير ميعاد، بيد أن تفكيره لا ينزال منشـــغلا بتحليل هذا الإفراط غير المبرر في الاتصـــالات الجســـدية التي تميز ســـلام الســودانيين. في الغرب يكتفي الناس عادة بالمصــافحة عند أول لقاء يتعرفون فيه على بعضـــهم، وربما يســـتحدثون مصافحة جديدة إن تطاولت مدة عدم الالتقاء، لكنهم قطعا لا يتعانقون ولا يتحاضــنون ولا يقبلون بعضــهم البعض بمثل هذا التبذير الذي يحدث معه الآن.

- صـدفة جميلة والله يا ياسـر، نراك مرتين خلال أقل من أربع وعشـــرين ســـاعة، ما الذي أتى بك إلى السوق العربي؟
- جئـت لألتقي قريبـا لي يعمـل في أحـد البنوك هنـا، وأنت؟ ماذا تفعل؟
- كـان لـدي اجتمـاع مع أحـد العملاء بخصـــوص مشــروع ســتتولى شــركتنا تنفيذه. هل أكلت؟ هيا نتناول الطعام سويا

- لا رغبة لي في الأكل
- قهوة اذن؟
- لا بأس
- حسنا هيا بنا إلى شارع النيل، ففي نهايته هناك مكان جميل يقع مباشرة على النهر مما يجعل الجو حوله منعشا ومختلفا عن هذا اللهيب القائظ الذي يلف السوق العربي
- اذن هيا بنا... هل ستأتي معي أم ستذهب بسيارتك؟
- لا سأتركها مركونة هنا وسأرافقك

انطلق الصديقان بسيارة ياسر صوب شارع النيل. كان مؤيد أكثر حيوية وسعادة وهو يتكلم معه ويحكي له الأخبار ويجتر معه الذكريات، في حين اكتفى ياسر بالصمت والابتسام وهز رأسه، بينما دماغه مشغولة بفكرة أنه لولا هاتف ياسين المزعج في الصباح الباكر لكان ربما لا يزال مستلقيا في سلام على فراشه بعيدا عن كل هؤلاء البشر المزعجين، بما فيهم حتى اللطفاء منهم مثل مؤيد .

-25-

وصلت السيارة التي تحمل الصديقين الجارين إلى النهاية الجنوبية لشارع النيل، حيث يكف الاسفلت عن مطاردة النهر وينعطف غربا ليأخذ العربات الجارية عليه إلى المنشية والرياض وما بعدهما من احياء الخرطوم الأكثر حداثة. عند ذلك المنعطف أوقف ياسر سيارته بين جموع من السيارات الواقفة وسار يتبع مؤيد باتجاه تلك الكراسي البلاستيكية المبعثرة تحت ظل النيمة الكبيرة على ضفة النيل الازرق. بقرب الشجرة تجلس (ست الشاي) التي تلبي طلبات الجالسين من المشاريب الساخنة، امرأة اربعينية قوية البنيان، داكنة البشرة وصلبة الملامح، ترتدي عباءة سوداء تغطي كامل جسمها وعلى رأسها التفت طرحة بنية خشنة، أمامها طاولة خشبية صغيرة ارتصت عليها الأكواب الزجاجية وعلب شتى تحوي البن والشاي والكركديه وغير ذلك من النباتات التي تواطئ الناس على شربها، وعلى يمينها يوجد موقد فحم متوسط على جمره يستقر ابريق كبير يحوي الماء المغلي. ألقى مؤيد عليها السلام مبتسما

- سلام يا فتحية... كيف حالك؟
- أهلا يا شباب
- معي ضيف من أمريكا وأريد منك أن تعزّيه بأفضل كوب جبنة

رفعت فتحية رأسها عن الأكواب المشغولة بإعدادها نحو ياسر وأخذت تتأمله، كأنها تريد أن تعرف كيف يبدو شكل الأشخاص القادمين من أمريكا، فلربما كان لهم ذراع إضافية أو حتى ذيل. وبعد برهة تأمل عادت برأسها نحو أكوابها تتابع عملها وقالت دون أن تعيد بصرها نحوهما

- إن شاء الله

تقدم ياسر إليها وقال مبتسما

- جبنة بالحبهان بدون سكر لو سمحت يا فتحية

رفعت فتحية بصرها نحوه مجددا ويبدو أن ابتسامته قد أعدتها فبادلته إياها مظهرة صفين من الأسنان البيضاء المتراصة باتساق وقالت من جديد

- إن شاء الله

أضاف مؤيد: "أما أنا فقهوتي المعتادة يا فتحية" ثم أخذ بيد ياسر واتجه به نحو كرسيين بلاستيكيين متجاورين يقعان في ظل الشجرة على حافة ضفة النهر وجلسا.

من خلف نظارته الشـمسـية السـوداء أخذت عيون ياسـر تراقب جريان مياه النيل الازرق المنسابة في سلاسة، قادمة من الجنوب تسـير بهمة وعزم نحو الشـمال، تقسـم الأرض اليابسـة إلى شـطرين، شـطر هنا يجلسـان على ضـفته بالخرطوم وشـطر يقابلهما مباشـرة في مدينة بحري يريان من مكانهما ضـفته الشـرقية. الجو حار نسـبيا بيد أن نسـيم النهر يلطفه تماما كما تنبأ مؤيد. ظل الصـديقان يراقبان في صمت اللوحة الفاتنة التي رسمتها أنامل الطبيعة.

- هل أعجبك المكان؟

سأله مؤيد كاسرا الصمت.

- جدا...

اجاب ياسر في اقتضاب دون أن يلتفت إلى صاحبه.

- اذن ما بك ساكت؟

فكر في إجابة على سؤال مؤيد لبرهة قبل أن يقول

- لأني لا أعرف كيف أتحدث...
- ماذا؟؟
- أعني أني تغيرت وصـــرت لا أجيد الحديث فيما يتحدث فيه غالب الناس، لا أعرف كيف أروي قصصا أو أحكي نكاتا مثلك، لا أحسن الحديث عن مغامراتي أو مغامرات غيري، صـــرت لا أحب الكلام في الســـيـاســـة ولا الأموال ولا تثيرني التفاصيل اليومية أو الحياتية كفاية لتدفعني للحديث عنها

مط مؤيد شفتيه في تهكم وهز رأسه مبتسما وقال

- منذ متى يا صـــاحبي؟ أهذا ما تعلمته في أمريكا؟ قديما كنا نعاني كي نسكتك

تجاهل ياسـر تعليق مؤيد المسـتفز وواصـل كلامه كأنه لم يسمعه

- لكني يمكن أن أحدثك طويلا في الفلسـفة إذا أردت، هو حديث لا يستسيغه معظم الناس ويستسخفونه، غير أني يمكن أن اتكلم فيه بالســـاعات، خذ مثلا

قضـــية هل العالم قديم أم حادث، هل تريدني أن أحدثك عنها؟

- قديم ام حادث؟!
- ســأحمل تســاؤلك على أنه دعوة لي للحديث، وقبل أن استرسل عليّ أولا أن أوضح لك ماذا نعنيه بهذه المصطلحات الثلاث، العالم وقديم وحادث
- العالم هو كوكب الأرض
- نعم هذا الكوكب المتوســـط الذي يدور حول نجم متوسط في مجرة متوسطة بها أكثر من مائة مليار نجمة. هل تعلم يا مؤيد أن عدد النجوم في الكون المنظور يفوق عدد كل حبات الرمل على كوكبنا آلاف المرات؟ وهذه هي النجوم فقط نـاهيك عن الكواكب والأقمار والكويكبات والمذنبات والثقوب السوداء وغيرها. مجرتنا نفسها ليست سوى وأحدة بين أكثر من تريليون مجرة اخرى في الكون الذي استطعنا رصده حتى الآن
- سبحان الله...
- لكن كوكب الأرض ليس هو المقصـــود بالعالم في هذا السؤال الفلسفي وإنما يقصد به كل الوجود بما فيه الكون الذي بالتأكيد لم يكن لدى الفلاســـفة أدنى فكرة عن أبعاده عندما طرحوا ســـؤالهم. أما قديم فتعني أنه أزلي، لا بداية له، أي كان دائما موجودا.

في حين أن حديث أو حادث أو محدث يعنون أنه بدأ في لحظة معينة بعد أن لم يكن له وجود

- ولكن كيف يمكن لأحد أن يتخيل أن شـــيء ما كان موجودا من تلقاء نفســه منذ الأزل دون أن يوجده أحد؟ هذا لا يعقل. الجواب بسيط، الكون حادث لأن الله خلقه
- اذن فمن خلق الله؟
- اسـتغفر الله... الله لم يخلقه أحد، كان دائما موجودا، هو الأول والآخر
- اذن الله أزلي بهذا المعنى، ليس له بداية، وطالما أنك تسـتطيع تصـور أزليته فهذا يعني أن تصـور الأزلية في حد ذاته ليس مستحيلا عقلا مناقضة لما قلته قبل قليل

وضع مؤيد يده على ذقنه وبدا كأنه يحاول أن يتفكر في هذا الكلام، نظر إليه ياسر مبتسما قبل أن يواصل حديثه

- الفلســفة بالأســاس يا مؤيد هي منهج للتفكير في الأمور، والأفكار تشـتبك مع بعضـها وتتحاور وتتطور كما فعلنا الآن في هذا الحوار القصــير. فلاســفة اليونان الكبار كأفلاطون وارسـطو كانوا يقولون بأزلية الكون، أي بأنه قديم، ليســوا لأنهم

كانوا ملاحدة بل لأنهم كانوا مؤمنين وأرادوا تنزيه الـذات الالهيـة الأزليـة الكـاملـة عن النقص، فلو افترضـــنا أن الكون قد أحدثه إله ازلي كامل في لحظة محددة فذلك يســتدعي أن تغيرا ما طرأ على هذا الاله تطلب منه اتخاذ هذا القرار، والتغير في الكامل ينقصـــه، ولذلك افترضـــوا أن الكون أزلي قديم كالإله. وافلاطون لا يســـمي الله بالخالق بل يسميه بالصانع، صنع الأشياء ونظم العالم

- ولكن مـاذا عن العلم الحـديـث؟ مـاذا عن الانفجـار العظيم؟
- سـنأتي لذلك، لكن عليّ قبل ذلك أن أوضـح أن هذه الفكرة - أعني فكرة قـدم العـالم - هي التي ظلـت مســيطرة على الفلســفـة خلافـا لمعتقدات بعض الأديان، وأخذت هذه الفكرة تتطور عند الفلســفات اللاحقـة كفكرة الفيض عنـد الافلاطونيـة المحدثـة، فهم يقولون أن الكون فـاض عن الله كمـا تفيض أشـعة الشـمس عن الشـمس. فكرة قدم العالم تبناها أيضـاً الفلاسـفة المسـلمون كالفارابي وابن سـينا ولم يجدوها معارضـــة للنصـــوص حتى جاء الغزالي وكفر من يقول بهذه الفكرة
- الغزالي؟ تقصد ابا حامد الغزالي؟

- أجل، حجة الاســـلام كما يلقب. لم يكن عالم دين تقليدي، كان مولعا بالفلســـفة والمنطق، بل وجعل تـدريس المنطق إلزاميـا للفقهـاء يســـتعملونـه في أصول الفقه لاستنباط الاحكام. بالنسبة للغزالي كان الأمر محســـوما، فالعالم حديث لأن الله خلقه من عدم، وأســـند أدلته النصـــية بأدلة عقلية في كتابه تهـافـت الفلاســـفـة، وكفرهم لقولهم بقـدم العـالم وبقضـيتين أُخْرَتين هما أنكارهم لعلم الله بالجزئيات وأنكـارهم للمعـاد البدني عدا عن قضـــايا اخرى خطأهم فيها وألصق فيهم حكم المبتدعة
- الم يرد عليه أحدهم؟
- نعم رد عليه ابن رشد بكتاب اسماه تهافت التهافت، غير أن الضـــربة التي وجهها الغزالي للفلســـفة الإسلامية كانت قاسية فانحسر بعدها الفلاسفة عددا ونوعا، وغابت شمس التفكير الفلسفي تحت سطوة التفكير النصـوصـي الحرفي. لكن قضـية قدم العالم أم حدوثه ظلت تشــغل عقول الفلاســفة حول الدنيا إلى أن وصلنا لعصرنا الحالي
- حتى جـاءت نظريــة البيج بــانج وحملـت الجواب الحاسم
- هذا ما قد يبدو، فهذه النظرية العلمية ذات الأدلة العديدة تقول أن الكون بدأ فعلا في لحظة معينة قبل

حوالي أربعة عشـــر مليار ســـنة من نقطة متناهية الصـــغر والكثافة، انفجرت وتوســـعت لتنتج لنا المكـان والزمـان. بهـذا المفهوم يكون العـالم ليس أزليا لأنه لم يكن له وجود قبل ذلك الانفجار، ولكن السـؤال الذي لم يسـتطع العلم الاجابة عليه بجواب قوي بعـد هو مـاذا كـان قبـل الانفجـار العظيم؟ إن الزمان نفســه بحســب مفهومه الفيزيائي لم يبدأ إلا عند تلك اللحظة ولذلك قال بعض العلماء أن هذا السـؤال بلا معنى مثل السـؤال عن ماذا يقع شـمال القطب الشمالي

أرســـل مؤيد عينيه في عمق مجرى النيل ويده تعبث في شـعيرات ذقنه. وجد نفســه منغمســا في هذا الحوار العجيب الذي لم يكن على باله عندما جاء بياسر إلى هنا. كل ما كأن يأمله بهذه الجلســة هو أن يســترجع مع صــديقه ذكرياتهما القديمة معا ويضحكا عليها. أخذ يهمهم

- شمال القطب الشمالي؟!
- لكني اختلف مع هذا الطرح، التسـاؤل عمّا كان قبل الانفجار العظيم هو تساؤل مشروع، هو سؤال عن الوجود، المبحـث الأول من مبـاحـث الفلســفـة الرئيســية، وهو الســؤال الذي من أجله جاءت كل

الأديان تحاول الإجابة عليه. هناك الآن العديد من الفرضيات في علوم الكونيات، بعضها يتحدث عن سلسلة طويلة قد تكون لا نهائية من الانفجارات العظيمة تعقبها انكماشات عظيمة تنفجر من جديد. والبعض الآخر يتحدث عن أكوان لا نهائية متوازية وأن كوننا هذا بكل ما فيه ليس سوى فقاعة صابون في حوض استحمام مليء بعدد لا نهائي من فقاعات الصابون المماثلة، مما يعيدنا من جديد لاحتمالية أزلية الكون

- سبحان الله
- الخلاصة يا مؤيد أن هذا السؤال هل الكون قديم أم حادث وبرغم أنه يناقش منذ أكثر من ألفي عام إلا أن الفلسفة لم تصل فيه إلى اجابة شافية، وربما قد لا تصل، لكن المتعة تكمن في تلمسنا لطريقنا في هذا النفق المظلم الذي وجدنا أنفسنا فيه وفي هذه الرحلة ونحن نحاول أن نستعمل ونستفيد من الشيء الوحيد الذي يميزنا عن بقية الكائنات...

رفع ياسر سبابته إلى رأس مؤيد وأخذ يطرق عليه، ابتسم مؤيد في تكلف مجاملة لياسر، لقد سعد قليلا بالتساؤلات التي أنشغل بها عقله، غير أن سعادته الأكبر كانت لوصول هذا الحوار غير المريح إلى نقطة النهاية. قال لجليسه

- ربما تغيرت يا ياســـر وتغير محتوى كلامك، لكن معاناتنا لإسكاتك لم تتغير

الفصل الثاني

"ليلى"

-26-

منذ أن عاد من جلسته النيلية برفقة مؤيد لم يغادر ياسر بيته، ظل حبيسا به ليومين كاملين، في أغلب الأوقات لم يبارح حتى حدود فراشه، عدا عن غزوات سريعة للمطبخ يستغلها في إدخال بعض القوت إلى جوفه ليسكت به إلحاح جسده المحتاج كبقية الأجساد للغذاء، رغما عن نفسه التي قد زهدت في الطعام مثلما زهدت في كل شيء آخر في هذه الدنيا. يقضي ياسر الساعات الطويلة على فراشه بصحبة أفكاره السالبة... لماذا هي الحياة طويلة وبائسة وبلا معنى هكذا؟ ولماذا هو حيّ أصلا؟ ولماذا لم يشاوره أحد قبل احضاره لهذا العالم التعيس؟ وكيف يستطيع هؤلاء البشر العمي المضي في حياتهم العابثة التي لا معنى لها بكل هذه الهمة؟ ولماذا هو ليس مثلهم؟ أتراه الوحيد الذي اكتشف أن الحياة على هذا الكوكب الصغير البائس لا تساوي شيئا في ميزان هذا الكون الرهيب؟ ألا يعلم البشر أن كل حياتهم وحضارتهم وإنجازاتهم وأحلامهم وحروبهم وسلامهم ليست بأكثر قيمة من حياة مجموعة من النمل في قبو ناطحة سحاب مظلم تظن نفسها مركز الكون ولا تعلم شيئا عن الطوابق المائة من فوقها؟

امســـك هاتفه المحمول يبحث فيه عما ينقذ ذهنه من نيران جحيم أفكاره. وجد رسالة من معتصم في برنامج المراسلة، كـانـت رســـالـة تـافهـة غير ذات قيمـة، مجرد صـــورة كاريكاتورية لرجل يمسك سيجارة محشوة كبيرة تتدلى إلى قدميه، لكن تلك الرســالة المبتذلة أوحت له بفكرة فاتصــل بمعتصم

- الو... كيف حالك يا معتصم؟
- أين أنت يا معلم؟ لم نرك ثانية من يومها
- هل ما زالت الحبوب التي اعطيتها لك معك؟
- ليس كلها، فقد جربت بعضا منها
- لا مشكلة، أريد فقط حبتين، من صنفين مختلفين
- حسنا... هل ستمر علينا لأخذها؟
- ألا يمكنك أن تمر عليّ أنت؟ لا طاقة لي ولا رغبة في الحقيقة للخروج
- حســـنـا أنـا خـارج بعد قليـل للـذهـاب إلى مكتبـة المستشفى وسأمر عليك في طريقي
- شكرا... أراك قريبا

أنـهى ياسـر المحادثة وقد أضــاء في داخله شـعاع خافت من الأمل. حدث نفسه أن لا بأس إن جرب بعض الحبوب، فهي

على الأقل أدوية للمرضـــى من أمثاله، لعلها تريح رأســه قليلا من هذه الأفكار الاكتئابية التي تعصف به.

لم يتأخر معتصم كثيرا، قابله ياسر عند باب الدار وتناول منه حبتين، الأولى مستديرة حمراء يتذكرها، إنها الفراولة، مائتا جرام من الترامادول. اما الثانية فكبسولة بيضاء أخبره معتصم أنها تدعى بريجابالين، هي في الأصل علاج مخدر للأعصـــاب وتأثيرها على الدماغ يشـــابه تأثير البنقو الذي دخناه منذ أيام معا. ودع ياسر صاحبه وشكره وعاد داخلا إلى بيته، وقبل أن تطأ قدماه أرض الصـــالة كان قد ألقى بالحبة الحمراء في أغوار بطنه بدون أن يشـــرب معها اي ماء .

عاد إلى سريره وجلس القرفصاء عليه وأخذ ينتظر ظهور تأثير الحبة. طال انتظاره وبدأ احباطه يتصـــاعد عندما لم يشعر بشيء. تناول هاتفه واتصل بمعتصم وقال له

- لقد خدعتني يا معتصـــم... ولوثت جســـدي الطاهر بفراولتك النجسة المزيفة. لقد جلست على سريري نصف ساعة كالأبله أنتظرها أن تعمل دون جدوى، ربما كأن من الافضـــل لي أن أبحث عن فراولة حقيقية اتناولها، فعلى الأقل هي خارجة من رحم

الأرض الطــاهرة بمعجزة من عشـــــتــار الـهــة الخصـــوبة، وهي مليئة بالفيتامينات وعلى رأســـها فيتامين ســي، وليســت مثل فراولتك الحمقاء عديمة الجدوى

أخذ معتصـم يقهقه بشـدة على ما يقوله ياسـر. اسـتاء ياسـر لضـحك صـاحبه المتواصـل الذي لا يجيبه عن شـكواه، قال له

- لماذا تضحك؟
- ألا ترى؟
- أرى ماذا؟
- أن الفراولة بدأت في العمل
- كيف؟
- عندما اتصلت بي قبل ساعة كنت بالكاد تقول جملة وأحدة، كان صــوتك خاملا ومتعبا خاليا من الطاقة ومعدوما من الإحســـاس، وها أنت الآن تعاتبني بحيوية شـــديدة، وترغي وتزبد ولا تترك لي حتى مجالا للرد
- حقا؟
- نعم، وتحدثني عن أشــياء غريبة، من هي عشـــتار هذه؟ أتقول أنها الهة الفراولة؟

ضحك ياسر على عبارة صاحبه الأخيرة، ثم توقف فجأة عن الضحك وأخذ يتأمل، أنه فعلا يضحك، لا بد أن معتصم على حق وأن قرص الدواء الاحمر المستدير بدأ في العمل.

- حسنا معك حق يا معتصم... أنا آسف
- لا عليك يا عزيزي... استمتع باللحظة
- إلى اللقاء

أنهى ياسر المكالمة وهب واقفا، يحس أنه ممتلئ بالطاقة والحماس لعمل أي شيء، ولذلك لن يضيع هذه اللحظات الفراولية الجميلة بالمكوث هنا في غرفته البائسة. ارتدى ثيابه وخرج من داره لأول مرة بعد يومين كاملين لم تلامس فيها قدماه الشارع.

-27-

ابتعد ياسر عن داره يسير بحماس في أزقة حي الملازمين حتى وصل إلى شارع الاسفلت الرئيسي. لم يكن لديه خطة عن إلى أين سيذهب وماذا سيفعل، لكن قدميه النشيطتين قادتاه نحو صينية الأزهري ومن بعدها إلى ميدان الشهداء

بقرب مستشفى أمدرمان الكبير. اختلط بالجموع الحاشدة التي تسير نحو كل الاتجاهات من حوله بقرب موقف المواصلات. واصل مسيره في شارع الدكاترة الذي يقود إلى السوق وهو يقلب نظره في لافتات العيادات والمعامل الطبية من حوله، توقف في إحدى الطبليات وابتاع لنفسه (كابا)، طاقية مظللة تحميه من بعض أشعة الشمس الغاضبة. وقف عند بائع آخر يفترش الأرض واشترى منه طاقية خضراء ومسبحة مئوية كبيرة، لا يعرف ماذا سيفعل بها لكن رغبة شديدة دفعته لشرائهما، لا بد أنها من بركات الفراولة، فمزاجه متحسن وبطاريته الفارغة مملوءة الآن بالطاقة والاندفاع. توقف عند بائع آخر يشوي اكواز الذرة على موقد فحم صغير واشترى منه ذرة مشوية أخذ يقضمها مستمتعا اثناء سيره. انحرف يمينا في نهاية شارع الدكاترة متجها نحو المحطة الوسطى، وصلها وهو يراقب اختلاط المركبات بالبشر بالحيوانات التي تجر عربات الكارو هناك مشكّلة لوحة شديدة القبح والعبث.

اقتحم السوق وهو يقرض بقايا كوز الذرة المشوي. مر على عديد الطبليات التي تبيع الملابس والأحذية في أحد أزقة السوق الضيقة، وتلاحم مع المارين وأنعجن بهم واختلط عرقهم بعرقه، وأنفاسهم بأنفاسه. انزعج قليلا لكن مزاجه العالي بتأثير الحبة الحمراء دفعه للمتابعة، حتى

تجاوز أخيرا ذلك الزقاق الضـيق ووصـل إلى شـارع الصاغة الأكثر اتساعا، وبدأت الحلي الذهبية المتراصة في فترينات المحلات على جانبيه تبرق في عينيه. واصـل السير فيه إلى نهايته مارا بسوق الأواني المنزلية الكبير ثم أنحرف يمينا، فدخل إلى الشارع المليء بالدكاكين التي تبيع التحف التقليدية، فرأي منحوتات الابنوس الخشـبية وأحذية جلد التمساح وحلي العاج وحقائب القش. أخيرا وصل إلى شارع كرري فتبدت له بيوت حي الركابية العتيقة. إنه الآن بالقرب من بيت عمته خديجة، ورغم أنه لم يخطط للقدوم إلى هنا أو لزيارتها إلا أن حالته المزاجية الجيدة تدعوه الآن إلى ذلك.

في طريقه إليها تناول بطيخة من طبلية فواكه قريبة حتى لا يدخل على عمته فارغ اليدين. وصـل إلى البيت وطرق الباب فاستقبلته عمته بترحاب. تأمل مجددا في بيتها العتيق الصامد في وجه الزمن وهو يشعر بالراحة ثم اتخذ مجلسه على أحد السريرين تحت الراكوبة .

- هل أحضر لك غداءا يا ياسر؟
- لا يا عمتي شـكرا، يمكننا أن نكتفي بأكل هذه البطيخة إذا أحببتي
- حسنا سأقوم لأقطعها

حملت العمة خديجة البطيخة واتجهت إلى حجرة المطبخ الصغيرة المجاورة للراكوبة، جاءه صوتها من هناك سائلا

- هل أولادك بخير يا ياسر؟
- أنهم على ما يرام يا عمتي
- و سارة ؟
- هي كذلك بخير يا عمتي
- هل صحيح أنكم انفصلتم؟

باغته سـؤالها... لا بد أن ياسـين الوضـيع قد أخبرها رغم تحذيره له. حاول أن يكون دبلوماسيا في إجابته

- بيننا بعض المشاكل يا عمتي
- كل المتزوجين بينهم مشاكل يا ولدي

عادت العمة خديجة تحمل قطع البطيخ الحمراء في صـينية ووضعتها أمام ياسر وجلست قبالته ثم تابعت كلامها

- ســـارة فتاة طيبة... لقد كان والداك رحمهما الله يحبونها كثيرا
- أعرف ذلك يا عمتي

- مهما كانت طبيعة المشاكل بينكما فلا شك أنها غير مستحيلة الحل، لديكم بيت وثلاثة أطفال جميلين عليكم أن تحافظوا عليهم يا ياسر
- أفهم ذلك يا عمتي

لم يشأ ياسر الاستمرار في هذا الحوار، فذكر مشاكله مع زوجته السابقة يضايقه، هو يحبها كثيرا لكنه يشعر أنها خذلته بعدما مرض، استغنت عنه ولم تعد تعبأ به، أصبحت تعامله كقطعة أثاث معطوبة عديمة النفع وكم كان ذلك يؤلمه، ويؤلمه أكثر إحساسه بالذنب تجاهها، أنه بسبب مرضه هذا الذي لم يختره دمر جنة زواجهما، وأصبح مصدرا للتعاسة لأقرب الناس إليه. سارة هي من طلبت الانفصال، قالت أنها لم تعد تقدر أن تستمر في هذه الحياة المعطلة، أما هو فاختار الابتعاد، لذلك هو موجود الآن في حي الركابية الأمدرماني على بعد آلاف الأميال عن ولاية كارولينا الشمالية حيث توجد أسرته.

تناول ياسر قطع البطيخ برفقة عمته وهو يستمع إلى حكاياتها عن أخبار القلة المتبقية من أقربائه التي لا تزال على قيد الحياة. حكايات عمته المملة عادة بدت له مثيرة وجذابة بفعل تأثير الترامادول الفراولي على دماغه. أخذ يركز مع تفاصيل روايات عمته ويناقشها بحماس

ويستزيدها، ومرت الساعات وهو بصحبتها حتى بدأت الشمس تميل للغروب، فنهض مستأذنا يودعها، قالت له

- لقد آنستني اليوم كثيرا يا ياسر
- وأنت كذلك يا عمتي
- لا تغب عني طويلا
- أكيد أن شاء الله
- وحاول أن تصلح ما بينك وبين سارة

امتعض ياسر لعبارتها الاخيرة التي سلبت بعضا من روقان مزاجه في هذه اللحظة، لكنه عض على شفتيه وقال

- سأحاول أن شاء الله يا عمتي

خرج من بيت عمته يسير عائدا نحو بيته. لا تعرف عمته كم هو صعب ما تطلبه، هو يتمنى أن يحاول لكنه لا يستطيع، سارة هي من عليها أن تحاول لأنها سليمة النفس صحيحة الروح وليست مثله، هي من عليها أن تأخذ بيده ليتجاوزا هذه المحنة، لكنها لم تفعل، تدعي فقط أنها قامت بكل ما استطاعتها لكنه لا يرى أنها حاولت بما فيه الكفاية. هو عن نفسه حاول أن يتعالج، جرب مضادات الاكتئاب فلم تحسن مزاجه بل وأغرقته في أعراضها الجانبية المزعجة.

جرب أيضاً العلاج النفسي مع المعالج فلم يفلح معه. يحس أنه لا أمل في شيء ولا فائدة ترجو من علاج، وأنه لا يمكن لإنسان وصل درجة اكتئابه ورأى الدنيا على حقيقتها كدوامة خرقاء من العبث اللاهي أن يعود إلى الوراء ليقنع نفسه بوجود أي معنى لحياتنا الهزلية على هذا الكوكب الأزرق.

وصل أخيرا إلى داره بعد أن غربت الشمس وأظلمت السماء. مزاجه لا يزال جيدا لكن جسمه تعب قليلا من كثرة المشي وبعضلاته رجفة لذيذة لا يفهمها، ربما تكون أيضاً من تأثيرات الفراولة السحرية. دخل غرفته ووضع الأشياء التي اشتراها على الطاولة، الكاب والطاقية الخضراء والمسبحة، ثم استلقى على سريره سعيدا على غير العادة. يعرف أن هذه سعادة مؤقتة عابرة أحدثتها الحبة الحمراء، ولكن فليكن، فهذا على الأقل أحسن حالا من وضعه السوداوي العادي. أمسك هاتفه المحمول وأخذ يطالع عليه افلاما كوميدية واحدا بعد الآخر، وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة مخدرة ثابتة لا تتزعزع، تتحول أحيانا إلى ضحكات مفاجئة. ظل على هذا الحال حتى أشرقت الشمس، ولم يستطع النوم حتى أنتصف النهار. سمع أذانين متتاليين فأنتبه إلى أن اليوم جمعة. وفعلا بدأ يترانى له صوت الخطيب يأتي من بعيد. فكر أن يقوم ليدرك الصلاة، لكنه

في تلك اللحظة بالضبط أحس بالنعاس، فاستسلم لشيطانه واسترخى في سريره. وقبل أن يغمض النوم عينيه طالع في الطاقية الخضراء والمسبحة الموضوعتين فوق طاولته، فلمعت في رأسه فكرة مفاجئة عزم على تنفيذها حالما يستيقظ. ضبط منبهه ليوقظه بعد العصر، ثم نام وصوت خطيب الجمعة يدغدغ أذنيه.

-28-

بثوب ابيض على جسده وطاقية خضراء فوق رأسه ومسبحة مئوية ذات حبات كبيرة تتدلى من عنقه ولحية غير مشذّبة تغطي وجهه ونعال قديم مغبرّ ومتّسخ... بكل ذلك بدا ياسر كدرويش هائم من دراويش الصوفية. الشيء الوحيد الذي كان لا يتماهى مع تلك الصورة هو النظارة الـ RayBan الشمسية فوق عينيه. أخذ عم زكريا يتأمل في هيئة ياسر ويلاحقه بعينيه وهو يخرج من الدار عابرا باحة البيت نحو الباب الخارجي حيث تقف سيارته .

- مرحبا عم زكريا
- اهلا ياسر

انتهى حوارهما عند هذه الكلمات الخمس، فكلاهما مقل في الكلام، فعم زكريا لا يسأل عن ما يخصه ولا يتدخل فيما لا يعنيه وهي الصفة التي جعلته يحظى بمباركة والدي ياسر ليعيش في هذه الدار معهم طوال خمسة وعشرين عاما، أما ياسر فلا يجيد الأحاديث الجانبية الخالية من الموضوع، هو متخلف اجتماعيا كما كانت تقول له زوجته سارة وهي تمازحه، اما هي فكانت عبقرية اجتماعيا على عكسه، تستطيع أن تصادق كل شيء وأي شيء في لمح البصر، وتحوز على التقدير والإعجاب بسلاسة بكلامها اللطيف وابتسامتها المشرقة وسحر طلتها، بينما لم يكن له هو في أي من ذلك نصيب.

انطلق بسيارته قاصدا مقابر حمد النيل، فهناك حول قبة الشيخ تقام نوبة ذكر اسبوعية عصر كل جمعة، يجتمع الذاكرون والمريدون والصالحون والمخطئون لذكر الله وتمجيده على ايقاع الطبول وفي حركات راقصة أملا في تجلي الروح وملامسة الما وراء .

قديما حضر ياسر نوبة الجمعة في حمد النيل بضع مرات من باب الفضول، كما يفعل ذلك كثير من الناس بل وحتى السياح من (الخواجات) يحضرون وبكاميراتهم يصورون، لكن ياسر اليوم لا يحضر كسائح يأتي ليتسلى برؤية

الرقصات وسماع الصرخات، وإنما يذهب الآن إلى هناك كرجل طامع بالالتحام بالسماء، يريد أن يغني عاليا بذكر لفظ الجلالة لعل روحه تتنقى وتتطهر، ويريد أن يرقص ويتحرك تبجيلا للمحرك الأول الذي لا يتحرك، فلا يفنى في الله من لا يعرف قوة الرقص كما قال مولانا جلال الدين.

وصل إلى المقابر وأوقف سيارته عند السور القريب من قبة الشيخ الخضراء الباهية. أخذ يسارع خطوات رجليه باتجاه القبة متخطيا جماعات من الناس رجالا ونساءا تسير معه في نفس الطريق بين القبور نحو قبة الشيخ حمد النيل حيث ابتدأت النوبة وعلا دق الطبول وبرز إيقاع الدفوف وضج المكان برقص المشاركين وهتافات أذكارهم الصادحة "حي... حي... حي" و "الله... الله... الله...". ابتسم ياسر وبدأ يحس بأن روحه ترتقي حتى قبل أن يندمج في حلقة الذكر متخذا له مكانا في محيط دائرة كبيرة بها مئات المشاركين، يهتفون ذاكرين في نفس واحد، ويحركون أيديهم وأرجلهم راقصين في إيقاع واحد، وفي وسط الدائرة كان خليفة الشيخ حمد النيل في زيه الأخضر وعمامته السوداء يدور في الدائرة ذاكرا ومشجعا، ومن خلفه الحواريون والدراويش وأهل الله، بعضهم كان في حالة تجلي وانفصال عن عالم الأجساد، تجلى يسعى إليه ياسر

ويحس باقترابه منه مع انقباضات ذراعيه وركبتيه الراقصة وصرخات لسانه الذاكرة "حي...".

-29-

استمرت النوبة قرابة الساعة ونصف حتى توارى قرص الشمس خلف قبة الشيخ ثم واصل رحلته نزولا ليختفي تحت الافق الغربي لمدينة أمدرمان. ساعة ونصف لم يشعر بها ياسر ولم يخرجه من تجليه سوى توقف الطبول وسكون الاجساد الراقصة وصدوح المؤذن العالي بدخول المغرب.

انتبه ياسر لنفسه كأنه يعيد اكتشافها بعد ساعة ونصف من الغياب الروحي، ثوبه مبلل عرقا ونصفه الأسفل مغبر والناس الذين كانوا معه في حلقة الذكر تفرقوا منتشرين في المقابر، بعضهم ذهب ليرتص لأداء صلاة المغرب بجوار القبة، وبعضهم سلك طريقه نحو الخارج، وعلى درب هؤلاء سار ياسر يترافع برأسه للأعلى فوق رؤوسهم طلبا لنسمة هواء تصطدم بوجهه المبتل عرقا لتبرد قليلا من سخونته. فجأة سمع صوتا انثويا مألوفا من خلفه يناديه "ياسر..."، التفت ليرى ليلى واقفة وسط الجموع ترتدي عباءة سوداء وتلف رأسها بخمار اسود يجعل وجهها يشع

توهجا، وعيناها الساحرتان تمطرانه بالبريق العسلي، ومن يدها اليمنى تدلت مسبحة كادت أن تلامس الأرض من طولها وحبات المسبحة تتحرك بانتظام بين ابهامها وسبابتها. وقف ياسر يحدق فيها برهة دون أن ينبس وهو يشعر أن كل ما حوله يتلاشى، الحشود السائرة والقبور المتناثرة بل وحتى قبة الشيخ، كلها تلاشت من ناظريه ولم يعد يرى أمامه سوى هذه الفتاة في زيها الاسود وهذه المسبحة التي تتدلى من اصابعها، وتلك العينين العسليتين اللتين يهوي عميقا في بئرهما .

أيقظه صوتها من حلم يقظته...

- أنا ليلى... يا ياسر
- أعرف ذلك... عفوا... أهلا ليلى
- اعتقدت أنك قد نسيتني عندما وقفت تحدق بي صامتا
- عفوا مرة ثانية... لكن مثلك لا ينسى

ابتسمت ليلى طربا لإطرائه فزاد وجهها توهجا فوق توهجه. تمتم ياسر في نفسه "لطفك يا الله". واصلت ليلى كلامها وهي تكبح ابتسامتها الفاتنة

- لاحظت وجودك منذ بداية النوبة، حاولت أن أشـير لك بالسلام لكنك لم تلاحظني
- العيون العـاميـة هي فقط من تعجز عن ملاحظـة مثلك، لكن اعذريني فيبدو أني كنت غائبا
- أكنت في حال التجلي؟
- ربما
- ما أروع ذلك! كم أنت محظوظ
- أنا فعلا محظوظ بهذه الصدفة التي التقتني بك هنا
- أنا مواظبة على الحضـور كل جمعة، فعمي هو من حواريي خليفة الشــيخ حمد النيل، نأتي مبكرا دائما لنسلم عليه وننال من دعواته وبركاته

لم يعلق ياسر ولم يرد إحباطها أو إغضابها لذلك لم يخبرها بأنه ليس من هواة الاحتكاك بالشـــيوخ ولا تملقهم، وأنه لا يؤمن بالطرق الكهنوتية الموضوعة التي يتبعونها، فالطرق إلى الله تتعدد بتعدد أنفاس الخلائق كما قال السادة العارفون، ولكن لا داعي لأن يشرح لها ذلك ويسرد لها مذهبه في هذا الشـأن لا سيما وأنه يتناقض تناقضـا واضـحا مع حاله الآن وهو واقف في رحاب قبة الشـيخ حمد النيل. واصــلت ليلى كلامها عندما لم تجد منه ردا

- هل تأتي هنا كثيرا؟

- لا ولكن يبدو أني سأواظب على ذلك بعد هذا اليوم
- ألن تبدأ العمل معنا في البنك؟
- ما زلت في انتظار أن يتصلوا بي
- حسنا... عليّ أن اذهب الآن لأن عمي ينتظرني
- أوكي... تحياتي له

وقف ياسر وليلى يودعان بعضهما بالنظرات، وعندما همت بإعطاء ظهرها له قال لها بصوت متهدج وناضح بالصدق وبكلمات عانت كثيرا في داخله قبل أن تصل إلى فمه

- كم أسعدتني رؤيتك اليوم يا ليلى

نظرت ليلى لتوان في عينيه المترقرقتين وإلى شفتيه المرتجفتين قبل أن تقول

- وأنا أكثر والله يا ياسر

ثم ابتسمت فشعت بسمتها نورا أحس معه ياسر بأنه يريد إغلاق عينيه في مواجهته. بعدها التفتت عنه سائرة نحو الخارج وتسمّر ياسر مكانه يراقب خطواتها المبتعدة عنه وهو يفكر لماذا لهذه الفتاة تأثير سحري عليه يجذبه نحوها

بهذه الشدة؟ ولماذا يقاوم هو هذه الجاذبية ولا يستسلم لها؟ لماذا لم يأخذ مثلا رقم هاتفها ليتواصل معها ويتلمس سحرها العجيب أكثر؟ لكنه نفض عن نفسه هذه الفكرة سريعا، فماذا سيفعل بالرقم؟ وعن ماذا سيتحدثان؟ وما هو الهدف أصلا لإنشاء علاقة مع هذه الفتاة المبهرة وهو فارغ الوجدان والشعور؟

فجأة توقف جسم ليلى السائر للأمام عن حركته، التفتت إلى الخلف لتصطدم نظراتها بنظرات ياسر الواقف مكانه يتأملها، غيرت اتجاهها وأقبلت عائدة نحوه، وقفت أمامه وأدخلت يدها في فتحة عباءتها إلى أن وصلت إلى جيب بناطلها الجينز من تحت العباءة، انتشلت من هناك هاتفها المحمول ورفعته أمام ياسر الذي بقي يراقب في صمت واستغراب ما يدور أمامه.

- ياسر... أعطني رقم هاتفك
- حسنا

ابتسم ياسر وأملى عليها الرقم، ثم اتصلت به من هاتفها فرنّ هاتفه في جيب ثوبه المغبر، أخذه ونظر إلى الرقم الظاهر على الشاشة ثم عاد بعيونه اليها، قالت باختصار

- هذا هو رقمي... مع السلامة يا ياسر

وانصــرفت عنه مبتعدة تاركة اياه يتمتم بكلمات لم يســمعها إلا هو "مع السلامة يا ليلى...".

-30-

قاد ياســر ســيارته عبر شــوارع أمدرمان عائدا إلى البيت. كانت الشـــوارع ضـــاجة بالحياة والحركة تحت الضـــوء الخافت لبقايا أشعة الشمس الغائبة. لم يعر ياسر اهتماما لما يــدور في الطرقــات من حولــه وكــان مركزا فقط على الوصول للبيت لكي يستحم ويستلقي في سريره منفردا مع هذه المشاعر الغريبة التي تعتريه، شعور بالجمال والشوق بل والســعادة، أحاســيس مرت أزمنة ممتدة دون أن يشــعر بها، يعيد اكتشافها الآن من جديد ويستشعر حلاوتها، يحس أنه بعث كائنا حيا مرة اخرى بعد موت طويل، لكن ســؤالا يحيره، هل ما به هو نتيجة النوبة والذكر والرقص والتجلي أم نتيجة لقاءه بليلي؟ هل هذه الروح التي يشــعر به تســري في جســده هي من بركات الشــيخ حمد النيل أم من بركات الشيخة ليلى؟

وصـــل إلى داره وخلع عنه ثوبه المغبر ووضـــع الطاقية الخضـــراء مع الســبحة على المنضـــدة وهو يفكر أنهما سـيبقيان عليها دون حراك حتى الجمعة القادمة. أخذ حماما وخرج وقطر الماء لا يزال يتدلى من أعضـــائه. شـــعر بالانتعاش وقذف نفسـه على السـرير عاريا الا من ملابسـه الداخلية وأخذ يحدق في السـقف ويرى فيه انعكاس صـورة ليلى في خياله، واقفة قرب قبة الشـــيخ حمد النيل بزيها الاسود المتوهج رغما عن الطبيعة الفيزيائية للونه القاتم.

أمســـك بهاتفه المحمول ونظر في ســـعادة إلى رقم ليلى الظاهر على شاشته، أراد أن يحفظه في جهازه باسمها لكن أصـــابعه ارتجفت وهو تحاول أن تكتب (ليلى). شـــيء ما يتراقص في دواخله المضـطربة يجعله لا يجرؤ على كتابة الاسم، يجعله يشعر بمزيج من المسؤولية والخيانة والقداسة والنجاســة، شــيء لا يميزه ولا يعرف كنهه لكنه يمنعه من كتابة اسـمها في سـجل هاتفه، ولكن لا بد له من حفظ الرقم ولا بد لذلك من اسم ما ليحفظ به. في النهاية اختار لها اسـم (حمد الليل) بعد أن مزج حروف اسـمها بالمكان الذي حاز فيه على رقمها المبارك .

فتح برنامج المراســلة وبحث عن حمد الليل، ظهر له أنها متصلة الآن ومتاحة، شعر بالسعادة، وأخذ يكتب لها، لكنه

كلما كتب شـــيئا مســـحه وعاد يحاول من جديد، حتى كلمة "ســـلام" كتبهـا وكـاد يرســـلهـا قبـل أن يتراجع ويجبن ويمسحها. في النهاية لم يرسل لها شيئا والقى هاتفه بجواره مستسلما وهو يقنع نفسه ألا داعي لفتح باب كهذا، فهو ليس لديه ما يقدمه لهذه الفتاة الساحرة، ولا يملك في جعبته سوى العدم الذي لا تستحقه ليلى الممجدة.

رن هاتفه فقام منتبها كنائم اســـتيقظ من غفوته، لوهلة ظن أنها ليلى وأن الاقدار التي جلبت له رقمها من دون حول منه ولا قوة تصـر على أن تجمعه بها هاتفيا، لكن أمله خار عندما رأى اسم معتصم ينير الشاشة، ابتسم في خذلان ورد عليه

- يا هلا
- كيفك يا معلم؟
- هل تعلم يا معتصـــم أن الكون كله يمكن أن يتآمر عليك ليمنعك من شـــيء ما، ويمكنه بنفس القدر أن يتآمر عليك لتسلك طريقا يرسمه لك
- ههههه... الحقيقة أني لم أكن اعلم
- لكن أحيانا يكون هذا الطريق الذي يدفعك الكون فيه دفعا هو ذات الطريق الذي تتمنى أنت فعلا أن

تسلكه لولا جبنك وخوفك اللذان منعاك من المضي فيه

- اتعني أن الكون قد يساعدك بدفعك نحو طريق تحبه أصلا وتريده؟ أليس هذا جيدا؟
- لســـت متـأكدا... لأن نفس هذا الكون من طبعه التآمر، لذا عندما موافقته إياك على رغبتك يدعو للتوجس والقلق، ويمـازجـه دومـا شـــعور بعـدم الارتياح مما هو قادم
- أتعني أنه يقدم لك الجبن مثلا ليوقعك في مصـــيدة الفئران؟
- شـــيء من هذا القبيل... لأن الاصـــل في الحياة التعاسة والشقاء كما قال شوبنهاور، وما اللحظات السعيدة القصيرة فيها إلا مجرد وهم، تقود بعد ذلك إلى مزيد من التعاسة
- على ذكر السعادة... كيف كانت الفراولة؟
- الحقيقة المفاجئة أنها كانت جيدة، لقد فاقت توقعاتي
- أليس كذلك؟ لقد قلت لك... ولكن عليك الحذر منها يا صديقي فإدمانها خطير ويجلب أطنانا من البؤس
- أعلم... لا تقلق فلا أنوي تعاطيها مرة اخرى
- وماذا عن كبسولة البريجابالين؟
- ما زالت موجودة... لم اتناولها
- بالمناسبة... لقد حضرت لك (جوينتا) فاخرا

- حقا؟
- نعم ملفوف بأفخر أنواع الشاش القادم من الهضبة الاثيوبية. أحضرته لي علا، لقد اخبرتها عنك
- يا سلام
- هلم إلي كي نبخه معا
- ما رأيك أن نؤجلها لمرة أخرى فأنا اليوم مرهق ونعس واستعد للنوم، كما أن مزاجي على غير العادة سعيد ولا يحتاج في هذه اللحظة إلى سعادة إضافية من سيجارتك
- حسنا وإن كنت لا اضمن لك بقاؤه، إنه فاخر كما قلت لك
- اذن أنا ونصيبي. سأتصل بك قريبا لنعرف قرار الكون في شئنها...

-31-

استيقظ ياسر متأخرا ظهيرة اليوم التالي، يحس بشيء من الراحة وبمسحة من نشاط، لذا قرر ألا يقضي يومه على سريره كما يصنع عادة. قام واغتسل وارتدى ثيابه وتحرك بسيارته نحو شارع النيل في الخرطوم. استمر في السير على الشارع حتى وصل إلى نهايته، إلى ذلك المكان الذي

جلس فيه برفقة مؤيد قبل أيام. نزل من عربته ومر على فتحية المشـغولة بإعداد طلبات زبائنها، وبابتسـامة منه ألقى عليها التحية فبادلته السلام والابتسام مظهرة أسنانها شديدة البياض. توجه ياسر إلى كرسيه المفضل على حافة ضفة النيل تحت شجرة النيم الكبيرة.

استوى ياسر في جلسته وملأ رئتيه من عبير النيل وتنهد في راحة، هذا المكان هو من الاشـياء القليلة الباقية في هذه الدنيا التي يمكن تدغدغ وجدانه. ليس فقط منظر النيل وجريان مياهه المنسـابة هو ما يعجبه ولكن لأن هذا المكان أرض بكر، لم تعبث بها يد الإنسان، فهذه الحافة التي يجلس فوقها الآن لم تتغير عبر السنين، لو عاد الزمن مائة سنة أو حتى ألفا فلن يتغير شـيء في هذا المكان عدا ربما عن هذه النيمة، لأن النيم شجر مهاجر لم يكن له وجود في السودان الا منذ قرن فقط، أحضـره الإنجليز معهم فيما أحضـروه. للحظة فكر ياسـر أن هذا الظل الذي ينعم به الآن هو من بركات جلالة الملكة فكتوريا. ابتسـم وهو يطرد الفكرة العابثة عن رأسه، ثم التفت إلى فتحية المشغولة بأخذ نقودها من أحد الزبائن، ولما التقت عيناه بعينيها هز رأسـه لها في اشـارة التقطتها مباشـرة، وردت عليها بهزة مماثلة من رأسها وشرعت تعد له كوب قهوته.

جالسا في انتظار قهوته سمع ياسر من وراءه صوتا مألوف الجرس يقول

- هذا المكان لا نظير له في السودان...

بحركة بطيئة التفتت رقبته للوراء تطلعا لمصدر الصوت، وداهمه شعور بالمفاجئة والحماس المخلوط بالتوجس عندما رأى الشاب الطويل ذا القميص البنفسجي الزاهي الملتحم بأناقة مع بنطاله الأسود يفصل بينهما حزام أسود جلدي لامع يشابهه في لمعانه الحذاء الجلدي الأسود الذي ينتعله. شعر الشاب بالغ القصر ومحلوق حديث، كما هما حال شاربه الخفيف ولحيته الصغيرة أسفل ذقنه، وبريق نظارته ذات الإطار الاسود الأنيق يمنحه مزيدا من اللمعان. كان الشاب يوجه كلامه إلى فتاة تسير بجواره لم تعبأ عينا ياسر بدراسة تفاصيلها.

عرف ياسر الشاب مباشرة، إنه صديقه القديم عماد، لم يتغير فيه شيء منذ أن رآه آخر مرة قبل سنوات خمس، علاقتهما كانت قوية فيما مضى ولكن غربة الجغرافيا ابعدتهما قبل أن تقضي الغربة النفسية التي يعيش فيها ياسر على ما تبقى من خيوط التواصل. أعاد ياسر رأسه الملتفت إلى وضعه المستقيم بسرعة كأنه لا يريد لصاحبه أن يراه.

عصـف رأسـه بالتفكير، هل رآني ام لم يرني؟ وإن كأن قد رآني هل أسلم عليه أم أتجاهله؟ هل سلامي عليه وهو برفقة الفتاة سيكون نوعا من الإزعاج له؟ هل سيدعوانني للجلوس معهما وأكون مضطرا لتصنع الابتسام واختلاق الثرثرة الاجتماعية عديمة المعنى؟ ثم هل هذا الشاب حقا عماد؟ أم لعله شخص يشبهه فتكون الأقدار رحمتني من إزعاجها.

لطم أذنيه صوت عالي أتى من وراءه فأخرجه من شتات أفكاره

- ياسر... غير معقول

التفت ورأى عماد فتصنع المفاجئة والسعادة، وأندمج الصديقان القديمان في عناق طويل. حرارة ترحيب عماد به اشعلت لديه بعض شموع الود القديم التي انطفأت عنده مع انطفاء نفسه وغرقها في ظلمة الكآبة.

من باب المجاملة البحتة دعا ياسر صاحبه الذي لم ينقطع لسانه عن السلام والترحيب إلى الجلوس معه، لكنه عندما نظر بركن عينيه إلى الفتاة التي أتت برفقة عماد فاستدرك قائلا

- دعني لا أفسد عليك برنامجك... يمكننا أن نؤجلها لمرة أخرى
- لا طبعا... لماذا مرة اخرى ونحن هنا الآن

قالها عماد وهو يلتقط كرسيين بلاستيكيين بيديه ليضعهما بمحاذاة كرسي ياسر، مسح أحدهما بمنديل أخرجه من جيبه نافضا عنه الغبار، وقبل أن يجلس أمسك بيد ياسر لافتا اياه نحو الفتاة وقال

- أعرفك يا ياسر على زهرة زميلتي في العمل

رفع ياسر عينيه للمرة الأولى ينظر إلى الفتاة متفحصا، هي قصيرة بعض الشيء وضئيلة الجسد الذي لا يبدو منه الكثير نتيجة العباءة الرمادية الأنيقة التي تسترها، وإن كانت لم تفلح في حجب بروزي نهديها المتوثبين. وجهها بدا متوسط الجمال وهو محاط بطرحة ملفوفة بإحكام لونها رمادي من نفس لون وخامة العباءة، عيونها تنظر في استحياء يتناقض مع صفاقة حذائها الأصفر المتمرد ذي الكعب العالي، وفمها يرسم ابتسامة هادئة تظهر بروز سنيها الأماميين، ومن كتفها تتدلى شنطة نسائية كبيرة بنفس لون حذائها الأصفر الفاقع.

- أهــلا يــا زهــرة... فــرصـــــة ســـــعــيـدة

وعندما أراد مد يده مصـــافحا ثبته عماد بأن شـــده للخلف وقال هامسا

- أنها لا تصافح

هز ياسر رأسه لها باسما، فزادت ابتسامتها هي اتساعا

جذب عماد صاحبه نحو زهرة كنوع من التقديم المادي قبل أن يشرع في التقديم المعنوي

- هذا يا زهرة ياســـر... وأحد من أعز اصــــدقائي. نعرف بعضنا منذ أكثر من خمسة عشر عاما، لكن الأعوام الاخيرة باعدت بيننا، هو يعيش في أمريكا ولا يأتي إلى هنا سوى في إجازات قصيرة
- لقد تركت أمريكا وصرت اعيش هنا
- يا رجل؟! اجلس اجلس دعنا نأخذ اخبارك

- ماذا تقول؟ انفصلتم؟
- نعم للأسف
- هل تعني أنكم تطلقتم؟
- ليس بعد
- لا حول ولا قوة الا بالله

ساد الصمت المتجمد الجلسة التي كانت قبل ثوان بالحيوية. أخذ عماد الذي كسى التأثر ملامحه ينظر إلى الأرض يبحث عن كلام يقوله لياسر يكسر به جليد الصمت. ياسر في المقابل لم يبد على وجهه جديد، صحيح أن ذكر سارة يقطع دواخله لكن انفعالاته تصنمت منذ زمن بعيد، لا تعابير عاد وجهه يرسمها سوى تقاسيم الحزن الميت التي أصبحت منقوشة على جداره. أزاح ياسر بصره عن عماد الجالس قبالته ونظر إلى زهرة الجالسة عن يمين صاحبه، أراد أن يشاهد انفعالات وجهها بما سمعته، وتفاجئ قليلا عندما رآها تمسك بهاتفها بأناملها القصيرة ذات الأظافر الطويلة ذات الطلاء الأصفر وتعبث به وهي تمضغ العلكة بطريقة مستهترة، ورغم أنه عادة لا يعبأ كثيرا بالآخرين ولا بردود افعالهم الا أن تجاهل هذه الفتاة لقصة انفصال زوجين تروى أمامها دون أن تتكدر أو تعلق بدا غريبا حتى بالنسبة له. أثار هذا الامر اهتمامه، فقال يلفتها اليه

- فرصة سعيدة يا زهرة...

توقفت عن العبث بهاتفها ورفعت رأسها تنظر إليه قبل أن تبتسم وتميل رأسها إلى الجانب في مودة وتقول

- نحن الاسعد يا ياسر

عماد المطرق رأسه أرضا تلقف الفرصة التي كان ينتظرها ليغير دفة الحديث من الطلاق والانفصال إلى الوصل والاتصال. قال

- أنا وياسر يا زهرة كنا صديقين حميمين خلال فترة الجامعة وما بعدها، كلانا مهتم بالأدب والثقافة وكلانا يحب الكرة ويعشق نادي الهلال. ندوات كثيرة ذهبنا إليها معا ومباريات أكثر شاهدناها من داخل الاستاد معا، لكن منذ أن هاجر هو إلى أمريكا قبل عشرة سنوات خفت تواصلنا، التقينا آخر مرة قبل خمس سنوات في زواج صاحبنا أسامة، كان ياسر في اجازته السنوية حينها، وظللنا متواصلين بالهاتف والرسائل لفترة قبل أن ينقطع الاتصال تماما في آخر سنتين. سكت عماد قليلا قبل أن يبتلع ريقه ويضيف

- كنت أظن أنها مشاغل الدنيا التي ابعدتك عنا، لكني الآن فهمت لماذا اختفيت
- المعذرة يا صديقي

قالها ياسر بنغمة عادية ولم يجتهد في أن يلبس عبارته ثوب الاعتذار، بينما أخذ عماد يلوم نفسه في صمت على عودته مجددا لموضــوع الطلاق والانفصـــال بعد أن خرج منه، ومجددا أخذ ينظر إلى الأرض ومؤخرته تململ في كرسيه في انتظار من يخرجه خارج حفرة الكلام التي أوقع نفســه فيها، لم تتأخر النجدة فقد قالت زهرة وهي تضـــع ســـاقها اليمنى على اليسرى مبدية حذائها الأصفر العالي الكعب

- أمريكا... كم أود زيارتها

قال ياسر بلا مبالاة

- لا داعي لذلك، فهذا المكان الذي نجلس فيه هو أجمل من أمريكا كلها

رفعت الفتاة حاجبيها في اســـتنكار ونظرت إلى عماد الذي أخذ يضحك وهو يقول

- لا عليك منه، ياسر يحب أن يمزح
- لكني لا امزح
- هل أنت جاد؟
- نعم

بنغمة استنكارية سألته زهرة

- تعني أن هذه الخرابة التي نجلس فيها الآن... هذه الأرض الطينية الغاصـــة بالحشـــائش الشـــوكية، والطافحة بنفايات قارورات البلاســتيك الملقاة على مد البصر أجمل من أمريكا؟!
- نعم

إجاباته الجامدة ووجهه الخالي من الملامح لم تمنح رفيقاه الدافع لمواصلة النقاش في الموضوع، فقال عماد مغيرا دفة الحديث

- ما رأيك في تشاغو المحترف النيجيري الذي سجله الهلال مؤخرا؟
- لم اشاهد للهلال اية مبارة منذ عامين
- لا... لا اصدق! لقد كنت مهووسا به

- ما عدت أتابع مباريات الكرة نهائيا
- معقولة؟! ولا حتى ريال مدريد؟
- ولا ريال مدريد
- ماذا تتابع اذن؟ دوري البيزبول الامريكي؟

بذل ياسر مجهودا كبيرا في جذب عضلات خديه لتنفرج عن شبح ابتسامة جامل بها صاحبه قبل أن يقول

- ولا دوري البيزبول
- ما هي البيزبول؟

تدخلت زهرة في الحوار بسؤالها، فأنطلق عماد يسرد لها معلومات عامة عن اللعبة دون الإغراق في التفاصيل. فكر ياسر أن عماد لا بد جاهل بقواعد هذه اللعبة، فهو نفسه الذي عاش في أمريكا أعواما طويلة لا يفهمها، ولا يبدو أن زهرة ستفهمها كذلك ولا يظهر أنها تأبه حتى بالمحاولة، فهي عادت تنظر وتعبث بأظافرها الطويلة الصفراء في هاتفها تاركة عماد يتكلم ويشرح

- اللا اكتراثيه...

توقف عماد عن الكلام ونظر إلى ياسر وكذلك فعلت زهرة.
سأله عماد

- ماذا قلت؟
- اللا اكتراثيه
- اللا اكتراثيه؟
- نعم اللا اكتراثيه، هي مذهب من المذاهب اللا دينية، كالإلحاد والربوبية واللا أدرية، لكنها تختلف عنهم
- كيف؟
- الالحاد ينكر وجود الإله أو القوة العليا الموجدة للكون، أما الربوبية فتقول بوجوده لكنها تنفي أن يكون هو نفسه إله الأديان، بينما اللا أدرية تتوقف في هذا الأمر وتقول إن الادلة المتوفرة لا تثبت وجود الإله ولا تنفيه
- واللا اكتراثيه؟
- اللا اكتراثيه كما يشي بذلك اسمها لا تكترث بالاهتمام بهذه القضية من الاساس

ثم نظر ياسر إلى زهرة وقال

- موقفها في ذلك يشبه موقف زهرة من عدم الاكتراث بدوري البيزبول الامريكي

ابتسمت زهرة ولم تعلق وعادت تنظر إلى هاتفها. اضاف ياسر

- ويشابه كذلك موقفها من عدم الاكتراث بهذا الحوار

بعدها قام ياسر من كرسيه ونظر إلى صديقه وقال

- اعذرني يا عماد فعلي الذهاب الآن، واتمنى لكما الاستمتاع بجلستكما

أخرج عماد من محفظته بطاقة ومدها إلى عماد قائلا

- اتصل بي يا صديقي وزرني في مكتبي

أخذ ياسر البطاقة ونظر فيها

مهندس/ عماد صالح محمد
مستشار بإدارة الموارد المائية بوزارة الري

- ما شاء الله... أعلى الله من مراتبك يا عماد
- لا تتأخر في الاتصال بي يا صديقي
- إن شاء الله... سلام
- سلام

مضى ياسر عائدا نحو سيارته ممسكا ببطاقة عماد في يده تاركا صاحبه يواصل جلسته النيلية مع رفيقته اللا مكترثة.

-33-

وقف ياسر أمام مدخل العمارة ذات الطوابق الثلاثة وارتفع ببصره يطالع اللوحة المعلقة في واجهتها...

جمهورية السودان
وزارة الري والموارد المائية الاتحادية

أخذ نفسا وتقدم عابرا المدخل باتجاه موظف الامن الجالس خلف طاولة وضعت بقبالة المدخل، كأنها سد يحمي وزارة الري من فيضأن الناس الداخلين اليها، قال للموظف

- أود الذهاب لمكتب المهندس عماد صالح محمد
- هل لديك ميعاد؟
- لا ليس لدي ميعاد محدد لكنه ينتظرني خلال اليوم

قال ياسـر جملته وهو يمد البطاقة التي أعطاها له عماد لموظف الامن الذي بدوره طالع فيها دون أن يلمسها ثم قال وهو يشير إلى الأعلى

- الدور الثاني على اليمين
- شكرا

مر ياسـر بجانب طاولة الموظف واتجه يسـارا إلى ممر ضيق في وسطه يتجمع أربعة اشخاص واقفين بصمت. عندما سار بقربهم عرف أنهم واقفون في انتظار المصعد وخلفهم تماما يوجد السلم. لم يجد ياسر ضرورة لانتظار المصعد وصعد بالسلم حتى وصل الطابق الثاني. بهو الطابق يشبه ردهات الفنادق حيث تصطف ابواب المكاتب بقبالة بعضها البعض، وبجانب كل باب علقت لوحة صغيرة تحمل اسم شاغل المكتب. وجد اسم عماد بسرعة دون عناء فقد كان مكتبه الثاني على اليمين، غير أن الباب كان مغلقا. طرق عليه مرتين فلم يجب أحد قبل أن يلفته صوت من

وراءه

- يا استاذ... من تريد؟

التفت فرأى امرأة بدينة متوسطة العمر ترتدي (توب) أبيض كذلك الذي يرتدينه الموظفات الحكوميات، وقد انحسر الثوب عن صدرها الضخم المتدلي بإسراف ككرتين من الشمام يغطيهما فستانها البرتقالي. وجهها مدور وخدودها مكتنزة ضاغطة على محاجر عينيها، وحاجباها الغليظان يزيدان من شر نظرات عيونها

- ابحث عن باشمهندس عماد

قالها باستسلام كمن يقر بالاعتراف تحت التعذيب...

- اها باشمهندس عمااااد...

تطاول نغمة صوتها وهي تنطق باسم عماد لم يكن مريحا، كما لم تكن كذلك ابتسامتها الهازئة التي ارتسمت بين ثنايا شفتيها المصبوغتين بالروج الأحمر. أعطته ظهرها وابتعدت عنه قبل أن تؤشر بيدها على المكتب خلفها وتقول

- عماد موجود... ادخل له

رفع حاجبيه دهشة من اسلوبها، وتعلقت عيناه لا إراديا بردفها الضخم الذي تسحبه ورائها والذي لم يفلح توبها الأبيض في إخفاء تضاريسه. هز رأسه طاردا بقايا صورته عن ذهنه ثم امسك بمقبض الباب وفتحه ودخل...

-34-

عندما دخل ياسر إلى مكتب عماد لم يجد أمامه أحدا، فقط مكتب خاوي ودواليب تحوي ملفات كثيرة، وفي داخل المكتب على اليمين يوجد باب آخر بدا وكأنه يقود لمكتب آخر داخل هذا المكتب. اتجه عماد نحوه وكلما اقترب منه كلما سمعت اذناه أصواتا غريبة تتسرب من بين ثنايا الباب غير المغلق بالكامل، أصوات هي مزيج من الآهات والهمهمات والصرخات المكتومة. كاد ياسر أن يعود أدباره ويغادر المكتب، غير أن غريزة الفضول في أعماقه الحيوانية انتصرت على الإنسان المتحضر داخله. واصل الاقتراب من الباب وذهنه يتذكر تلك التجربة التي روى لهم عنها استاذ الأحياء في المدرسة الثانوية، تحكي عن عالم قام بتجميع مجموعة من القردة لفترة ثم قدم لهم موزا

وما أن بدأت القردة في التقاط الموز لأكله حتى أحدث العالم جلبة ذات صوت غريب خارج قفصها، فتركت تلك القردة ما بأيديها من موز وذهبت تستكشف وتستطلع مصدر الصوت. كرر العالم تجربته ولكن هذه المرة بحرمان القردة من الجنس بدلا عن الاكل، وما أن خلط أناث القردة بذكورها وبدأوا في التزاوج حتى أحدث تلك الجلبة مجددا، فتركت القردة ما هي فيه من اتصال حميم وهرعت لتستكشف الصوت الغريب. استنتج العالم من تجربتيه أن غريزة الفضول هي أقوى من غريزتي الجوع والشبق معا، وأن استكشاف الغريب لهو أهم للفرد الحي من الأكل والجنس.

هز ياسر رأسه مرتاحا لما وصلت اليه أفكاره المبررة لفعله التطفلي. وصل إلى الباب وأخذ يطالع من شقه الصغير المفتوح. أصبحت الأصوات الآن أكثر وضوحا، والكلمات الخارجة من غرفة ذلك المكتب الداخلي عبر شق الباب تصل إلى أذني ياسر بكامل حروفها...

- آآآه يا سيدتي... أرجوك أكثر
- تريد أكثر ايها (الباطل)؟؟ خذ اذن طااااخ
- آآآه... أنت ملكتي...

ارتجف ياسر عندما سمع صوت الارتطام العنيف، صوت يشبه الرعد، أو صوت تصادم سيارتين، لكنه عرف أنه صوت وقع ضرب أو جلد على لحم حي. المنظر الذي يراه من شق الباب لم يمكنه من التأكد، هو يرى نصف طاولة مكتب وعليها تمتد ذراعان. شاهد أيضاً نصف رأس رجل، شعره قصير ويبدو حديث الحلاقة. "رباه... هل يضرب عماد في مكتبه؟" تساءل ياسر هامسا لنفسه، قبل أن يصيبه الهلع مجددا عندما سمع صوت صعقة جديدة...

- خذ ايها القواد...
- آآآه نعم أنا قواد... اضربيني أكثر من فضلك
- ضربك بالحزام لا يكفي لعقاب مؤخرتك، لا بد أن يصل العقاب إلى أحشائك
- امرك سيدتي... أنا عبدك
- أنت عاهرتي أليس كذلك؟ قل إنك عاهرتي
- أنا عاهرتك يا سيدتي طاااااخ

صوت صعقة جديدة سمعها ياسر، وبعدها سمع آهات لم يستطع تمييز إذا ما كانت تعبر عن الألم أم الاستمتاع. أحس ياسر بقدميه ترجفان من هول ما يرى ويسمع، وكاد

يســـقط عندما ظهرت من شـــق الباب فتاة ترتدي عباءة وتغطي رأسها بطرحة وترتدي حذاءا أصفر ذا كعب عالي. لم يتبين وجهها فقد كانت تعطيه ظهرها عندما اتجهت لركن الغرفة والتقطت حقيبة نسائية صفراء أخرجت منها هاتفا محمولا. وعندما التفتت تبين ملامحها وهي عائدة للرجل المتكئ فاردا ذراعيه على طاولة المكتب. "يا ســاتر أنها زهرة" قالها ياسر لنفسه وهو يبعد عينيه بسرعة عن شق الباب هربا. تساءل هل رأتني؟ هل عليّ الهرب؟ ام هل افتح الباب واقتحم عليهم اجتماعهم الغريب هذا؟

- الآن ســأصــورك بهاتفي يا صــغيرتي وانت تلعق كعب حذائي
- نعم أرجوك فأنا أريد أن اتذوقه
- وبعدها سوف أرسل هذا الكعب العالي إلى أعماقك حتى اؤدب مؤخرتك المنحرفة
- نعم أدبيها بكل وقسوة

اتســعت عينا ياســر وهو يســمع كلمات هذا الحوار الماجن. قرر ألا يهرب وأن يبقى ليتابع. سمع صوت صعقة جديدة وبعدها آهات ثم سمع زهرة تقول

- كان لا بد من ضـرب مؤخرتك (الباطلة) أولا حتى تفتح لي ابوابها
- افتحي ابوابها كما تريدين سيدتي فهي لك
- نعم هي لي... خذ ايها القواد

عندها سـمع ياسـر صـرخة هائلة... كانت معالمها واضـحة هذه المرة، تعبر عن ألم حاد، كصــــرخات أم تلد. بحركة تلقائية مفاجئة دفع ياســـر الباب دون أن يفكر وعندما رأى المنظر أمـامـه أحس أنـه تجمد وأن الزمن توقف وأن كـل شيء حوله تحجر.

رأى عماد صديقه منزلا بنطاله وملابسه الداخلية إلى أسفل قدميه عند حذائه. كان نصفه الأعلى المكسي بقميص قصير الاكمام مسـتلقيا على طاولة المكتب وذراعاه ممدودتان إلى الأمام، وعلى وجهه الناظر إليه ارتسـمت ملامح كثيرة مختلطة، المفاجأة والدهشـــة والهلع والخوف واللذة والالم والاحراج والعار، كل ذلك نطقت به عيناه المخزيتان من خلف نظارته ذات الاطار الأســود، وانفرجت شــفتاه عن بعضــهما كأنهما يضـربان عن الكلام، أما مؤخرته العارية الممدودة في الجهة المقابلة فقد ارتســـمت عليها علامات حمراء كثيرة على شـــكل خطوط طولية، وفي منتصـــف مؤخرته بالضـبط اختفى الكعب العالي للحذاء الأصـفر في

أعماقه، ووقفت زهرة الممسكة بالحذاء في يدها تنظر إلى ياسر بوجه يمزج الخوف والانكسار بالبراءة، وكأنها تقول أنا مظلومة لا ذنب لي في ما يجري، وتحت قدميها ارتمى حزام اسود جلدي لامع، كان بلا شك آلة التعذيب التي استعملت لجلد وصعق مؤخرة عماد.

مضت ثوان بالغة الطول وياسر يتأمل وجلا فيما يراه. خرج ذهنه أخيرا من هذا الثقب الحلزوني عندما استوعب فداحة وخطورة ما جرى ويجري، فالتفت معطيا اياهم ظهره دون أن يتكلم وخرج من المكتب دافعا الباب خلفه ليعيده لوضعه شبه المغلق، وواصل طريقه نحو باب المكتب الرئيسي ليخرج منه وأنفاسه تتصاعد كأنه يركض. وعندما أمسك بمقبضه وهمّ بفتحه سمع صوتا وراءه يقول

- ياسر... لا تخطئ فهمنا

التفت ياسر ليرى عماد واقفا يثبت بنطاله المفتوح الازرار بيديه على وسطه كي لا يقع. نظر إلى صاحبه وأحس بالقرف والشفقة ولم يتكلم. فتح الباب فداهمه الجزع عندما رأى وجه الموظفة ذات التوب الابيض والفستان البرتقالي واقفة أمام الباب بالضبط تبتسم في خبث ومجون...

- هل أعجبك البرنامج؟

قالت عبارتها لياسر بصوت تعمدت أن يكون خليعا. لم يجب ياسر وظل غارقا في دهشته، يحاول دماغه المتعثر أن يعالج ويحلل ما يراه وما يحدث أمامه. ضحكت الموظفة ضحكة هامسة لكنها تتخلع مجونا ودفعت ياسر إلى الأمام بكرتي صدرها الضخم إلى داخل المكتب مجددا ودخلت هي واغلقت الباب من ورائها، ثم قبضت على ذراعه وسحبته نحو المكتب الداخلي وهي تقول

- الآن دورك يا حلوتي

تملك الذعر من ياسر وجعلته المفاجأة مستسلما عاجزا عن المقاومة وهو مسحوب مثل خروف للذبح. نظر إلى عماد الممسك ببنطاله فرأى كيف تحولت ملامح الانكسار والاعتذار التي علته قبل قليل إلى ملامح الخبث والشبق، وفي داخل الغرفة وقفت زهرة التي تبدلت ملامح الخوف والبراءة إلى ملامح المجون والافتراس. دفعت الموظفة ياسر على الطاولة فسقط نصفه الاعلى عليها وقبض عماد على ذراعيه يثبتهما نحو الاسفل كي لا يتمكن من الوقوف مجددا. التقطت المرأة البدينة الحزام من الأرض بينما شدت زهرة بنطال ياسر إلى الأسفل فبقي بملابسه الداخلية. ياسر

الذي كان يتابع ما يجري كمتفرج يتابع فيلما في السينما أدرك في لحظة أنه ليس متفرجا، وإنما هو البطل، أو بالأصح الضحية التي ستغتصبها البطلة. بدأ بالصراخ والفرفرة لكن عماد احكم تثبيته. أنزلت زهرة سرواله الداخلي إلى الاسفل ورفعت الموظفة الحزام إلى الاعلى وهوت به على مؤخرة ياسر وهي تقول

- خذ يا حلوتي...

اتسعت عينا ياسر من الالم وصرخ عاليا

- لاااا...

ثم قام من نومه جالسا على سريره وقلبه يتسارع بالنبض وعرقه يتقطر على جبينه، وأخذ يطالع في الغرفة المظلمة والفزع يملأه. تنهد ثم قال

- الحمد لله... كأن مجرد حلم

أخذ ياسر يطرطش المياه على وجهه بقوة وسرعة واسراف، لا ليطرد عنه النوم الذي لم تعد بأجفانه منه بقية ولكن ليطرد عن خياله بقية آثار الحلم المزعج الذي لا يزال ملتصقا بذاكرته .

عاد واستلقى على سريره الذي لا يزال رطبا من عرقه، نظر في ساعة هاتفه الجوال، إنها تقترب من الرابعة صباحا. حدق قليلا في ظلام الغرفة واشتغل رأسه بالتفكير. رغم أنه لا يلقي بالا للأحلام ولا الرؤى أو الكوابيس عادة الا أن هذا الحلم أقلقه، فإذا كانت الأحلام انعكاسات لعقولنا الباطنة ورغباتها ورهباتها فما الذي يمكن أن يعكسه حلم كهذا عن نفسه يا ترى؟ أهي مجرد خطرفات وليس عليه أن يجهد نفسه في إيجاد أي نسق أو تأويل أو معنى لها؟ لم تكن الكوابيس أبدا غريبة عنه في السنوات الأخيرة غير أنها كلها كانت تدور حول سارة ورعبه من فقدانها وفراقها وغيابها. تعلم أن يتعايش مع تلك الكوابيس وأن يتجاهلها، لكن لسبب ما لا يستطيع أن يتجاهل هذا الكابوس بنفس الطريقة، فما الذي أحضر عماد وصاحبته زهرة إلى أحلامه بهذه الطريقة الجنسية المرعبة؟؟ أحداث الحلم وأشخاصه وتفاصيله وما انتهى إليه تسيطر على تفكيره وفي نفس الوقت لا يجد لكل ذلك منطقا ولا تفسيرا، وعملية

تفكير عقله المســـتمرة في هذا الهراء غير مجدية ومرهقة جدا، كأنها نطح في الصخر.

استوى من السرير واقفا بحركة عصبية سريعة، أخذ يسير في الغرفة المظلمة جيئة وذهابا بين جدارين ويداه مشتبكتان خلف ظهره ورأســـه مطأطأ إلى الأرض ولســـانه وعقله يرددان جملة وأحدة: ماذا افعل الآن؟ ماذا افعل الآن؟ ماذا افعل الآن؟

توقف فجأة عن حركته البندولية ثابتا في وسط الغرفة. رفع رأسه ببطء نحو السقف وابتسم وعقله يهتف "وجدتها"

اضاء ياسر المصباح ثم تحرك نحو شماعة ملابسه وارتدى قميصـــه وبنطاله، تناول مفتاح ســـيارته ومحفظة نقوده وهاتفه النقال وادخل قدميه في حذاءه واتجه إلى عربته وخرج من المنزل. قاد سيارته في الشوارع الخالية المظلمة حتى وصل إلى صينية الأزهري القريبة من بيتهم ثم اتجه بعدها جنوبا لمسافة ليست بالبعيدة حتى وصل لمستشفى الولادة المركزي بأمدرمان كما تســـميها لافتتها الحكومية الرســـمية، أو مســـتشـــفى الدايات كما يســـميها باقي اهل الأرض. أوقف ســـيارته ونزل يمشـــي على قدميه باتجاه بوابتها الرئيســـية، وكلما اقترب خطوة منها كلما زادت

الاضـواء المشـعة والبشـر العابرون وكلما وجد الحياة تدب حوله أكثر، ولما وصـــل إلى البوابة ابتســـم وهو يتأمل هذا السـوق الحي المضـيء المزدحم بالبشـر. لقد كأن على حق وأحسـن بالقدوم إلى هنا، فهذا المكان هو دائما بهذه الحيوية لا فرق في ذلـك بين الســـاعـة الرابعـة فجرا أو الرابعـة عصرا، فشكرا لهذه الأجنة البشرية الوقحة التي تخرج من غيب أرحامها لهذا العالم البائس وقتما أرادت مجبرة باقي البشر على الاستعداد لاستقبالها على مدار الساعة .

-36-

اتخذ ياســر مقعده بجوار إحدى ســتات الشـــاي المتواجدات بكثافة حول مدخل المســـتشـــفى وهو يحمد الله على نعمة وجودهن، فهؤلاء النســوة المكافحات المنتشـــرات على قارعة الطريق في شـــتى أنحاء الســـودان يقدمن خدماتهن على مدار الســـاعة، وأكثر من يســـتفيد من تلك الخدمة العاطلون وجدانيا من أمثاله. بالنســبة لياســر فإن احتســاء الشـــاي أو القهوة على جانب طريق عام فوق كرســـي بلاستيكي تعيس ومتهالك بجوار موقد فحم بدائي لست شاي ووسط أكمام التلوث البيئي والبصـري والبشـري لهو يفوق في متعته احتســاء الكابيتشـينو في مقهى سـتاربكس وأمثاله

من المقاهي المعولمة المعلبة التي تسرق الاصالة من عملية احتساء القهوة برمتها.

وضعت ست الشاي أمامه ابريق ماء وكوبا ووقفت تنظر اليه تسأل بعينيها عن طلبه. سألها ياسر

- هل لديكم لبن بودرة؟
- نعم لدينا
- اذن شاي بلبن بودرة وصحن زلابية صغير
- سمح

انصرفت ست الشاي نحو موقد فحمها وشرعت في إعداد ما طلبه ياسر الذي بدوره انشغل في تأمل المشهد من حوله، فأمام بوابة المستشفى يتواجد عدد كبير من النساء الجالسات على الرصيف وبعضهن راقدات ويبدو عليهن جميعا القلق والترقب وارهاق الانتظار، لا بد أن بناتهن واخواتهن وقريباتهن بداخل المستشفى الآن يمارسن المرحلة الاخيرة من مراحل التكاثر الجنسي البشري، في حين اتخذ الرجال مقاعدهم حول ستات الشاي مثله أو كانوا جالسين في سياراتهم المنتشرة كالذباب حول مدخل المستشفى، الكثير منهم كان نائما، ومن لم يغلبه النوم كان يبدو عليه الإرهاق والضجر والتطلع لمغادرة هذا المكان.

ستات الشاي فقط بالإضافة لأصحاب المطاعم والبقالات كانوا وحدهم السعداء والنشيطين في هذه البقعة من الأرض، وحق لهم ذلك، فكل جنين خارج من بطن أمه يأتي بأهله إلى هذا المكان يعني زيادة في اموالهم وازدهارا في اعمالهم التي لا تتوقف ليلا أو نهارا أو حتى فجرا، ويشاركهم في سعادة مؤقتة بين الفينة والأخرى بعض من النساء والرجال ممن تأتيهم الأخبار من داخل المستشفى مبشرة بخروج الطفل الذي ينتظرونه في هذا الوقت الغير المناسب من ظلمة الرحم الي ظلمة عالمهم المتواضع.

أخرج ياسر هاتفه المحمول وأخذ يعبث فيه بينما ينتظر احضار طلبه. لا يزعجه الكابوس الذي رآه بنفس القدر الآن، فحركة الكائنات البشرية حول بوابة المستشفى منحت دواخله القلقة شيئا من السكينة، لكن بقايا خلايا عصبية في دماغه تلح عليه ليجد تفسيرا أو تأويلا أو تطمينا لذلك الذي رآه في الحلم. فتح برنامج المراسلة في هاتفه وبحث عن عماد لكنه لم يجده متصلا، ولا عجب في ذلك، فالوقت مبكر جدا ولا شك أنه يغط في النوم، ثم ماذا كان سيكتب له على كل حال ومن أين يمكن أن يبتدأ معه موضوعا كهذا؟! "صباح الخير يا عماد... لقد حلمت بك الليلة وزهرة تنتهك مؤخرتك بكعب حذائها الأصفر... هل ممكن أن أجد لديك تفسيرا ما لذلك"؟! طبعا لا! إنها فكرة سخيفة" قال ياسر

لنفســـه وأغلق برامج المراســلة، ووضــع هاتفه على فخذه بضجر وعاد ينظر إلى ست الشاي وكأنه يستعجل احضار طلبه.

فجأة، اهتز هاتفه النقال فوق فخذه، وأطلق صـوت اسـتقبال رسالة. أمسك به بسرعة مجددا ليعرف من تراه يرسل اليه في هذه الساعة. ازدادت دهشته عندما رأى رسالة من ليلى

- اراك قد اســـتيقظت مبكرا اليوم... أم تراك لم تنم؟ في أي من الحالتين صباح الخير

ابتسم ياسر وهو يقرأ الرسالة، واشرقت نفسه بالسعادة. منذ حصــــل على رقمها وهو يتمنى مراســـلتها، لكنه لم يملك الجرأة أو الطــاقــة للمبــادرة. هو يســـتلطف ليلى جـدا، ويســـتلطف مبادراتها أكثر، فكما بادرته بإعطاء رقمها ها هي الآن تبادره بالرســـالة الأولى التي لم تكن لتبدر منه الا بمعجزة، رغم أن الفتيات الجميلات مثلها لا يبادرن عادة بأي شــــيء، وإنما يتكئن على جمالهن وينتظرن في تعالي مبادرات من كل نوع تأتيهن بالمجان من جحافل الذكور الوالهين، لكن شـــيئا ما في ليلى يجعلها مقدمة عليه وهو يحب ذلك جدا، ينفخ في كبريائه الذكوري ويجعله يحس بعلو قيمتــه المنحطــة. يبـدو أن الكون المتـآمر لا يزال

يســاعده، فكما أحضــر له رقمها دون جهد منه ها هو الآن يفتتح جسرا للوصال مع ليلى عجز هو عن افتتاحه.

- صـــباح الخير ليلى... لا، الحقيقة أني اســـتيقظت مبكرا ولم استطع العودة إلى النوم
- آسفة لسماع ذلك
- لا عليك... ولماذا أنت مســتيقظة مبكرا هكذا مثلي؟ أم تراك لم تنامي؟
- هذه مواعيد اســتيقاظي العادية. اصــحى قبل الفجر بساعة أو أقل لأقرأ أورادي وأذكاري
- ما شاء الله
- هل تقرأ أورادا أنت أيضاً
- الحقيقة لا فلا اؤمن بذلك. اعتبرها من قبيل الشعوذة
- اســتغفر الله... اســتغرب أنك تقول ذلك بينما كنت تتجلى بالذكر يوم الجمعة في النوبة في حمد النيل
- اعتقد أن الامرين منفصـــلين ولكن شـــرح ذلك يصعب عبر هذه الرسائل
- اذن لابد أن تشرح لي إذا التقينا في البنك مجددا
- حاضر
- وماذا تفعل الآن إذا كنت لا تقرأ وردك وأذكارك؟ هل أنت مستلقي في سريرك تنتظر الصباح؟

- الحقيقة أني في انتظار ست الشاي أن تحضر لي كوب الشاي وصحن الزلابية
- يا سلااااااام... شاي مع نسائم الفجر... كم أنت محظوظ
- إذا كنتي ترغبين فبإمكانك القدوم لمشاركتي
- حقا؟ هل أنت في شارع النيل؟
- لا، في الحقيقة أنا في مستشفى الدايات
- الدايات؟ هل أنت جاد؟
- اجل
- هل أنت برفقة أحد ما؟ هل امرأة تعرفها على وشك الوضوع؟
- لا أنا لوحدي
- هههه... أنت فريد من نوعك
- أعرف ذلك
- اقترح عليك أن تذهب إلى شارع النيل، فنسائم النيل الفجرية هي من ريح الجنة
- هل تذهبين معي؟
- أود ذلك لكن لا يمكنني الخروج من البيت قبل السادسة
- لا يهم سأكون في انتظارك
- جميل اذن ألقاك قرب المستشفى الكبير بحي بري فبيتنا ليس بعيدا من هناك

- حسنا... الساعة السادسة؟
- الساعة السادسة
- اتفقنا

-37-

ألقى ياسر بقطعة زلابية في أغوار فمه وأتبعها برشفة من الشاي بلبن البودرة وهو يشعر بشعور غريب ولطيف، خليط من الإثارة والترقب. منذ وقت طويل منذ لم يشعر بمثل هذا الحماس للقاء شخص ما، لكن شيئا في ليلى يجعله يشعر بذلك الآن، لا يعرف ماهية هذا الشيء لكنه يحس بتأثيره الذي يجذبه بعنف نحو هذه الفتاة .

ابتلع الزلابية المختلطة في فمه بالشاي ثم ابتسم وهو يفكر في هذه الطاقة الغامضة التي تجذبها نحو ليلى، أتراها تكون تلك الطاقة المعتمة التي حيرت علماء الكونيات، فهي أيضا طاقة غامضة اعجزت الباحثين عن فهم كنهها، لا نعرف شيئا عنها سوى تأثيرها الهائل، فهي تدفع المجرات بعيدا عن بعضها في فسحات الكون الواسع بصورة متسارعة. طاقة مجهولة لا نعرف طبيعتها ولا ماهيتها، لكن تأثيرها كبير، تجذب وتسحب وتدفع، وهي تشكل

سبعين في المائة من طاقة الكون، وتشكل قرينتها المادة المعتمة التي تمنع انفلات النجوم عن مجراتها ربع حصة الكون، بينما كل المادة والطاقة التي اكتشفناها ونعرفها، وكل النجوم والمجرات والثقوب السوداء وكوكب الأرض ومليارات البشر التعساء الذين مشوا عليه... كل ذلك لا يتجاوز خمسة بالمائة من مادة وطاقة الكون. كم هي مرعبة هذه الحقيقة، مزعجة وعابثة...

ارتشف رشفة أخرى من كوبه، ملأ طعم لبن البودرة براعم لسانه الذوقية فحمد الله على نعمته. عندما يكون ياسر في السودان فإنه يتجنب تماما شرب اللبن الطازج، فللبن في هذا البلاد طعم غريب ينفره ولا يستسيغه، برغم أنه يعجب جدا غالبية الناس لكن ياسر يشعر أن شيئا ما آخر من البقرة يختلط بلبنها ليصبغه بهذه النكهة التي يمقتها، هل هو عرق البقرة مثلا؟ أم افرازات غدد شعرها الدهنية؟ في كل الاحوال هو ترك شرب الحليب الطازج منذ كان طفلا، وعندما كان في أمريكا كان يشرب الحليب النباتي، مثل حليب الصويا وحليب اللوز وحليب الشوفان. زميله الامريكي كان دائما يقول أن الإنسان هو الحيوان الثدي الوحيد الذي يشرب الحليب بعد أن ينفطم .

تناول قطعة الزلابية الأخيرة من صحنها وأفرغ ما تبقى من كوبه في جوفه. حمد الله ثانية على نعمة لبن البودرة، وطالع في ساعة هاتفه، إنها الخامسة والنصف وحان الآن موعد التوجه إلى الخرطوم لعقد هذا اللقاء الذي لم يكن على البال بليلى. نقد ست الشاي ثمن ما أكله وشربه وتوجه بعد ذلك إلى سيارته. التفت مرة أخيرة إلى بوابة مستشفى الولادة حينما سمع بعض النساء يزغردن ويتعانقن، لا بد أن مولودا صرخ صرخته الأولى الآن مع طلوع شمس هذا اليوم الجديد. امتطى سيارته ونظر في مرآتها للنسوة اللواتي بدأن في تقديم الحلوى لنظيراتهن المتحلقات حول باب المستشفى، ينتظرن بدورهن الأخبار السعيدة من الداخل. ابتسم ياسر نصف ابتسامة وتمتم لنفسه "مرحبا بك إلى الجحيم" وانطلق نحو الخرطوم .

-38-

وصل ياسر سريعا إلى المستشفى الكبير في بري، فالكوبري كان خاويا وحركة المركبات خفيفة في شارع النيل وسكان العاصمة المزعجون لم يستيقظوا بعد. توقف عند سور المستشفى الكبير ونظر في ساعة السيارة، إنها تشير للسادسة إلا عشر دقائق. أخرج هاتفه وأرسل إلى

ليلى أنه وصل وفي انتظارها. جاءه ردها سريعا ومقتضبا "دقائق...".

شغل ياسر نفسه بالتأمل في المستشفى، إنها كبيرة وحديثة وتدعو للإعجاب، شتان ما بينها وبين مستشفى الدايات، ولكن لا عجب فهي مستشفى خاص يعالج فقط علية القوم ومن يقدر على تحمل تكاليفها الباهظة، كما يعالج أيضاً قلة من المحظوظين ممن تسمح لهم تأميناتهم الطبية الخاصة بالعلاج فيها .

أخذ ياسر يسترجع حوارات كثيرة خاضها في أمريكا حول الرعاية الصحية، ففي تلك البلاد وعلى عكس غالبية نظيراتها من دول العالم الأول لا يوجد تأمين صحي وطني شامل يغطي كل المواطنين، وإنما هناك مئات الأصناف والأشكال من التأمينات الطبية الاختيارية التي يشترك فيها طالب الخدمة والتي تكون مرتبطة ارتباطا مباشرا بالعمل ونوعه، والخدمات الطبية والصحية وتكلفتها تعتمد على نوعية التأمين الذي يحمله صاحبه، والذي يفقد عمله يمكن أن يفقد تأمينه وينتهي به المطاف لدفع اموال باهظة لقاء أبسط الخدمات الطبية كما حدث مع جاره الذي اضطر لبيع سيارته ليسدد فاتورة سيارة إسعاف جاءت لتنقله للمستشفى .

يقول المتحكمون في الأمر في أمريكا أن الرعاية الصــحية هي امتياز وليسـت حقا، هي امتياز لمن يسـتطيع دفع المال وتحمل تكاليفها، وليست حقا أصيلا لكل المواطنين الفقراء منهم والأغنياء كما هو الحال في جارة أمريكا الشمالية كندا مثلا. لديهم في الولايات المتحدة تفسـير سـلفي للرأسـمالية، يحرم أن تدفع أموال الضـــرائب المأخوذة من كل الناس لتعالج كل الناس، كما هو الحال في اغلب الدول المتقدمة. هل نحن ســائرون في الســودان على نفس هذا الطريق؟ لا تزال المسـتشـفيات الحكومية هنا شـبه مجانية، ولكنها بالكاد تقدم اي خدمة تذكر، فعلى المريض أن يشــتري كل شـــيء من جيبه حتى الحقن التي يطعن بها الدواء في وريده .

رن هاتفه لينتشله من أفكاره، أنها ليلى تتصل

- نعم يا ياسر... أين أنت؟
- أنا أقف بجوار البوابة الجنوبية للمستشفى
- ليس معي بوصــلة يا ياســر لأحدد أين الجنوب. أنا واقفة هنا بجوار كشــك مكتوب على يافطته (مكتبة العافية)

أخذ ياسر يتلفت حوله بحثا عن هذا الكشك وشفتاه تقاومان الابتسام، فاسم العافية الذي اختاره صاحب الكشك لمكتبته يبدو فكاهيا ومحاولة رخيصة لبيع جرائده لمرتادي المستشفى من طالبي العافية.

- وجدته. سأدور وأعود إليه
- ما هو نوع سيارتك؟
- اكسنت بيضاء، سترينها بعد قليل
- حسنا
- أظن أني اراك الآن في هذا الفستان الأزرق
- هذا ليس فستانا لو سمحت، اسمه تونيك

أوقف سيارته بجوارها. فتحت الباب وزلفت إلى داخلها جالسة واغلقت الباب والتفتت نحوه، وعندما التقت عيناهما بادرها بالقول

- حاضر اسمه تونيك
- نعم وهو يختلف عن الفستان
- وهو جميل جدا اليوم

قالها ياسر مبتسما وهو يحس أنه يطفو فوق بحيرة متماهية من السعادة، فهو برفقة أكثر شخص في هذه البلاد يود أن

يكون معه .

- هيا تحرك بنا يا ياسر... يمينا ثم يسارا نحو شارع النيل
- اعرف أين هو النيل يا ليلى، إنه في اتجاه الشرق
- هل لديك بوصلة؟
- لا، ولكن لدي تلك النجمة

واشار بإصبعه إلى الشمس...

-39-

اتخذ ياسر وليلى مقعدهما على ضفة النيل تحت شجرة النيم الكبيرة، وسرعان ما أحضر لهم الولد الصغير الذي يعمل مساعدا لست الشاي ابريقا من الماء وكوبا ووضعهم على الطاولة أمامها. التفت ياسر للوراء يطالع المرأة المشغولة بتحضير المشروبات بجوار موقد الفحم البدائي الذي تستقر عليه مواعين المياه الساخنة. عاد من التفاتته ونظر إلى الصبي وسأله

- أين فتحية؟

- فتحية تأتي هنا عند الظهر
- حسنا... أنا أريد قهوة بالحبهان بدون سكر، والاستاذة ستشرب...

نظر ياسر إلى ليلى يسألها أن تكمل جملته بطلبها. كان لمعان أشعة الشمس على سطح مياه النيل الجارية ينعكس على عينيها العسليتين فيجعلانها تشع نجوما كأنها أميرة خيالية من أميرات ديزني. انجرف ياسر في اللحظة وأخذ يسكب كل جوارحه في تأمل هذا المنظر. نسي القهوة والشاي وست الشاي والصبي وبقي فقط يطارد النجوم المنبثقة من عيني ليلى. في النهاية أيقظه صوتها وهي تناديه

- ياسر
- نعم
- أين كنت؟
- كنت في الفضاء أركض خلف النجوم
- ههههه

التفت حوله يبحث عن الصبي فلم يجده. عاد بعينيه إليها وسألها

- هل طلبتي؟
- نعم، شاي بلبن البودرة وزلابية
- حقا؟ متى حدث ذلك؟
- عندما كنت فوق في الفضاء

توقفا عن الحديث وأرســـلا عيناهما نحو النيل، وبعد برهة صمت قال ياسر

- لا أحد ينزل إلى نفس النهر مرتين
- ماذا؟
- تلك هي عبارة هيرقليطس الشهيرة
- عبارة من؟
- هيرقليطس، أحد فلاسفة اليونان القدامى، كان يقول أن التغير هو جوهر أســاســي في الوجود، وعبارته تشـير إلى ذلك، فإن المياه التي ستجري على قدمك إن ادخلتها في النهر الآن لن تكون أبدا نفس المياه التي ســتجري عليها في أي مرة قادمة، فكل شـــيء في حركة دائمة وتغير مستمر ولا يبقى شـيء على حاله
- حسنا فهمت

عادا يتأملان في النهر بصـــمت. كما أخبر من قبل مؤيد في نفس هذا المكان، أراد ياســـر أن يخبرها بأنها لا يجيد (الونســـة)، تبادل الكلام العام الذي يفعله البشـــر، الحديث العادي في شـــؤون الحياة المختلفة، لا يعرف أن يبتدأ ذلك ولا يعرف كيف يجاريه، هي موهبة اجتماعية ســـلها منه قدره، بيد أن بإمكانه أن يحدثها عن هريقليطس طوال اليوم. لم يحتج ياســـر لقول كل ذلك لأنه عندما وقعت عينيه على ملابســها تذكر شــيئا يمكن أن يبدأ به حوارا ويكســر قتامة الصمت المتوترة...

- اذن فهذا هو التونيك؟
- أجل، إنه يشــبه الفســتان القصــير الذي يصــل إلى تحت الركبة بقليل، ويرتدى مع بنطال من تحته
- حسنا... منكم نستفيد
- ألم ترتديه زوجتك من قبل؟

باغته سؤالها. ابتلع ريقه وقال بصوت مغصوص

- الحقيقة أني لا اتذكر
- هل هذا معقول؟
- هل يمكن أن نغير الموضوع رجاءا؟

قالها ياسر وهو يشيح بوجهه عنها نحو النيل مجددا، وقد أصابه ذكر سارة بالتوتر، وملأ دواخله بالحزن الذي يتنافر مع سعادته الغامرة بهذه الجلسة مع ليلى، لكنه فعلا لا يتذكر، عشرة سنوات كاملة مع سارة ولا يحضره الآن شيء من لباسها، عدا بزتها الرسمية التي تذهب بها إلى عملها. لعل اكتئابه وصدمته في زواجه الفاشل قد خلق ثقبا أسودا ضخما في ذاكرته ابتلع كل ذكرياته السعيدة مع سارة.

فجأة، أحس بحركة على يده الساكنة في حجره، نظر إليها فوجد يد ليلى تمسك بها وتقبض عليها. غمرته الدهشة من صنيعها وعصفت به أحاسيس متناقضة تجمع بين الانقباض والانبساط والانشداد والارتخاء والمقاومة والاستسلام والخوف والطمأنينة، ذهبت كل تلك الأحاسيس ولم يبق غير الطمأنينة عندما رفع عينيه إلى وجه ليلى التي قالت له بود

- أنا آسفة يا ياسر

-40-

أحضر الصبي الشاي والزلابية والقهوة ووضعهم أمامهم على الطاولة. استرخى ياسر في جلسته وأصبحت أنفاسه بطيئة وعميقة وهو يذوب في الشعور الجميل الذي خلقه لديه ملمس كف ليلى الناعم يسيل على اصابعه .

- أنا آسفة مرة اخرى يا ياسر...
- لا عليك يا ليلى
- لم أكن أعرف أن ذكرها يسبب لك كل هذا الضيق
- ذكرها لا يضايقني، فقد كانت لفترة طويلة زهرة حياتي وشعلة دنياي. ما يضايقني هو فشلي، وفشل مشروعي معها
- ألم تحاولوا رتق العلاقة وإصلاح ما يمكن إصلاحه؟

أخذ ياسر نفسا عميقا ثم اجابها بصوت متهدج وبكلمات تخرج ببطء وصعوبة من فمه

- كم يصعب الرد عن هذا السؤال على بساطته. أنا كنت عاجزا عن المحاولة أصلا لأني كنت أهوي في قاع اكتئاب عميق، كنت لا استطيع المبادرة بالكلام ولا الأفعال، فاقدا للطاقة والقدرة والإرادة، رأسي يعصف بالأفكار السوداء السلبية

والانتحارية، ويغمرني إحساس عظيم بالذنب تجاه كل شيء، يزيدني حزنا على حزن، وغما على غم. الشيء الوحيد الذي كنت قادرا على فعله هو المكوث في الفراش بالأيام والشهور منكفئا على دواخلي الباكية

سالت دمعة من عين ياسر اليمنى، وسلكت طريقها بجوار أنفه، حتى استقرت في شعيرات شاربه. شدت ليلى قبضتها أكثر على يد ياسر وعيناها هي كذلك تترقرقان بدمع يكاد أن ينهمر

- أعرف تماما ما تتحدث عنه يا ياسر، فأنا أيضاً مصابة بالاكتئاب

التفت رأس ياسر نحوها بسرعة ونظر في عينيها. أحس بأن رباطا جديدا يربطه مع هذه الفتاة ويشده أكثر نحوها، هل تكون أيضا زميلة مرض؟ مرض لا يفهمه حقيقة إلا من عاشه .

- أحقا ما تقولين؟
- أجل، فأنا اتعالج منه منذ أكثر من خمسة أعوام

نظر ياسر إلى هيئتها متفحصا، هو يريد أن يصدقها، فلا شيء يخفف البلاء مثل تشارك المبتلين لتجاربهم، لكن شيئا ما يدفعه للتشكك

- ولكن هذا التونيك الجميل الذي يزينك... هذا الروج الفاتن على شفتيك... هذه الحيوية التي تشع منك... كل هذا يتناقض مع الاكتئاب

افلتت ليلى قبضة يدها اليمنى عن كف ياسر، واستعملتها لتكشف كم قميصها عن معصم يدها اليسرى، ثم وضعتها في حجر ياسر. أخذ ياسر ينظر بفزع للندبة الكبيرة التي تمتد عرضيا في أدنى ذراع ليلى فوق مفصل معصمها. هو يعرف ما تعنيه هذه الندبة. لقد حاولت اذن ليلى الانتحار من قبل بإسالة الدماء من شرايين يدها! انتقلت نظراته الفزعة من معصم ليلى إلى وجهها...

- إني أحاول يا ياسر... ملابسي وزينتي وحتى تدريبي في البنك هي محاولة مني للحياة
- كم أنت قوية يا ليلى

أمسك ياسر بمعصم ليلى الايسر، رفعه إلى شفتيه، ولثمه بقبلة طويلة وعميقة ثم أعاده مستقرا إلى حجره. لا يعرف

كيف واتته الجرأة لفعل ذلك. نظر إليها مستكشفا ردة فعلها على ما اقترفه وليبادرها بالاعتذار إن كان لم يعجبها صنيعه، ولكنه وجدها مبتسمة في رضا، فغمره شلال من الراحة والسعادة، وأرسل يده إلى يدها اليمنى لتقبض عليها ولتتشابك اصابعهما من جديد كما كانت عليه قبل قليل

- أرجوك لا تتركي يدي ثانية وحدها
- حاضر يا ياسر
- أنا أيضاً يا ليلى كنت على شفا الانتحار. لشهور طويلة تملكتني فكرة الإقدام عليه، لكن لم يكن لدي طاقة لتنفيذه، كما كانت في داخلي ذرات من الرجاء تدعوني للصمود أملا في أن اتحسن يوما ما. وفي يوم أغبر ككل أيام الاكتئاب الغبراء كنت راقدا على فراشي، مضى عليّ ساعتها يومين لم أكن قد تحركت خلالهما منه شبرا، ولم يطل علي من زوجتي وأطفالي أحد، كانوا متجمعين في غرفة المعيشة وتاركين اياي في ظلمة غرفتي وظلمة وحدتي وظلمة كآبتي، أسمع كلامهم وضحكاتهم تأتي من بعيد فأحزن لحالي ولعجزي عن مشاركتهم. كنت مشلولا غير قادر على الحركة لا بفعل تلف الاعصاب ولكن بفعل تلف الروح. في تلك اللحظة اقتنعت أنه لا جدوى من بقائي على

هذا الكوكب، وأن زوجتي وأطفالي سيكونون أكثر سعادة وراحة إذا تركت لهم الدنيا، فهذا أقل ما يمكن أن أقدمه لهم بعد التعاسة التي جلبتها لهم باكتئابي.

صمت قليلا ، أغمض عينيه، أخذ نفسا طويلا ملأ به رئتيه ثم اطلقه متنهدا، بعدها فتح عينيه متغلبا على الألم الذي جلبه له استحضار الذكرى الموجعة وواصل

- كان لدي بقايا من حبوب مورفين صرفها لي الطبيب قبل سنوات طويلة لعلاج آلام الظهر، وكنت ابتلع بين الفينة والأخرى حبة منها لتخدر قليلا من ألم روحي، لكن ما أن يزول بسرعة مفعولها حتى يعاودني الاكتئاب بسطوة أقسى ووجع أكبر. قررت ساعتها أن ابتلع عشرة من تلك الحبوب، مرة واحدة، وهي جرعة ستكون قاتلة إن صح ما قرأته في الانترنت عنها. وأخيرا وبعد شهور طويلة من التفكير في الانتحار جاءت أحيرا لحظة التنفيذ. بدأت اتزحزح عن سريري لأقوم وأحضر شريط الدواء، استغرقت بعض الوقت لأتمكن من القيام، لأن الإنسان حين يكون راقدا ليومين كاملين فإن العضلات تستطيل والمفاصل

ترتخي. وما أن قمت وهممت بالســـير نحو خزانة الدواء حتى جاءت ابنتي الكبرى سمية ذات الاعوام التسع ودخلت الغرفة، يبدو أن صـرصـرة السـرير الســـاكن قد نبهتها لحركة والدها المتجمد، أو لعل السـماء قررت فجأة إرســالها إلي في تلك اللحظة. حين رأتني واقفا ركضـــت علي واحتضـــنتني صـــارخة "بابا... كم اشـــتقت اليك..."، صـــعقتني المفـاجـأة، فكـأنني ارى ابنتي لأول مرة، وكـأنني اسـمع كلمة بابا لأول مرة، أما كلمة "اشـتقت إليك" فقد جعلتني أنهمك في بكاء عميق والدموع تنهمر شـلالات من عيني، وأنا احتضـن صـغيرتي سـمية بقوة، ولا أريد أن أفلتها. قالت لي ســـمية وهي لا تزال ماكثة في حضـني "الم تصـبح أحسـن بعد يا بابا؟"، أدركت ســـاعتها أن الانتحار لم يعد خيارا لي، قلت بصـوت باك "عما قريب يا سـمية... عما قريب"

كانت الدموع تســيل من عيني ياســر وهو يروي حكايته. نظر إلى ليلى فرأى وجهها يقطر دمعا هي كذلك، وقد تســاقط ماؤها على التونيك الأزرق خالقا بقعة كبيرة من الماء. شـــدت على يده فشـــد هو يده أكثر، بل ووضـــع يده الثانية على يديهما المتشابكتين. قال

- هل تصــدقين يا ليلى أن عيني لم تدمع من ســاعتها إلا معك الآن؟ كم أنـا ســـعيد بهذه الدموع، فهي علامة حياة، تفاعل مع إحســـاس حي. عندما أكون غـارقـا في حزني وحيدا تنهمر دواخلي بـالـدموع، لكن عيني الميتتين تظلان جافتين. شـــيء ســحري فيك يا ليلى يمدني بالحياة، ويمد أعيني بالدمع. أشكرك جدا على هذه الدموع

ابتســـمت ليلى وربتت على كتفه بحنـان، ثم نظرت إلى الطاولة التي أمامهما وقالت

- لقد بردت قهوتك يا ياسر

-41-

شــرب ياســر قهوته الباردة دون أن يفلت يد ليلى من يديه، يحس أنه يتمســـك بالحياة، يشـــعر بالأمان والجمال، وبأن الروح تسري في أوصاله اليابسة. قالت له وهي ترفع كوب الشاي نحو ثغرها الجذاب

- هل تعلم يا ياســـر أنني لم اجلس جلســـة كهذه مع رجل لوحدي من قبل؟
- لا، لا أعلم
- ولم امسك يد رجل من قبل؟

نظر ياســر إلى يدها الناعمة تســتســلم في وداعة لســطوة أصـــابعه، وشـــد من قوة قبضـــته عليها، ثم رفعها إلى فمه ومنحها قبلة ســـريعة وأعاد الأيادي المتشـــابكة إلى مكانها فوق فخذه ثم قال

- لا، لا أعلم
- لم يدر بخلدي أن أمارس هذه الاشياء قبل أن أتزوج
- هذه الاشياء قلما يمارسها المتزوجين يا عزيزتي
- ماذا تقول؟
- أجل، فجلســـــة حالمة مثل هذه مع أياد متعانقة لا يمارســـها المتزوجون إلا ربما في شـــهر العســـل، وربما مرة كل عام في ذكرى الزواج
- لا أصـــدق ذلك! إذا تزوجت فســـأمســـك بيد زوجي طوال الوقت، وســـأنيمه في حضـــني طوال الوقت، وسأخلق له جوا رومانسيا طوال الوقت

مط ياسر شفتيه استهجانا ثم قال

- هذه أوهام العازبين المتطلعين للزواج
- لا يا ياســـر، هذا يقرره الزوجان، فهما الذين باستطاعتهما الحفاظ على شموع الرومانسية متقدة، خاصة إن تزوجا عن حب
- الجلسات الرومانسية وتشابك الأيدي والذوبان في الآخر هو فعل المتحابين، وهذا الحب الرومانســـي المتوهج يخبو ويذبل بعد الزواج. وقود طاقة الحب الســـحرية هو الشـــوق واللوعة التي يخلقها تباعد الأحبة، ومثل هذا الوقود ينفد لدى شخصين ينامان على نفس الفراش لسنين
- لا أظن ذلك، فبإمكان الزوجين دائما التجديد والتنويع والابتكار لبث طاقات جديدة في شـــعلة حبهم
- تفكيرك مثالي جدا يا عزيزتي. أتفهم حماســـك الشـــديد للدفاع عن فكرتك، لكنها ببســـاطة غير واقعية، هي أحلام وأوهام الذين لم يتزوجوا بعد مثلك، المتشـــبعين بالروايات الخيالية عن الزواج السعيد
- وما الواقعي اذن يا عزيزي الواقعي؟
- الواقعي أن الزواج مقبرة الحب، لأن الحب إثارة والزواج ملل، الحب جموح والزواج اســـتقرار،

الحــب مجنون والزواج عــاقـل، يمكنـك اختيــار أحدهما فقط أما الجمع بينهما فمستحيل، وصدق من قـال "هكـذا قصـــص الحـب دائمًـا تنتهي نهـايـة مؤسفة... إما الفراق وإما الزواج"

- لا أريد أن أصدقك
- أعذرك في ذلك، فما أقوله يشـكك في كل القيم التي تشـــربتيها منذ طفولتك. أنت كفتاة في هذا المجتمع الذكوري البدائي وظيفتك الأســـاســـية هي توفير الجنس والتكاثر. عندما كنت طفلة تكبرين لابد أنك سـمعتي كثيرا ممن هم حولك هذه العبارة "ما شــاء الله كبرت وأصبحت عروسة"، ذلك لأن (عروسة) هذه هي المصـير الذي ينتظرك، والذي رسـمه لك المجتمع، وفي كل عيد لا بد أنك تسـمعين" السـنة القـادمـة في بيتـك مع أولادك"، أو "العيـد القـادم عروسا تكونين أن شاء الله"، لن تجدي أحدا يتمنى أن تكوني وزيرة مثلا في السنة القادمة، أو أن تبني لك بيتا، أو أن تجدي علاجا للسرطان، لأن المجتمع ببساطة لا يتوقع أن تقومي بهذه الأشياء ولا يترقبها منك، هو ينتظر ببسـاطة أن تلعبي الدور الذي كتبه لك بأن تصـــبحي حرم الســـيد فلان، مهبلا على ســـريره، ورحما لبذوره، وثديا لعجوله. نعم يمكنك أثناء ذلك أن تعملي مديرة في البنك، أو جراحة في

المستشفى، لكن مهمتك الأساسية التي لا يجب أن تنسيها تبقى هي الاتصال والتكاثر الجنسي

ضحكت ليلى عاليا على كلمتيه الاخيرتين. انحنت نحوه حتى لامس كتفها كتفه فارتعش سعادة. قالت له وهي تضرب برفق على ركبته

- كلامك القاسي يشوه مفهوم الزواج يا ياسر
- أنا لا أشوهه يا ليلى، أنا فقط أعريه عن أغلفته الزائفة لينكشف على حقيقته. الحب والجنس محرمان في مجتمعاتنا من دون زواج يشرعنهما، ولذلك فإن المجتمع يحرص على تلميع الزواج والاحتفاء بطقوسه والاحتفال بالمتزوجين. وكما أنه يعد الفتيات الصغيرات مبكرا للقيام بهذا الدور ليصبحن (عروسات) فإنه أيضاً يتآمر على الذكور لدفعهم للوقوع في مصيدة الزواج، فما أن يشب الفتى حتى تبدأ محاصرته بالأسئلة... متى ستتزوج؟ ألن نفرح بك قريبا؟ ما رأيك في فلانة؟ أسئلة تنهمر على الشاب باستمرار، تأتيه من أهله وجيرانه واقاربه وأصدقائه وزملائه بل وحتى من من لا يعرفهم. الجميع يريدونه أن يمارس الجنس ولكن بشروطهم وطبقا لقواعدهم، ويريدون

لحيواناته المنوية أن تجد بويضـــة تلقحها ليتكاثر. هي مصـيدة منصـوبة لكل الشـباب. ولأن الشـاب محروم من الجنس الشــرعي وروحـه تواقـة لأن تحب وأن تحب يدفعه لا وعيه إلى طلب الزواج والبحث الدؤوب عن شــريك التزاوج. وبعد أن يحقق رغبتـه وينكح ويتكـاثر وتبتلعـه مشـــكلات الحياة ومعيشة الزواج المضجرة يتوق ساعتها لأن يعود رجلا حرا يهيم في كون الله دون قيود، دون امرأة تحاصــر ذكورته، أو فراخ جائعة تنتظره أن يطعمهـا ويرعـاهـا، ولكن هيهـات فقـد وقع في المصـيدة واكتشـف المؤامرة التي حيكت له متأخرا وما عاد متاحا له العودة للوراء، فيسـتسـلم لواقعه قاذفا لأحلامه وقامعا لأوهامه، ويحاول المضـــي إلى الأمام بقصور ذاتي من بقايا طاقة شبابه، شأنه في ذلـك شـــأن الغـالبيـة العظمى من الرجـال المخدوعين

- يا إلهي! ألهذا الحد تمقت الزواج؟
- الحقيقة أني عشـت ثمان سـنوات من سـنين زواجي العشر في سعادة، زوجا مثاليا وربا لأسرة سعيدة. تزوجـت عن حـب وعن قنـاعـة، وكنـت أقول أن الإنســـان لا يتزوج ليمـارس الجنس أو لينجـب الأطفال، وإنما يتزوج ليقضـــي عمره مع انســـان

يحبه، ليســـتيقظ كل يوم بجواره، وليشــيخا معا، ويموتـا معـا، لكن أفكـاري تبدلـت بعدمـا اكتـأبـت، واصبحت سوداوية مشوهة كما تقولين. الحقيقة أني لســـت متأكدا أي الفكرتين هي الصـــحيحة. يعتقد المكتئـب دائمـا أن فكرتـه هي الحقيقيـة لأنـه يرى الأمور على حقيقتها دون تشــويش أو تجميل، يرى ما لا يراه البشـــر العاديين الغارقين في ضـــلال ســـعـادتهم الزائفـة والتي تعميهم عن رؤيـة عين الحقيقة. ربما ليستطيع الإنسان العيش بشكل طبيعي وسعيد في هذا العالم عليه أن يكون مريضـا بأوهام الســـعادة والتفاؤل والأمل، لأنه لو تعافى من هذه الأوهام وصـــار مكتئبا عندها ســـيرى العالم على حقيقته البشـــعة القاتمة، عالم لن يعجبه، وســـيود الفرار منه

صــمت ياســر قليلا ورفع رأســه يطالع فروع شــجرة النيم وتسرب خطوط أشعة الشمس من بين أوراقها. أنزل بصره مـــن فـــوق والـــتـــفـــت إلـــى لـــيـــلـــى وقـــال

- وهذا شـــيء آخر صـــرت امقته في الزواج وإنجاب الأطفال، فبســـببه فقدت خيار الانتحار والفرار من هذا العالم. سأظل محبوسا هنا إلى أن يحين أجلي...

-42-

نظرت ليلى إلى ساعتها، إنها تشير للسادسة والنصف. قالت لياسر

- تبقى نصف ساعة على بداية الدوام، واليوم هو آخر أيام تدريبي في البنك ولا أريد أن أتأخر

شعر ياسر بشيء من الجزع، فهو يحب هذه الجلسة بصحبة ليلى، ويود لها أن تطول أكثر، قال لها مفاوضا

- اذن دعينا نمكث عشر دقائق أخرى ثم نمضي. لا يحتاج المشوار من هنا إلى البنك أكثر من ربع ساعة
- جميل، فأنا أحب هذه الجلسة بصحبتك، وأود لها أن تطول

نظر اليها ياسر في دهشة ثم سألها بجدية

- هل تستطيعين قراءة أفكاري؟

- لا أعلم، لماذا تسأل؟
- لأنك قلتي بالضبط ما كنت افكر به، بنصه وحرفه.

ابتسمت ليلى وأشاحت بنظرها نحو النيل. بعد برهة صمت قالت

- لســـت متأكدة أني أســـتطيع قراءة أفكارك، لكني أشعر أن حبلا سحريا يشدني إليك ويجذبني نحوك

ابتســـم ياســـر وقال لنفســـه "اجل، إنها الطاقة المعتمة". واصلت ليلى كلامها

- منذ رأيتك في البنك احسست نحوك بشعور غريب، كأني اعرفك منذ زمن طويل، كأني كنت أراك في أحلامي منذ صباي، وعندما أنظر في عينيك أحس بالدموع تتجمع في مقلتيّ لسبب أجهله، فرحت جدا عندما رأيتك في النوبة في حمد النيل، ظل نظري مثبتا عليك طيلة ساعة كاملة اتأمل فيك وأنت تذكر وترقص، وســعدت أكثر عندما تكلمت معك بعدها. انتظرت منك أن تطلب رقم هاتفي كما يفعل كثير من الرجال المعجبين الذين التقيهم صــدفة، لكنك لم تفعل. أصــابني احباط عميق عندما انصـرفت عنك

دون انشاء قناة للتواصل معك، لكن كأنني سمعت هاتفا من السماء يطالبني بالعودة اليك وأخذ رقمك. رجعت واستنزفت كل طاقتي في فعل ذلك، فأنت تعلم أنه ليس من اللياقة في مجتمعنا أن تبادر الفتاة بطلب رقم الفتى، لكنني احسست بالراحة العميقة تملؤني بعدما حصلت على الرقم. ضممت هاتفي عليّ وكأني أخبأ كنزا ثمينا عن عيون الناس. كنت أفتح برنامج المراسلة كثيرا انتظر رسالتك الأولى أن تأتي، لكنها رفضت الحضور. وفجر اليوم وأنا اقرأ أورادي حضرت في بالي، ففتحت هاتفي ووجدتك متصلا، لذا تجرأت وأرسلت، وها أنا هنا معك الآن

حرك ياسر ابهامه في تودد فوق كفها المتشابكة مع كفه. أحنى رأسه للوراء فوق مقعده حتى واجه بصره زرقة السماء، ثم أخرج زفير أنفاسه العميقة قائلا "الله". أخذ يفكر في تصاريف القدر الغريبة، فلولا كابوسه المزعج الذي أيقظه فزعا من نومه ما كان لينعم بهذه الجلسة الرائعة على النيل مع ليلى، وسائل نفسه إن كان ما يجري في هذه الدنيا من حوادث عشوائية تتشابك وتتقاطع هو أمر تنسجه الحكمة أم يبعثره العبث؟ أعاد رأسه إلى وضعه الطبيعي ملتفتا إلى ليلى ثم قال

- أنت آية من آيات الله يا ليلى، كأن السماء بعثتك إليّ
- حقا؟
- كأنك تعيشين في دواخلي، ما تروينه عن نفسك هو بالضبط ما يدور في نفسي، فمنذ التقت عينانا وأنا أشعر بالجاذبية تشدني اليك، ورقم هاتفك تمنيت أن أناله لكني كنت فاقدا للقدرة والجرأة والمهارة المطلوبة للمبادرة، لذلك طرت فرحا عندما منحتني له السماء دون جهد مني، ولكني مجددا تعثرت وعجزت عن ابتدار التواصل معك، ولهذا حلقت فرحا من جديد عندما جاءت رسالتك الفجرية من الما وراء. كم أنا سعيد أنك فعلت ذلك، فأنا الآن أنعم بهذه الجلسة السعيدة ببركة تلك الرسالة، وهذه السعادة التي تغمرني الآن مضى زمن طويل منذ أن شعرت بها آخر مرة حتى أني نسيت طعمها الجميل

قال ياسر كلامه وبصره مثبت على شفتي ليلى، شفتان مكتنزتان مطليتان بروج هادئ اللون، ترتجفان وترتعشان، تصرخان بصوت مكتوم ينادي على شفتيه أن تزوراهما.

- ليلى... هل ممكن أن اقبلك؟

قالها بعينين منسدلتين وقلب خافق، وهو يحس أن ذرات جسده تنفصل شلالات عنه وتسيل ساقطة نحو نجم ليلى المتوهج. هزت هي رأسها هزة خفيفة بالموافقة، وشفتاها المطليتان بالروج لا تزالان ترجفان. اقترب ياسر برأسه منها مصوبا فمه نحو فمها. بسرعة أمسكت ليلى بكتفيه تثبتهما، ثم قالت وهي تبتسم

- ليس هنا يا مجنون

لوهلة أنتبه ياسر لموقعه من الزمكان، إنه جالس هنا في هذه البقعة الجغرافية من الأرض وحوله يجلس أناس آخرون، وهناك ست شاي تحضر باستمرار أكوابا جديدة للزبائن المتعاقبين، وهناك أيضاً صبي صغير يساعدها ويتنقل بينهم، وورائه شارع كبير يفيض بالسيارات المتحركة. كل ذلك غاب عنه ولم يكن يراه. كان يحس بأنه وحده مع ليلى في هذا الكون ولا شيء آخر هناك غيرهما.

قام من كرسيه وتوجه لست الشاي، سألها عن الحساب وأعطاها ما طلبته. نظر ورائه إلى ليلى فقامت من كرسيها وتبعته إلى السيارة، وما أن استويا جالسين حتى نظر إلى شفاهها مجددا، فوجدهما على حالهما، يناديان ويطلبان

التلبية. اقترب برأســه من ليلى فأغمضــت عينيها، أما هو فأبقى عينيه مفتوحتين يتأمل تفاصــيل الشـفتين وهو يقترب منهما، ويتيه في تضاريسهما، إلى أن التحمت الشفاه الأربع في قبلة ذاب فيها العالم والعالمون، والماضــي والمسـتقبل، والمبتدأ والخبر. التهم ياسر الشفتين معا أولا، قبل أن يمنح كل شـفة منهما حقها على حدة، ويعود بعدها لتصـب شـفتاه نيران شوقه عليهما معا. أخيرا قالت ليلى في صوت مكتوم خافت ومستسلم

- يكفي يا ياسر

عاد ياســر برأســه إلى الوراء وهو ينظر إلى الروج الذي بعثرته شــفاهه حول فمها. لا يعرف كم من الوقت مضــى عليه في هذه القبلة، ربما ثانية وربما ســنة. أضــافت ليلى وهـــي تـــعـــتـــدل فـــي كـــرســـيـــهـــا

- أخاف أن يرانا أحد، وأخشى أن نتأخر على البنك
- حسنا

أدار ياســر محرك سـيارته وانطلق في شــارع النيل جنوبا متجها إلى السـوق العربي. أخذ لســانه يتحرك على شـفاهه

يتذوق باستمتاع ما علق فيها من روج شفتي ليلى. مدت له منديلا وقالت

- خذ امسح (النود) عن فمك
- امسح ماذا؟
- النود... إنه لون الروج الخفيف الذي استعمله
- النود؟
- أجل، ألم تسمع به قبل؟

هز رأسه نافيا وقال في سعادة

- لا، ولكني سعدت بالتعرف عليه

ضحكت ليلى ولم ترد. نظر إليها ياسر مبتسما قبل أن يضيف

- كما سعدت من قبل بالتعرف على التونيك

ضغط على دواسة البنزين زائدا من تسارع السيارة. ظل مبتسما في استرخاء ونظره موجه للشارع أمامه. ساد الصمت لبرهة قبل أن يقطعه ياسر قائلا

- أنه أجمل نود أتذوقه في حياتي...

-43-

توقفت السيارة جوار بوابة البنك المطلة على شارع القصر شـــرق الســـوق العربي، وعندما فتحت ليلى الباب لتنزل أمسك ياسر بذراعها ثم أخذ كفها بيديه الاثنين وشرع يتأمل الخطوط الجـاريـة فوق راحتهـا. بـدأ بتتبع خطوط عقـل الأصـــابع أولا، ثم أخذ بصــره ينســاب مع الخطوط الثلاثة الكبيرة التي تحتل منتصـــف كفها، هو لا يعرف إلى ماذا ينظر بالضبط لكنه تمنى لو كان خلية مجهرية تقضي وقتها في التسكع جيئة وذهابا بين جنات تلك الخطوط.

- هل تقرأ الكف؟

أخرجه سؤال ليلى من هيمانه. للحظة انغمس في الكف وبدا وكأنه نسـى صـاحبته. رفع كفها إلى شـفتيه وطبع عليه قبلة حرص على أن تلامس فيها شـــفتاه خطوط كفها الثلاثة الرئيسية، ثم التفت إلى ليلى وقال

- لا، لا اقرأ الكف، فقط أحب يدك جدا

- أنت مجنون

قالتها ليلى ضاحكة وهي تسحب منه يدها برفق وتنزل من السيارة، وقبل أن تغلق الباب وقفت تسأله

- ألن تنزل؟
- لا، فالمدير لم يتصل بي حتى الآن، ولم يرتب لي تلك المقابلة التي حدثني عنها، كما أن لا رغبة لي في لقاء ياسين
- حسنا... سأشتاق إليك

تدغدغ رأسه طربا لعبارتها الأخيرة. لم يرد عليها بلسانه لكن كل وجدانه كان يصرخ "وأنا سأشتاق لك أكثر". أفاق من سكرة طربه السريعة وقال

- هل يمكن أن أمرّ عليك يا ليلى عند الرابعة لأرجعك إلى البيت؟
- ألن يتعبك ذلك؟
- ربما يتعب بدني، لكنه سيريح روحي
- حسنا، سأتصل بك عندما انتهي
- جميل، حظا سعيدا

أغلقت ليلى باب السيارة وأخذ ياسر يراقب طيفها باستمتاع حتى اختفى داخل البنك، يحس أنه في حلم جميل، سكران بمدام الهوى، يشعر أن الحياة جميلة ويريد أن يغترف منها أكثر، مشاعر انسان حي وهو الذي كان يظن نفسه ميتا. انطلق بسيارته عائدا إلى أمدرمان، يريد أن يستلقي في سريره ويفكر بليلى قبل أن ينام، ويريد أن يحلم بها وهو نائم، ويريد أن يلقاها بعدما يستيقظ. ما عاد يفكر في الكابوس الذي رآه، ولا في عماد أو زهرة. دماغه مملوء فقط بأربعة حروف جميلة... ليلى...

وصل إلى المنزل، تجرد من ثيابه، وألقى بنفسه على السرير الذي فر منه فزعا قبل ساعات. هذه المرة بدا له السرير وثيرا وناعما. وضع رأسه على المخدة مبتسما ومنتشيا وخيال ليلى يتراقص تحت جفنيه المغلقين. وقبيل أن يسقط في جب النوم رن هاتفه معلنا عن وصول رسالة. أمسك الهاتف وقرأها، إنها ليلى، كتبت له "اشتقت اليك". سال الفرح من كل مسامات جسمه الممتد على السرير. هذه المرة لن يرد فقط بالوجدان وإنما أيضا بالكلمات. كتب لها "وأنا اشتقت إليك أكثر والله". وضع الهاتف تحت خده ونام عليه، والابتسامة لم تفارق شفتيه...

-44-

فتح ياسر عينيه مستيقظا من نومه، وكان أول ما فعله هو الابتسام، يحس بالسعادة والانتشاء، هو لم ير حلما جميلا أثناء نومه ولكنه يعيش واحدا حقيقيا. أخذ يقلب عينيه الخاملتين في أرجاء غرفته، في خزانة ملابسه، ودولاب كتبه، وفي الشماعة التي تتدلى منها ثيابه، وفي المرآة الكبيرة واللوحة المعلقة. كل شيء يبدو مختلفا، جميلا متوهجا وسعيدا. أخذ يسأل نفسه عن سر جمال الأشياء المفاجئ من حوله. فكر أنه ربما كان افلاطون على حق عندما ظن - بعكس ما تقوله الفيزياء الحديثة - أن الضوء يخرج من عين الإنسان ليسقط على الأشياء فتراها، والذي يفقد نور عينيه يصاب بالعمى، ربما كان هذا هو ما حدث له، فعيناه كانتا مظلمتين قبل أن توقد ليلى شعلتها فيهما، وها هو الآن بفضل نارها المقدسة يستطيع أن يرى من جديد جمال الدنيا وزينة العالم.

أمسك هاتفه المحمول ليطالع الساعة، إنها الثانية عشرة ظهرا، وتبقى على ميعاده مع ليلى الكثير، لكنه رفض البقاء في السرير، فهو اليوم على عكس عادته يشع بالطاقة، وينبض بالحيوية. أخذ دشا وبحث في دولابه عن ثياب جميلة. لقد مضت عليه سنوات لم يلق فيها بالا لما يستتر به

جســــده، لكنه اليوم ســــيفعل. اختار زيه وبعدها وقف أمام مرآته يزين شعيرات رأسه المتطايرة.

أنطلق بســــيارتـه نحو الخرطوم وهو يدنـدن مع الأغـاني الصــــادحـة من مذيـاع ســــيارتـه. كـان في غمرة غنـائـه واهتزازات رأســـه الايقاعية يســـائل نفســـه بين الفينة والأخرى... "هل هذا حقيقي؟ هل أنا حقا سـعيد هكذا؟ دون أن اتعاطى أي صنف من المخدرات؟ هل هذا أصلا ممكن؟ ترى ماهي درجة مقياس سـعادتي على مقياس ريختر؟ هل تكون تسعة ولا توجد سعادة أكثر من ذلك إلا في الفردوس؟ أم تراها تكون أقل درجة سـعادة يمكن تسـجيلها وكل ما في الأمر أني نسـيت هذا الشـعور تماما قبل أن أعيشـه الآن من جديد؟ هل يا ترى لم أعد مكتئبا وسأصبح انسانا عاديا يحلم ويفرح ويشتاق ويأمل؟ أم أن ذلك سيزول سريعا كما تزول بهجة المخدرات القصيرة والزائفة؟".

هز رأسه بشدة مع إيقاع موسيقى صاخب وكأنه يطرد عنه كل أفكاره. أقنع نفسه أنه غير مهتم إن كانت سعادته حقيقية ام زائفة، طويلة الأجل أم قصـــيرة العمر، المهم أنه ســـعيد الآن، وسـينداح لآخر مدى في اللحظة قابضـا على كل حبة خردل من ســـعادة تتاح له، وتمنحه إجازة من حزن اكتئابه الطويل والمرير والقاتم.

تلفت ياسر حوله فوجد نفسه في شارع النيل مارا بالقصر الجمهوري، هو لم يخطط لذلك وإنما كأن سيارته حملته إلى هنا وحدها، يبدو أنها تعشق هذا الدرب تماما كما يفعل هو. واصل طريقه باتجاه نهاية الشارع ليجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه مع ليلى صبيحة اليوم، فتلك أصبحت عنده بقعة مقدسة تشد لها الرحال وتطلب عندها البركة .

بعدما مر بجامعة الخرطوم لفتت نظره لوحة صغيرة متواضعة معلقة على مبنى متواضع. اتسعت عيناه دهشة وبدأ قلبه يخفق. ركن سيارته على اليمين بحركة لا إرادية متوقفا. لقد رأى تلك اللوحة من قبل، في كابوسه الليلة الماضية. نزل ياسر من السيارة واتجه نحو المبنى المقصود ذي الطوابق الثلاث. وقف على مشارف مدخله ونظر إلى اللوحة أعلاه

جمهورية السودان

وزارة الري والموارد المائية الاتحادية

هي هي تماما كما رآها في منامه، بنفس خطها القبيح وبنفس تصميمها الرديء. ابتلع ريقه وأخذ رأسه يتأرجح سريعا بين خيارين، أدخل أو لا أدخل...

-45-

تقدم ياسر خطوات إلى الأمام نحو مدخل الوزارة ثم تراجع، هو لا يزال متنازعا بين الإقدام والهروب، يريد أن يدخل ليثبت لنفسه أن الكابوس الذي رآه اليوم لا يعدو كونه أضغاث أحلام وخطرفة شيطان، ولكن في نفس الوقت فإن غريزة الخوف البدائية بداخله تدفعه للهروب والاحتماء تماما كما كان أسلافه من أهل الكهوف اللذين ورث هذه الخصلة الجبانة عنهم يهرعون إلى كهوفهم مذعورين عندما يسمعون صوت الرعد. في النهاية انتصرت شجاعته أو ربما فضوله أو لعلها حماقته وعبر بوابة البناية إلى داخلها.

لم يتفاجأ ياسر بموظف الأمن الجالس خلف طاولة مكتب بإزاء البوابة، لكنه ابتلع ريقه قلقا، فالشخص هو هو الذي رآه في حلمه. اقترب منه ياسر وقال

- أود الذهاب لمكتب المهندس عماد صالح محمد
- هل لديك ميعاد؟
- لا ليس لدي ميعاد محدد لكن...

تلعثم ياسر قليلا لكنه أضاف كذبا ذات الجملة التي قالها في الحلم

- ولكنه ينتظرني خلال اليوم...

أخرج ياسر محفظته ليبحث عن البطاقة التي أعطاها له عماد ليقدمها لموظف الأمن، غير أن الرجل لم ينتظره وقال مشيرا بيده

- الدور الثاني على اليمين
- شكرا

مضى ياسر إلى الداخل تاركا الرجل وراء ثم اتجه إلى اليسار، يحس بأنه يعرف هذا الطريق وأنه مشى فيه من قبل، وأنه عاش هذه اللحظة بكل تفاصيلها، فها هو الممر الضيق يمتد أمامه، وها هم الأشخاص الأربعة الصامتون يقفون في انتظار المصعد، وها هو ذات السلم الذي صعد

عليه في الحلم يوجد خلفهم. نفس الأشـــياء والأشـــخاص والأحداث... ديجا فو كامل الدسم...

ارتقى ياسر درجات السلم متسارعا وكأنه يهرب من غرابة ما يعيشـــه. وصـــل إلى الطابق الثاني وقبل أن يخطو إلى داخل بهوه تســمر مكانه لثانية وأخذ يفكر "ما هذا يا إلهي؟ أهذا حلم ام حقيقة؟ واقع أم خيال؟ وهل كان ما رأيته في منامي مجرد حلم أم تراني عشـــت هذا حقا؟ هل يمكن أن تكون نســخة مني عاشــت ذلك حقيقة في كون موازي؟ أم أني عشـت ذلك في جسـد آخر في حياة سـابقة قبل أن أنسـخ في هذا الجســـد؟ هل أنا نائم الآن وهذا مجرد حلم آخر؟ لا يبدو ذلك، فها أنا أحس بالألم وأنا أقرص نفسي، أليست هذه هي وسيلة التحقق الموثوقة التي يظهرونها دائما في الأفلام للتفريق بين الحلم والحقيقـة؟ ولكن هـل هنـاك فرق حقـا بينهما؟ أليســت الحياة برمتها حلم يقظة طويل تتخلله أحلام النوم؟ أليس الناس نياما فإذا ماتوا انتبهوا كما قال الامام عليّ؟ ألا تقول فرضـــية المحاكاة بأن يقظتنا وأحلامنا وكل تفاصيل حياتنا وعالمنا بل وكوننا هو مجرد برنامج محاكاة هائل ومتطور في كمبيوتر أحدهم؟".

- أي خدمة يا اســـتاذ؟ أراك قد أطلت الوقوف على المدخل

- نعم أبحث عن مكتب المهندس عماد صالح
- إنه هناك

قالها الرجل مشـــيرا بيده نحو باب على اليمين وانصـــرف وهو يرمق ياسـر بنظرة ريبة كانت سـتكون أكبر لولا ردة فعله وإجابته السريعة عن سؤاله، فليس من المعتاد أن يظل انســـان عاقل واقفا متجمدا في قلب مدخل يعج بالمارين لثلاث دقائق ينظر إلى اللا شيء غير عابئ بما يدور حوله، وربما لو أتيح للرجل معرفة ما كان يدور داخل جمجمة ياسـر وقتها لكان سلمه بيده إلى مستشفى التيجاني الماحي للأمراض العقلية.

اقترب يـاســـر من بـاب المكتـب وهو يتفحص في الوجوه العابرة من حوله بحثا عن تلك الموظفة البدينة ذات التوب الابيض والفســتان البرتقالي لكن عينه لم تعثر عليها. تنفس الصـــعداء وهو يقف أمام الباب فعلى الأقل بدأت الأحداث من حوله تختلف عن أحداث حلمه. هدأ توتره قليلا وطرق الباب. رد عليه صوت قادم من الداخل "تفضل" ففتح الباب ودخل.

- ياسر... يا سلام... يا للمفاجأة السعيدة

وقام عماد عن كرسـي مكتبه واقفا ومرحبا بصاحبه الذي عمته الراحة بهذا الترحيب العادي التقليدي من صديقه الذي لم يكن نصف عار كما كان ياسر يخشى أن يجده.

-46-

- منور الوزارة يا ياسر...

قالها عماد في بشاشة معيدا ترحابه بصديقه، وجلس في كرسي بجواره تاركا مكتبه وكرسيه ذي العجلات فارغا.

- شكرا يا عماد... آسف أني لم أخبرك قبلها، لكني وجدت نفسي مارا من هنا فانتهزت الفرصة وجئتك
- خيرا فعلت يا صديقي، فأنا في شوق إليك ولسماع اخبارك. قهوة أم شاي؟
- بعض الماء فقط لو سمحت

قام عماد من جواره واتجه إلى براد ماء صغير في زاوية المكتب، ملأ كوبا ثم وضعه أمام ياسر وجلس من جديد على الكرسي الذي بقربه وهو يقول

- ما رأيك أن نشـــاهد مباراة الهلال الليلة معا؟ هناك كافيه جميل وحديث في المنشـــية ولديهم شـــاشـــة كبيرة، لعل حجمها سبعون بوصة
- عماد... ما هي علاقتك بزهرة؟

هكذا وبـدون مقـدمـات وحتى بـدون رد على اقتراح عمـاد أمسـك ياسـر بعنق الحديث وقذف بسـؤاله المريب في وجه صـاحبه. ألجمت الدهشـة عماد، فأعاد رأسه للوراء واتسعت عيناه وارتفع حاجباه، ثم ابتسم في استنكار وقال

- بســـم الله الرحمن الرحيم... لمـاذا هـذا الســـؤال المفاجئ؟
- هي ليست مجرد زميلة أليس كذلك؟
- لماذا تسأل؟

تلاشـت ابتسـامة عماد الاسـتنكارية عن شـفتيه عندما نظر إلى وجه ياســر الخالي من الملامح، بدأ يشــعر بالقلق لكنه قرر أن يجاري صاحبه فاستطرد قائلا

- الحقيقة أن بيننا علاقة حب وخطة للزواج
- هل مارستم الجنس؟
- استغفر الله... ماذا تقول يا رجل؟

- أقول هل مارستم الجنس؟
- طبعا لا... أنا بحمد الله لم أزن قط، وزهرة محجبة وملتزمة، إنها لا تصافح الرجال أصلا يا ياسر
- ولم تمارسوا أية افعال جنسية أخرى؟

نظر عماد إلى ياسر بمزيج من الانزعاج والاندهاش. ثبت عينيه على وجه صاحبه الذي لا يزال فارغا تماما من الملامح ولم يقل شيئا. بعد ثوان متطاولة من الصمت ابتسم ياسر، ووضع كفه الأيسر على ركبة عماد في تودد وقال

- أنا آسف يا عماد على هذه الطريقة في طرح الأسئلة، وعلى هذا الأسلوب المباشر والمباغت، ولكن سأصدقك القول، أنا قلق بسبب حلم رأيته
- حلم؟
- أجل حلم
- عن زهرة؟
- عني وعنك وعن زهرة
- عجيب... احكه لي
- سأفعل ولكن أجبني أولا... هل تعرف ما هي المازوخية؟

اتســـعت عينا عماد وانعقد حاجباه، تلفت حوله في المكتب الخالي ثم قام عن كرســـيه نحو الباب يوصـــده، عاد بعدها وجلس على كرســـي مكتبه ذي العجلات وانحنى بنصـــف جسده الأعلى متطاولا نحو ياسر وهمس له

- هل احتوي حلمك على المازوخية؟
- أجل... أنت تعرف ما هي اذن
- أعرف فقط؟؟ أنا علامة في هذا الأمر!

راقب ياســـر تعابير وجه عماد تكتســـي بالفخر والنشـــوة وظهره يعود ليتكئ في تعالي على كرســـيه كملك يســـتوي على عرشه. واصل عماد قائلا

- الحقيقة يا ياســـر أني مغرم منذ مراهقتي بكل أنواع المازوخية، وخاصـــة الفتشـــية وغرام الأقدام، تثيرني، تشـعل رأسـي جنونا، قمة متعة الجنس هي أن يعشق الرجل الذل في رحاب المرأة، وأنا أعشق الفتشية وأعشق الجنس...

ظل ياســـر يحدق في صـــديقه بدهشـــة وكلماته الأخيرة "أنا أعشـــق الجنس" تطن داخل أذنيه محدثة صـــدى مزعج في جمجمته. فجأة استدرك عماد قائلا

- غير أني لم امارسه قط...

انفلتت ضحكة من بين شفتي ياسر رغما عنه، فما يسمعه هو قمة الهزل، علامة في الفتشية لم يمارس الجنس قط! خاف ياسر أن يكون قد أحرج صاحبه بضحكته لكنه وجده يضحك معه فانجرف في الضحكة حتى خمدت جذوتها ثم قال

- أنا يا عماد لست بمعرض الحكم الأخلاقي عليك، فرغم أن ما تقوله قد يكون مصادما لصورة الرجل الشرقي التقليدي إلا أن الفانتازيا الجنسية ومن بينها الفتشية ومشتاقاتها شائعة في كل المجتمعات. إحدى الاحصائيات في أمريكا أوضحت أن 90٪ من الناس تخيلوا أو مارسوا شيئا جنسيا يصنف تقليديا على أنه -بين قوسين- غير طبيعي
- أعلم ذلك... ولأن مجتمعنا كما تقول لا يتقبل مثل هذه الأفكار فأنا شديد التكتم في مشاركتها، ومع ذلك فإن غير قليل من الذين أسريت لهم بهذا الامر وجدتهم يشتركون معي في الشبق والرغبة في تجريب الفتشية

- لا استغرب ذلك بالمرة، فالجنس لا يزال تابوها محرما في المجتمع، وإذا ما أتيح للناس الخوض في شؤونه بحرية فسيظهر العجب العجاب. المازوخية يا عماد هي فقط جزء يسير من طيوف الفانتازيا الجنسية، فهناك أطياف أكثر شيوعا مثل تخيل ممارسة الجنس في مكان مفتوح أو جنس المحارم مثلا
- استغفر الله...
- الحقيقة يا صديقي أن الجنس هو سر غريب من أسرار الحياة، هو شيء قذر لكنه محبوب، محرم لكنه مرغوب، عيب لكنه جميل، نستعمل فيه أبشع أعضائنا التي نسترها دائما ونسميها عورة وسوأة. لو نظرت إلى العملية بيولوجيا ستجدها مجرد احتكاك بين غشائيين مخاطيين وتبادل للإفرازات، ومع ذلك فإن هذا الفعل الموغل في الغرابة مغروس عميقا في أدمغتنا بفعل جيناتنا التي ترغب في الانتشار. الأطفال يستقذرون الجنس ويخافون منه، هو أشبه عندهم بالمصارعة، ومهما شرحت اللذة الجنسية لطفل لم يبلغ بعد فلن يتمكن من فهمها، ولن يجد في العملية برمتها سوى شيئا منفرا مستبشعا، رغم أن نفس ذلك الطفل يصبح كائنا جنسيا مسعورا ما أن تستيقظ جيناته

النـائمـة وتشـــتعل هرمونـاتـه الخـامـدة، لأن اللـذة الجنسـية التي يكتشـفها حينذاك لا تشـابهها لذة، لذة سـيقضـــي شــبابه كله في مطاردتها، وإذا نجح في التناكح والتكاثر ســـينجب بعدها فراخا صــــغارا يســـيرون في نفس هذا الدرب العبثي الذي ســــار عليه، يطاردون لذة لا يشبع منها...

انتهى ياســـر من حديثه الطويل وبقي عماد صــــامتا يحدق فيه، وقد وضـــع يده على ذقنه ســـارحا في فراغات مكتبه، وبعد برهة صمت انتفض لأنه تذكر شيئا، قال لياسر

- الحلم... احكي لي الحلم

-47-

علت قهقهة عماد عندما أكمل ياســـر رواية الحلم حتى خلع نظارته ووضـــع اصـــبعيه على ركني عينيه المغلقتين يريد منع دمعهما من الانســكاب، لكنه لم يفلح، فتناول منديلا من على طاولة مكتبه ومســح به دموعه، قبل أن يرجع نظارته ذات الإطار الأسود إلى مكانها أمام عينيه مستقرة على أنفه الذي احمر من كثرة الضحك.

انتقلت عدوى الضحك بدورها لياسر، وزاد ضحكه عمقا لما تذكر حجم الرعب الذي اعتراه فجر اليوم وهو يستيقظ متعرقا من كابوسه الذي يضحك عليه الآن. قال عماد

- يا ترى من تكون تلك المرأة التي سحبتك؟ ذات التوب الابيض والفستان البرتقالي والصدر الشامي؟ أتكون شادية؟ أم لعلها نجاة؟ لا لا تذكرت أكيد هي سحر... أجل أنها سحر، هي تماما كما وصفتها، وبيني وبينك أشعر أحيانا أنها متسيدة ومتسلطة في الفراش، تذل زوجها وتستعبده، تبا له كم أحسده ذلك المحظوظ
- محظوظ؟! في الحقيقة إن كان ما تقوله صحيحا فلا بد أن زوجها تعس جدا إلا إذا كان مريضا بداء الفتشية مثلك
- هل تعتقد يا ياسر أني يمكن أن أمارس الفتشية مع زهرة بعدما نتزوج؟
- لا أظن ذلك إلا إذا كنت أنا نبيا وكانت رؤياي حق
- مدد يا سيدي ياسر...
- عندما تتزوج يا عماد ستعرف أن المجتمع سينام معك في فراشك، ستضاجع زوجتك وفقا لقواعده، وقواعده تنص على أن الرجل يجب أن يكون فحلا

ذكرا متسـيدا، وأن المرأة يجب فقط أن تكون مستقبلة باردة متجمدة، لا يحق لها الطلب ولا الاستمتاع ولا المبادرة، وأي خروج عن هذا النص قد لا تحمد عواقبه

- تبا لك يا ياسر... قتلت بكلامك السقيم بقايا ضحكاتي، لكن لعل معك بعض الحق، ألا تتذكر كيف كان أسامة متلهفا للزواج وممارسة الجنس؟ وكيف أنه بعد مضي عدة شهور من زواجه أصبح لا يطيق سيرته وصرح بأن الجنس أكذوبة كبرى؟
- لست استغرب ذلك، فأسامه الذي قضى شبابه يدرس أفلام البورنو لا شك أنه أحبط عندما اكتشف أن ذلك لا يتشابه من بعيد أو قريب مع ممارسة الجنس مع زوجة سودانية تقليدية
- تبا لك يا ياسر مرة أخرى... وتبا لأسامة أيضا
- أنا فقط أجرد لك الحقائق يا عماد. لا أظن أنك ستجد أحدا في هذه البلاد يتفهم خيالاتك الفتشية مثلي، لذلك كن واقعيا، فليس من السهل أن تجد فتاة سودانية محملة بكل ثقافة مجتمعها الجنسية المكبوتة والمشوهة وتتزوجها على سنة الله ورسوله وترضى أن تشبع ميولك الفتشية الشاذة بين قوسين

ضحك عماد عاليا عندما طرقت كلمة "شاذة" طبلتي اذنيه حتى جرى دمعه من جديد. التقط منديلا ثانيا وأحذ يمسح السوائل الخارجة من فوهات رأسه وهو يقول بصوت مختنق

- كم هو غريب أن يبكي الإنسان من فرط الضحك...

صمت ياسر وأرسل عينيه إلى السقف وأخذ يفكر بعمق في تعليق صاحبه، فهو من نوع العبارات التي تقدح شرار التفكير في دماغه، ملاحظة لا ينتبه لها في الغالب إلا الأطفال والفلاسفة فقط. صحيح أن العامة يقولون "إذا زاد الشيء عن حده انقلب لضده"، لكن ابن حزم قد أحسن صياغة ذلك في (طوق الحمامة) عندما برر تهاجر المحبين الذين اشتدت محبتهم. يحفظ ياسر كلامه بالنص منذ أن قرأ ذلك الكتاب وهو في الخامسة عشرة من عمره "والأشياء إذا أفرطت في غايات تضادها ووقفت في انتهاء حدود اختلافها تشابهت، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام. فهذا الثلج إذا أُدمن حبسه في اليد فعل فعل النار، ونجد الفرح إذا أفرط قتل، والغم إذا أفرط قتل، والضحك إذا كثر واشتد، أسال الدمع من العينين". ابن حزم وصف الظاهرة فقط ولم يعط لها تفسيرا سوى مشيئة الله، ولكن أليست

مشيئة الله هي أصلا منتهى كل تفسير؟ لعل هناك تفسيرا أقرب مما اقترحه ابن حزم، ولكن ما تراه يكون؟

- ياسر... أين ذهبت؟
- كنت اتأمل في العلاقة بين الضحك والبكاء
- وإلى ماذا وصلت؟
- وصلت إلى أنني قد عطلتك عن عملك وتأخرت عن ميعادي، عليّ أن أنصرف الآن

-48-

فتحت ليلى باب سيارة ياسر الرابضة في انتظارها قبالة مدخل البنك، جلست على الكرسي وأرسلت يدها اليسرى لتمسك مباشرة بيد ياسر، بينما سحبت يدها اليمنى باب السيارة لتغلقه وهي تقول "وحشتني يا روح...".

تجمد ياسر في مكانه، فما بين لمسات ليلى على كفه وصدى كلمة "روح" الذي يتردد في طبلتي أذنيه اعتراه شعور بالنشوة والتعالي والتسامي، يحس أنه يتجرد من كينونته الإنسانية البالية ليحلق في السماوات روحا حرة وسعيدة. التفت إليها وأعاد بتساؤل كلمتها الأخيرة...

- روح؟
- أجل روح
- لكلمتك سحر عجيب، أنا فعلا أشعر في هذه اللحظة بأني روح
- أنت أصلا روح يا عزيزي، روح بعثتها إليّ السماء لتحييني
- ما تقولينه ينطبق عليك أنت، أنت هي الروح التي أحيتني من بعد موت

ابتسمت ليلى ولم تعلق، بينما ظل ياسر ينظر إليها متفكرا قبل أن يضيف

- لعل لنا روحا واحدة فرقتها الأقدار في جسدين متباعدين
- ربما
- أو لعل أرواحنا تلاقت وتعارفت وتحابت في عالم الملكوت قبل أن يبدئا رحلة التوهان على هذه الأرض، و ها هما الآن يلتقيان من جديد ليكملا ما بدآه
- ربما

ظلت ليلى تمرر كفها فوق كفه بود وترد له باختصــار وهو يلقي عليها فرضــياته الميتافزيقية. بعد برهة من الصــمت قال ياسر

- إلى أين تودين أن تذهبي يا روح؟
- إلى نفس المكان الذي كنا فيه هذا الصباح يا روح
- أجمل اختيار يا روح

وانطلقت الســيارة متوجهة إلى النهاية الجنوبية لشـــارع النيل...

-49-

نزلا من الســيارة واتجها مشـيا على الاقدام نحو الكرسـيين البلاستيكيين المواجهان للنيل تحت ظل شجرة النيم الكبيرة. بطرف عينيه القى ياسر نظرة على ست الشـاي المشـغولة بإعداد الأكواب الســاخنة على طبليتها الصــغيرة، "حمدا لله... لقد عادت فتحية" قال ياســر في نفســه وهو يمنيها بكوب ساخن من الجبنة، فقهوة فتحية أطيب كثيرا من قهوة زميلتها التي سقتهما هذا الصباح.

اتخذ الشــاب والفتاة مقعديهما قبالة النيل، وألقى ياســر بيده في حجر ليلى فاحتضنتها بين كفيها. أحس بالنشوة والراحة واسترخى على مقعده يستمتع باللحظة. قالت ليلى

- أخبرني كيف كان يومك؟
- لا شيء مهم، عدت إلى البيت فقط ونمت ثم جئتك
- أهذا كل ما فعلته؟

فجأة تذكر ياســر عماد، والكابوس الذي رآه، وزيارته لصاحبه في الوزارة. ابتلع ريقه ثم قال

- الحقيقة أني أيضــاً زرت صــديقي عماد في وزارة الري والموارد المائية
- حقا؟ هل هي زيارة شخصية أم زيارة عمل؟
- لا، لقد كانت زيارة حلم
- حلم؟
- أجل. أنا لم اخبرك يا ليلى عن ســبب اســتيقاظي باكرا اليوم، وعدم قدرتي على العودة إلى النوم، لقد كان ذلك بسبب كابوس رأيته
- كابوس؟

- أجل كابوس. ورغم أني لا أعبأ بالأحلام عادة ولا أســـعى لتفســـيرها إلا أن هذا الكابوس تحديدا قد أقلقني
- أولا عليك أن تعبأ بالأحلام، لأنها اشــــارات من الســماء لا يجب أن نتجاهلها. ثانيا احكي لي حلمك بالتفصيل
- حســـنا، لكن عليّ أن أحذرك أنه حلم غريب وبه بعض التفاصـــيل التي... التي... كيف يمكنني أن أعبر يا إلهي؟؟ فلنقل أنها (بلس 18)
- أوكي فهمت. احكها لي بالتفصيل
- حسنا...

وقبل أن يبدأ ياســر بالســرد نظر إلى فتحية، وما أن رفعت عينيها إليه حتى أشــار لها بإصــبعيه الســبابة والوســطى، يطلب كوبين من الجبنة، فهزت رأسها متفهمة لإشارته.

عاد ياسر بنظره نحو ليلى وقال

- حســـنا يا ســـيدتي... بدأ الحلم بوقوفي أمام مدخل الوزارة وتطلعي إلى لافتتها...

-50-

أحضر الصبي كوبي الجبنة ووضعهما أمام ياسر وليلى، قالت ليلى وهي ترتشف من كوبها

- اعتقد أنها رؤيا
- رؤيا؟
- نعم إنها اشارة من السماء
- اشارة لماذا؟
- أن زهرة هذه مصدر شر لصاحبك عماد
- أظن أنك تبالغين في الاستنتاج
- لا ابالغ، فهذه الرؤيا أتتك بعد ليلة واحدة من نوبتك في حمد النيل
- صحيح... فقد كنت في النوبة ليلة السبت، وحلمت بهذا الكابوس في الليلة التي بعدها
- ولهذا أظن أنها اشارة سماوية وليست حلما من الشيطان. إن الله يأمرك أن تحذر صديقك من زهرة
- ولكن إذا اراد الله أن يعلمني بذلك كما تقولين أما كان ذلك ليكون أفضل لو كان عن طريق أكثر وضوحا ومباشرة وليس عن طريق كابوس جنسي مزعج؟
- لكل شيء حكمة، حتى وإن عسر علينا ادراكها

- على كل حال فقد اخبرت عماد بحلمي، ولا يبدو أنه يعبأ به كثيرا، وأنا كذلك سأتناساه
- حسنا يا روح...
- هل تعلمين أنك جميلة جدا يا ليلى؟
- لست جميلة، لكن ربما هو انعكاس جمال عينيك التي تنظر بهما إلي
- لا أنت جميلة حقا
- هل تعرف يا روح أن اخواتي ينادينني بجعفر؟ نحن خمس أخوات وليس بيننا ولد، وأنا أقرب شيء في بيتنا إلى الذكور
- لا يوجد ذكر ولا حتى انثى في جمالك ولا في رقتك يا روح

ابتسمت ليلى ورفعت كوب الجبنة إلى ثغرها تحتسي منه رشفة أخرى. شد ياسر من قبضة أصابعه المشتبكة بأصابعها ثم رفعها نحو شفتيه ليطبع قبلة على ظهر كفها، بعد ذلك وضع راحة يدها على حجره فظهرت له تلك الندبة الممتدة فوق كف معصمها الايسر. قال لها

- لم تخبريني بقصة تلك الندبة يا روح

أخذت ليلى نفسا عميقا ثم أخرجته وردت

- رغم أني لا أحب تذكر ذلك اليوم إلا أنني سأخبرك، أتعلم لماذا؟
- لماذا؟
- لأنك روحي، وأنا أحب الكلام معك في كل شيء
- وأنت كذلك روحي يا روح، وأنا أحب الكلام معك أيضا في كل شيء. أتعلمين أن لا أحدا على هذا الكوكب يعلم بقصة محاولتي -أو بالأصح شبه محاولتي- للانتحار سواك؟
- حقا؟
- أجل، اعتقدت أني سأحمل ذلك السر معي إلى قبري حتى ظهرتي أنت في حياتي واحللت عقدة من لساني. أنا رجل كتوم المشاعر، لا أحب مشاركة شعوري مع أحد، ولا اجيد ذلك أصلا
- غريب! مع أنك راوية جيد، تروي بصدق وسلاسة
- معك فقط يا روح، صدقيني فقط معك، مع الآخرين أكون شخصا صامتا ومملا
- هذا صعب التصديق، ولكن على كل حال دعني الآن اخبرك بقصة هذه الندبة. محاولتي للانتحار كانت مجرد حلقة في سلسلة طويلة من المشاكل النفسية التي مررت بها بسبب طارق
- طارق؟ من هو طارق؟

- طـارق زوج اختي الكبرى فـدوى، هو ابن عمي تقريبـا، فوالـده ووالـدي ابنـاء خـالـة، تزوج اختي الكبرى مبكرا منذ كنت في العاشـــرة من عمري، ومن ساعتها يعيش معنا في بيتنا الكبير، لديهم الآن اربعة اطفال اكبرهم في السادسة عشرة
- حسنا وما هي مشكلتك معه يا روح؟
- كان طارق مسؤولا عن توصيلي واختي الصغرى للمدرســة، وكأن أيضــاً يحضــر مستلزمات البيت، خاصـة عندما يكون أبي غائبا أو مسافرا في عمله، كان بمثابة فرد من الأســـرة وأخا أكبر لنا، نكن له كل الود والاحترام ونلجأ له في مشـــاكلنا. علاقتي معه كانت طيبة في الســـنوات الأولى، ولكن بعدما دخلت المدرسة الثانوية بدأ تعامله معي يختلف...
- كيف يا روح؟
- بدأ يتحرش بي...
- جنسيا؟
- نعم... لم أكن أفهم ما يفعله في البداية، كان يقترب مني ويقول "زيك المدرســي أصــبح ضــيقا عليك، انظري إلى هذا النتوء هنا"، ثم يشـــير إلى نهديّ الناميين، يلمســـهما برفق في البداية، ثم يعصـــر قبضـــته عليهما، يكرر ذلك كل يوم خاصـــة بعد أن اصـــبحت لحظات انفرادي به أكثر، فعندما نخرج

صباحا إلى المدرسة نوصل اختي الصغرى نجوى إلى مدرسة الأساس، وبعدها يقودني إلى مدرستي الثانوية، يستغرق المشوار إليها حوالي الربع ساعة، كانت بمثابة الجحيم بالنسبة إليّ. كنت أجلس في الكرسي الذي بجانبه في السيارة، وكان يدخل يده من تحت فستاني، ويعبث في فخذي، ويمد أصابعه المذنبة إلى ما تحت ملابسي الداخلية. أحيانا كان يخرج لي عضوه الذكري، ويجبرني على أن ألمسه أو أن أقبله...

- يا له من رجل وقح... لماذا لم تخبري أهلك عما فعله معك هذا المجرم؟
- فكرت كثيرا في اخبارهم، لكني كنت خائفة، هو قال لي يجب أن تبقي ما نفعله سرا لأنك إن أخبرت عن ذلك فسوف لن يصدقك أهلك، وسينبذونك، وربما يقتلونك لأنك فتاة سيئة الخلق وجلبتي عليهم العار
- ما هذا الكلام الفارغ الذي لا معنى له؟ أنت هنا الضحية وهو مجرم وقح
- أعلم ذلك الآن، ولكن ساعتها دفعني خوفي لتصديقه، فهو عظيم الشأن لدى والديّ، وأنا كنت فتاة مراهقة، وأمي وأخواتي كانوا دائمي الشك فيّ وفي سلوكي خاصة عندما اكتشفوا صورا

ومقاطع فيديو جنسية في هاتفي كانت قد أرسلتها لي إحدى صديقات السوء في المدرسة، من ساعتها بدأ أهلي دائما ينظرون لي بنظرة الريبة، ويتوقعون الاسوأ مني، ومنذ ذلك اليوم استغل طارق الظروف وبدأ رحلته الآثمة في التحرش بي

- وأين اختك من كل هذا؟
- فدوى تحب طارق جدا، ولا ترى فيه إلا كل شيء حسن، وفي نفس الوقت هي تشمئز مني، لا تحبني، وتقسو عليّ، وتقول دائما لأمي أن هذه الفتاة ستجلب علينا المصائب يوما ما
- وماذا جرى بعد ذلك؟
- استمر طارق في تحرشه اليومي بي، وكان يزيد في الجرعة، أحيانا يوقف السيارة في مكان خال ويجردني من النصف الاعلى من ثيابي ويعبث بناهديّ، وأحيانا يضعني في حجره ويحك عضوه في مؤخرتي، وأحيانا...

صمتت ليلي ووضعت كفها فوق وجهها تغالب البكاء. مرر ياسر يده فوق ظهرها بتحنان وقال

- تبا له، يا له من ذئب قذر، فليذهب إلى الجحيم

- لقد تعبت جدا يا ياسر من أفعاله بي، كنت لا أنام ولا آكل، شاردة الذهن أغلب الوقت، ضعف تحصيلي في المدرسة، وضعفت علاقاتي الاجتماعية، كنت أبقى وحدي في غرفتي بالساعات، أفكر كيف يمكن أنهي هذه المأساة السوداء، واتخيل كل السيناريوهات الممكنة، هل سيصدقني أهلي إن أخبرتهم؟ كيف سيتصرفون معه؟ هل سيطردونه من بيتنا؟ هل ستتطلق فدوى منه بسببي؟ هل سيحرم الأطفال الصغار من أبيهم بسببي؟ هل...

قاطعها ياسر بحدة...

- بسببك؟! عن ماذا تتحدثين يا روح؟! أنت لست السبب في أن زوج أختك وأبا أولادها ذئب مجرم متحرش...
- أعلم ذلك الآن، ولكن في تلك الأيام أحسست أني المجرمة، وأني المذنبة، وأني سبب هذه المصيبة، وذلك ما جعل حالتي النفسية تزداد سوءا، كنت مضطربة ومشوشة، سنين قضيتها على هذا الحال، أحاول أن أكفه عني، وأن أدفع شره. بسبب ما كنت فيه لم أحز مجموعا جيدا في الثانوية، ولم أجد

جامعة جيدة تقبلني، فأنتهى بي المطاف إلى كلية جامعية خاصـــة للعلوم الإدارية، لا تبعد كثيرا عن بيتنا. حررني ذلك من مشوار الصباح المزعج مع طارق، حيث كنت أذهب إليها وحدي ماشــية، لكن ذلك لم يردعه عن محاولات التحرش بي كل ما اختلى له الجو. اصبحت أكثر قوة في رفض أفعاله، لكني بعد لم اجرؤ على إخبار أهلي بما يفعله معي، إلى أن جاءت تلك الليلة التي تمادى فيها إلى أبعد الحدود...

- إلى أية درجة تمادى؟ هل وصــل الحد بهذا المجرم أن... أن ينتهك... ينتهك بكارتك؟
- لا لم يفعل، لكنه حاول. في ليلة ما كنت وحدي في البيت، وكان أهلي في عرس عند جيراننا، دخل طارق إلى غرفتي وألقاني على ســـريري بقوة، لم يكن يبدو عليه أنه في حالة طبيعية، لعله كان ســـكرانا، بعد أن دفعني على الســـرير بدأ يقبلني بعنف ويجردني من بنطالي وهو يقول لي"اليوم سأجعلك عروسا مثل بنت الجيران"، عندها بدأت بالصراخ، وفي رفسه وضربه، حتى تحررت منه، وركضت إلى المطبخ، وحملت سكينا رفعتها أمامه وأنا واقفة في قلب صـــالة بيتنا، عارية النصـــف

الأسفل، إلا من لباس صغير يغطي سوأتي، وقلت له "إن اقتربت مني خطوة فسوف أذبحك"

- وماذا فعل؟
- نظر إليّ باحتقار واستهتار ثم انصرف. تلك كانت اللحظة التي قررت فيها ألا أسكت عن هذا الأمر بعد الآن
- وماذا فعلت؟
- بدأت بإخبار أختي الصغرى نجوى وطلبت نصيحتها، صدقتني وتعاطفت معي، واشتعل رأسها غضبا من طارق، ولامتني على أنني سكت عنه كل تلك المدة، كان رأيها ألا أخبر أمي مباشرة، لأن ردة فعلها غير مضمونة، وأن أنتظر حتى يعود أبي من سفره وأتركه يتولى الأمر، قلت لها أن ابي ربما لن يعود قبل شهر وأن الموضوع لا يحتمل التأجيل، فهذا الوقح يزداد وقاحة كل يوم. قررنا أن نذهب لنخبر فدوى معا بأفاعيل زوجها وننظر كيف تتصرف، وفعلا ذهبنا وأخبرناها فانفجرت بالغضب والصراخ علينا حتى هربت نجوى وتركتني أمامها وحيدة. جرتني فدوى من شعري إلى غرفة امي، ورمتني تحت قدميها قائلة لها "انظري إلى بنتك العاهرة الصغيرة، تقول أن زوجي أنا يتحرش بها". نظرت أمي إليّ في

غضب وقالت "ما هذا الكلام يا بنت؟!"، قلت لها بصوت باك والدموع تنهمر من مقلتي وأنا أنظر اليها من أسفل وهي جالسة على سريرها "إنها الحقيقة والله يا امي... هو يفعل ذلك منذ سنين... واليوم كاد يغتصبني...". فجأة، أحسست بيدها تصفعني بقوة على وجهي حتى سقطت وارتطم رأسي بالأرض، وأخذت كلماتها الداوية تأتيني من بعيد "اياك أن اسمعك ثانية تقولين هذا الكلام. طارق رجل البيت، وكلنا نعرف شهامته وحسن اخلاقه يا فاسقة"

- يا إلهي! ما هذه القسوة!
- زادت الدنيا لحظتها إظلاما في عيني. زحفت على الأرض خارجة من غرفة امي حتى وصلت إلى غرفتي، ورميت نفسي على السرير أبكي بكل جوانحي. جاءت نجوى وجلست بقربي، وأخذت تبكي معي وتربت علي. بكيت كثيرا، لا أعرف كم من الوقت مر عليّ وأنا ابكي، أحس بالألم لتكذيب أهلي لي، وللصفعة التي جاءتني من أمي في اللحظة التي كنت أبحث فيها عن حضنها، ولترك أهلي لي وحيدة أواجه هذا الوحش بمفردي، إحساس بالخذلان واليأس والقهر عمرني، ولا حيلة لي الا البكاء

- وماذا حدث بعد ذلك؟
- رفعت رأســـي عن مخدتي المبتلة بالدمع بعد وقت طويل لا أعلم كم. وجدت الغرفة مظلمة، ونجوى على سريرها تغط في النوم، بقية البيت كان مظلما أيضـــاً. توجهت إلى المطبخ أتحســـس طريقي في الظلمة. أخذت ســـكينا من هناك، كانت نفس تلك الســـكين التي هددت بها طارق قبل يوم. عدت إلى غرفتي وجلســـت على ســـريري، وأخذت أمرر السكين ببطء على كفي، اختبر حدتها. بعدها رفعت وجهي باكية نحو السـماء وقلت "الهي سـامحني... فأنت تعلم حالي"، ثم وضـعت شـفرة السـكين فوق مفصـــل كفي، وبســـرعة وقوة مررتها عليه من الطرف للطرف، ومباشـرة دفنت وجهي في المخدة وصـــرخت من أعماقي من شـــدة الالم. تركت يدي المجروحة تتدلى من السرير وأنا اسمع صوت الدم وهو يندفع بقوة خارج شـــراييني، وأســـمع صـــوت انســـكابه على أرض الغرفة. فزعت أختي نجوى لصـــرختي فهبت من ســـريرها قائمة واضـــاءت مصـباح الغرفة، هالها منظر الدم ينسـكب دفاقا من يدي المجروحة فصـــرخت، دبت حركة في البيت من كل الاتجاهات، وســـمعت أصـــوات خطوات الاقدام الراكضة نحونا، ولمحت طيف الأنوار التي

بدأت تضـــيء في شــتى أرجاء البيت، لكن كل ذلك بدأ في التلاشـــي رويدا رويدا، الأصـــوات بدأت تخفت، والأنوار بدأت تظلم، وحتى الالم في يدي بدأ يزول، أحسست أنها النهاية، وكأني أيضا رأيت ملاكا من الســـماء آت الي ليقبض روحي، بدأت أرى لقطات من حياتي تمر أمام عيني، كأني أطالع شاشة سينما تعرض فيلما عن حياتي، رأيت نفسي وأنا في الروضــة ألعب مع الأطفال، ورأيت نفســي أنــام في غرفــة والــدي، بينهمــا في المنتصـــف، ورأيتني ألعب مع اخواتي في منتزه الألعاب، رأيت أشياء من هذا القبيل كلها طفولية، وكلها سعيدة، ثم غبت عن الوعي، ولم استيقظ الا في المستشفى...

- الحمد لله كثيرا أنهم أدركوك وأنقذوا حياتك
- نعم الحمد لله، وإلا فلن أكون هنا لأجلس معك هذه الجلسة الحالمة يا ياسر، غير أني في الحقيقة عندما اســـتيقظت احبطت جدا عندما أدركت أني لا أزال حية، لقد اســـتغرق مني الأمر بعض الوقت حتى أدرك أين أنا، أخبروني أني ظللت في غيبوبة لمدة يومين، وأنهم اجروا لي عمليــة ونقلوا لي ثلاثــة ليترات من الدم. عندما فتحت عينيّ وجدت أمي جالســة بجواري تبكي، وعندما انتبهت لاســتيقاظي قامت عليّ تحتضـــنني وتعتذر لي، وتعدني أنها لن

تتخلى عني أبدا. أبي أيضـــاً كان موجودا هناك في غرفة المسـتشـفى سـاعة اسـتيقاظي، يبدو أنه قطع عمله وسـافر على عجل عائدا بعد أن سـمع الخبر. لمحـت في عينيـه نظرة قلق وعتـاب، لكنـه لم يقل شـــيئا ســـوى "حمدا لله على ســـلامتك يا ليلى". اخواتي كذلك كانوا معي في المســـتشـــفى بما فيهم فدوى زوجة طارق، لكن نظرتها إليّ لم تكن نظرة رحمة أو تعاطف، وإنما كانت نظرة قرف وضـجر ملأتني خوفا وحزنـا، وجعلتني اتمنى أن أبقى في المسـتشـفى وألا اغادر، ولكن بعد أربعة أيام عدت إلى البيت

- وهل تغير سير الأمور مع طارق بعد هذه الحادثة؟
- نعم... أصـــبح يتجنبني تماما، ولم يعد يدخل إلى الجزء الخـاص بنـا في البيـت أو يوصـــلنـا في مشاويرنا خاصة بعد أن عينت أمي سائقا خاصا لنا يتولى هذه المسؤولية. ورغم أن أحدا لم يسـألني أو يناقشـــني بعدها عنه إلا أنه يبدو أن امي وفدوى قد قررا أن تسير الأمور على هذا النحو تجنبا للمشاكل ودرئا للفضـــائح. لا أعرف إن اطّلع والدي على الأمر أم لا، فهو أيضاً لم يناقشني، كل ما فعله كان أخذني إلى طبيبة نفسـية لابدا معها العلاج، وبعدها تركنا وسافر عائدا إلى عمله

- وكيف سار العلاج معك يا روح؟
- أني الآن أفضـــل بحمد الله. كانت الســـنة الأولى صعبة جدا، أحسست فيها بقتامة في نفسي، وسواد في معيشـــتي، تصـــيبني نوبات الرعب نهارا، وتجتاحني الكوابيس ليلا، أقضـــي جل وقتي وحدي في غرفتي أبكي، كنت فاقدة للرغبة في أي شـــيء، والدواء المضاد للاكتئاب الذي وصفته لي الطبيبة كان ســـما هاريا، يصـــيبني بالغثيان والاســـهال، ويجعلني لا أنام ليلا، وزاد من وزني، وبعد كل هذا لم ينجح في أن يحسن مزاجي أو يقلل من اكتئابي
- يا للهول! وكيف اذن تحســـنت؟ إني أراك الآن فتاة حيوية وسعيدة، تنشرين البهجة وتنثرين التفاؤل
- لو التقيتني قبل ســـنوات ثلاث يا ياســـر ما كنت لتعرفني. في الحقيقة ما ساعدني لم يكن الدواء بقدر ما كانت مجموعات الدعم
- مجموعات الدعم؟
- أجل، هي ملتقى لمرضـــى الاكتئاب والمتعافين، يلتقون ويحكون لبعضـــهم عن تجاربهم في المعاناة مع المرض، عن مشـــاكلهم التي ســـببت هذه الآلام النفســـية لهم، وعن محاولاتهم للتعافي. تكون هذه الجلســـات بصـــحبة معالج نفســـي يديرها، ويطبق بعض وسائل العلاج النفسي فيها

- حقـا؟ لم أكن أعلم بوجود مثـل هـذه الأمور في السودان
- هي شـيء جديد نسبيا، لكن صـدقني تأثيرها أفضـل من تـأثير كـل الادويـة، التقيت فيهـا بـأنـاس أعدهم الآن من أفضــل أصــدقائي، ندعم بعضــنا البعض، ويجد أحدنا عند الآخر قلبا يشكو له، وصدرا يرتاح عليه، ويدا حانية تربت عليه
- كم هذا جميل! الحقيقة لا يفهم مرض الاكتئاب إلا من عاشه. مجتمعنا للأسف مصاب بالأمية النفسية، وجـل النــاس هنــا يظن أن الاكتئــاب هو مرض رفاهية، ولا يعلمون أن المرض النفسـي أشد وطرا من نظيره العضوي في أحايين كثيرة

قال ياسر كلامه وسكت، وأرسل بصره يطالع النيل، وهو يفكر بأســى في زوجته التي لم تتفهم مرضــه، ولم تعترف بعلته، وكانت تعامله على أنه يتمارض، ويدعي اكتئابه كذبـا. هو إلى الآن لا يفهم من جـاءتهـا هذه الفكرة، كيف يمكن لشخص صحيح نشيط متحرك أن يختار بملء إرادته أن يضــغط على زر الاغلاق ويصــبح مجرد جثة خاوية لا روح فيها ولا حياة؟ لماذا لم تفهم ألا أحد يختار مرضه؟ هو فقط قدر هابط من السماء يصيب به الله من شاء أن يصيبه، فلماذا لم تتفهم أنه قد مرض؟ وأنه لا اختيار له في ذلك؟

وأنه لو كان الأمر بيده لاستمر شخصا نابضا بالطاقة، متدفقا بالحيوية، زوجا صالحا، ورب اسرة ملتزما، تماما كما كان قبل أن يمرض؟

- يا روح... أنا تأخرت، ويجب عليّ العودة إلى البيت الآن للأسف

سحبته عبارة ليلى من دوامة أفكاره، طالع ساعته، ثم نظر إلى ليلى وقال بدون مقدمات

- أنا احبك جدا يا روح

نظرت ليلى نحوه بعيون متسعة أخذت تمتلأ بماء الدمع أمام ناظريه، حتى سال بعد عدة ثوان على خديها. انتقلت عدوى الدموع إلى عيني ياسر، فتركها تنسكب رقراقة على وجهه ونظره مثبت على ليلى لم يتزحزح. غطت الفتاة وجهها بكفيها وانهمكت في البكاء بصوت أعلى وأنفاس متقطعة وياسر لا يزال ينظر إليها بصمت كناقد يتأمل في لوحة. بعد دقيقة أزاحت ليلى كفيها عن وجهها ونظرت بعينيها المحمرتين بكاءا إليه وقالت بصوت متهدج

- وأنا أحبك أكثر والله يا روح... أنا أكثر

-51-

قام ياسر من كرسيه مترنحا بخمرة الحب، يسير نحو فتحية لينقدها ثمن ما شرباه، يحس أنه يطير مع الهواء كنورس يحلق على شاطئ البحر، أو كأنه يمشي على الماء كما فعل السيد المسيح، تلتف الدنيا من حوله في سعادة، ويغني الكون معه في حبور. دفع لفتحية ضعف الثمن الذي طلبته، ثم أمسك بيد ليلى يقودها نحو السيارة التي لا تبعد عنه سوى أمتار، لكنه ابطأ في مشيه مستغرقا بكل حواسه في اللحظة، فالدنيا ضنينة بمثل هذه الأوقات فائقة السعادة، ولذلك إن جاءت فعلى الإنسان أن ينعم بكل ثانية فيها، وهذا ما فعله ياسر، فقدميه تستمتعان ببطء المشي بجوار قدمي ليلى، وأذنيه تستمعان إلى صوت الريح الذي يهنئه ويبارك له، وأنفه يسحب نسائم النيل الذي يحتفل معه، وعيناه تحول كل ما يراه إلي اللون الوردي، أما يده اليمنى فقد حازت من الشرف أرفعه... إنها تتقلب في جنة يد ليلى...

انطلقا بالسيارة نحو حي بري حيث تسكن ليلى. استعمل ياسر يدا وأحدة في القيادة وترك يده الاخرى مستسلمة لعناق يدي ليلى. قال لها

- أتعرفين كم أحسد يدي على ماهي فيه من النعيم؟

ضحكت ليلي ثم قالت

- هل تعرف أنت أنه لأول مرة يقول لي ولد أني أحبك؟
- لابد أن الأولاد في هذه البلاد قد أصيبوا بالعمى! لا يملك أي أحد مبصر تقع عيناه عليك إلا أن يحبك يا روح
- لكن أنت لست أي أحد يا روح... أنت أجمل حتى من أجمل أحلامي

انطرب ياسر لما قالته وابتسم منتصرا، لكن فجأة تبخرت نشوته، وحل مكانها القلق. صحيح أنه يعيش لحظة استثنائية السعادة لكنها لحظة محبوسة في سجن الحاضر ومستقبلها مجهول. كلام ليلى عن أحلامها ذكره بأنه على الأغلب لن يكون ذلك الفارس الذي يحققها لها، فالأحلام عند الفتيات تؤول دائما إلى فستان الزفاف الأبيض، وشهر العسل، والعيش في سبات ونبات، وإنجاب الأولاد والبنات، لكن ياسر يعلم أنه زاهد في ذلك كله، لأنه كفر بالزواج واسطورة الاسرة السعيدة أولا، وثانيا هو حتى لو اراد

انجاز ذلك فإن قيود الماضـــي تكبله، زوجته التي لم يتطلق منها بعد، وابناؤه غضو الأنامل، لا يستطيع تجاهل كل ذلك والابتداء من جديد في انشاء أسرة جديدة قد ينتهي مصيرها أيضاً إلى ما انتهت اليه سابقتها. صحيح أن قلبه يمتلئ بحب ليلى في هذه اللحظة التي لا يرى فيها على وجه الدنيا سـواها، لكنه يدرك ويتذكر جيدا عظم حجم محبته لسـارة ، ذلك الحب القديم الذي لا تزال بقايا منه مغروســة في عمق الفؤاد ومع ذلك لم ينجح في أنفاذ زواجه، لذا فالحب وحده لا يعول عليه، والاهم من كل ذلك أنه مريض مكتئب، نافر عن الدنيا غير مقبل، يتمنى الموت كل لحظة لينتشـــله من عبث الحياة على هذا الكوكب، انعزالي انطوائي منغلق، سوداوي المزاج نافق الروح، صحيح أنه يشعر بعكس كل ذلك الآن وهو بصحبة ليلى لأنها تنفخ فيه من روحها، لكنه لا يضـــمن أن يزول ســـحرها عنه بعد حين ليعود حطام انســـأن كما كان، وإنه لمن أعظم الظلم وأفدح الجرم أن يربط مصير أنشأنه شفافة رائعة كليلى بمصيره المشؤوم.

- أين سرحت يا روح؟

سـؤال ليلى نبهه ليخرج من قوقعة أفكاره ويعود لصـحبتها في السيارة...

- لا شيء يا ليلى... أنا فقط مستمتع باللحظة
- وأنا أيضاً يا ياسر، فاليوم بلا مبالغة هو أجمل يوم في حياتي
- أنت هي ينبوع السعادة يا ليلى. ما رأيك أن نحتسي شاي الصباح غدا معا أيضاً يا روح؟
- موافقة طبعا
- الساعة السادسة عند المستشفى؟
- اتفقنا

توقفت السيارة قرب بوابة المستشفى الكبير في بري. قبل أن تفتح الباب وتنزل امسكت ليلى بيد ياسر وضمتها على صدرها بقوة واغمضت عينيها تحتضنها. طراوة صدرها بثت الحياة في عضو ياسر تحت بنطاله واشتعل هرمون التيستسترون في قشرة دماغه، لكن اللحظة لم تطل، فقد افلتت ليلى يد ياسر ونزلت من السيارة وأشارت اليه مودعة قائلة

- لا أستطيع الانتظار حتى السادسة من صباح الغد... سأشتاق إليك جدا
- وأنا سأشتاق إليك أكثر يا روح

ولت ليلى ظهرها وانصرفت في طريقها، بقي ياسر يراقبها في مرآة سـيارته حتى أرسـلت له تحية من بعيد ثم اختفت، وقبل أن ينطلق نظر إلى الأسـفل، إلى عضـوه المنتصـب الذي سبب انتفاخا تحت بنطاله وقال

- مرحبا بعودتك... لقد مضى زمن طويل يا صاحبي!

-52-

عاد ياســـر إلى بيته في حي الملازمين في أمدرمان وقد غابت الشـمس. أوقف سـيارته أمام المدخل ونزل، وقبل أن يدخل ناداه صـوت من ورائه "ياسـر..."، التفت لمصـدر الصـوت فوجده شـاب يرتدي جلابية بيضـاء، حاول إمعان النظر في وجهه على بقايا الخافتة لخيوط الشـمس الغاربة حتى تبينه، إنه أسامة، جاره وصديقه القديم. تعانق الرجلان وتبادلا التحايا

- حمدا لله على سلامتك يا ياسر
- سلمك الله يا اسامة
- متى الوصول؟
- منذ أسبوع تقريبا

- نورت البلد... حدثني عن أخبارك وأنبائك
- حسنا تفضل أدخل إلى البيت
- لا داعي لذلك... أنا عائد من صلاة المغرب وسأخرج في مشوار بعد قليل إلى الخرطوم. دعنا نجلس على تلك المصطبة استأنس معك قليلا ريثما أشرب سيجارة

توجه الجاران إلى المصطبة قبالة باب بيت ياسر وجلسا عليها. أشعل أسامة سيجارته بينما قال ياسر

- تقبل الله
- تقبل ماذا؟ شرب السيجارة؟
- بالطبع لا! ألم تقل أنك عائد من صلاة المغرب؟
- بلى... منا ومنكم... بالمناسبة لم ألمحك في الجامع خلال هذا الأسبوع
- أنا أصلي هناك الفجر فقط في بعض الأحيان
- ولماذا الفجر فقط؟ أي مذهب هذا؟
- إنه مذهبي الخاص
- ولماذا تتخذ مذهبا خاصا بك ولا تتبع مذهب الجماعة؟
- الحقيقة أن لكل انسأن مذهبه الخاص في علاقته مع الله، فالعبادة سر بين العبد وربه، شأن فردي

محض، ولهذا فإن كل فرد يوم القيامة سيحاسب لوحده، ولا يوجد اثنان على ظهر هذه البسيطة لديهما صورة متطابقة عن الله، ثم إنك شخصيا لا تتبع مذهب الجماعة بسيجارتك هذه... ألا تعلم بأنهم يقولون بأن التدخين محرم

- نعم أعلم ولكن ماذا افعل؟! هو شر ابتليت به واسأل الله أن يخلصني منه
- رغم أني لا أدخن لكنني أعرف كم هو صعب إدمان النيكوتين، رغم أنه مادة طبيعية موجودة في نهايات الخلايا العصبية لتنقل ينها الاشارات العصبية كيميائيا إلا أنه من العجيب أن تلك المادة تمنح المدخن راحة بعد توتر، وسكينة بعد قلق، وتجعله صافي الذهن مقبلا على البهجة مبتكرا للخيال. جل الفنانين والمبدعين وحتى العلماء هم من المدخنين. إن لنبتة التبغ أفضالا على البشرية برغم كل ما سببته من أمراض وآلام
- لكنني فقط أدخن... لست عالما ولا فنانا ولم ابتكر أو أبدع شيئا، أنا فقط أحرق رئتي وجنيهاتي القليلة من أجل اتحمل قرف العيش في هذه البلاد

فلتت ضحكة من ياسر على وقع كلام أسامة التشاؤمي ولكن في نفس الوقت الواقعي إلى حد كبير. أردف أسامة

- ما أجمل أيامنا الخوالي معا، لا هموم ولا مسؤولية، فقط لعب ومرح وكوتشــينة، لكن العمر تقدم والبلد تراجعت. ما الذي أتى بك يا ياســر من أمريكا إلى جهنم؟
- أتيت لاحترق معكم في نارها
- اهو احتراق على سـبيل التغيير في إجازة قصـيرة تعود بعدها إلى الجنة؟
- لا... لقد تركت أمريكا وأنوي الاستقرار هنا
- هـل أنـت مجنون؟! كـل من في هـذه البلاد يحلم بمغـادرتهـا غير آســف عليهـا وأنـت تـأتي اليهـا طوعا؟! أصدقني القول، هل طردتك الـــ CIA من هناك؟
- لا، طردتني نفسياتي المكتئبة
- مكتئبة؟! وما الذي يجعلك تكتئب؟ هل أوضـــاعك المالية سيئة؟
- لا، وضعي المالي على أحسن ما يرام الحمد لله
- هل أولادك بخير؟
- هم بخير الحمد لله
- اذن ما بك؟
- قلت لك، مصاب بالاكتئاب
- وما الذي يجعلك تكتئب؟

- يصعب الجواب عن هذا السؤال... مبدئيا ليس بالضرورة أن يكون هناك سبب. الاكتئاب هو مرض والبشر معرضون للإصابة بالأمراض، فكما ارتفاع ضغط الدم والروماتيزم والأورام يمكن أن تصيب الإنسان دون أن يستطيع دائما ربطها بسبب فكذلك هو الاكتئاب، أحيانا يكون سببه واضحا، حالة حزن عميقة مستمرة تأتي بعد حادثة ما، لكن في بعض الأحايين يكون السبب غامضا، أو تكون أسبابا متعددة لا علاقة مباشرة بينها. في كل الأحوال تكون النتيجة أن يصبح الشخص مكتئبا
- وهل أنت مكتئب الآن؟
- نعم أنا كذلك، صحيح أني أفضل حالا خاصة اليوم، لكن الاكتئاب مرض مزمن، ليس فقط سوءا مؤقتا في المزاج وإنما هو وضع أكثر استدامة واستطالة، حالة حزن وقتامة شديدة وعميقة لا تنتهي، أفكار سوداوية سلبية مذنبة وانتحارية أحيانا، تعب وارهاق من الحياة وتطلع للموت
- معقولة؟ كل ذلك؟ لا أراك إلا صحيحا معافى البدن
- لأن المريض ليس جسدي وإنما هي نفسي التي لا تراها. ربما يكون بدن المكتئب في أحسن حال لكن نفسه هي المعطلة، تماما كعربة حديثة وجميلة

لكنها خاوية من الوقود، جســـد بلا روح. المكتئب يكون خائر القوى معدوم الطاقة، لا قدرة له على القيام بأبسـط الأمور، ولا رغبة له أصـلا في القيام بها، حتى الاشـــياء التي يحبها يتركها ويمقتها، أضـــف لذلك اضـــطرابات النوم وســـهر الليالي، وانعدام الشهية واختلالات الاكل، أوجاع في الجسم وارتباك في التركيز والذاكرة، انحدار الثقة في النفس وتدهور المهارات الاجتماعية، كلها أشـــياء تجعل من حياة المكتئب جحيما أســـوأ من جحيم السودان الذي تشتكي منه

- عجيب... وهل كل ذلك حدث معك بلا ســـبب واضح؟
- الحقيقة أني لا أدري... كنت أنســـانا عاديا، أعيش وسط أسرة سعيدة، ولدي عمل جيد ودخل ممتاز، لا اتذكر بالضـــبط متى بدأ تدهوري، لكنه بدأ تدريجيا على أية حال مع إحساس متعاظم بالإرهاق وشعور متضخم بالحزن والضجر. أخذ كل شـيء يتصـاعد خلال العامين الأخيرين حتى وصـلت إلى قمة قاع الاكتئاب، وأصـبحت مثل تلك السـيارة بلا وقود التي حدثتك عنها، مجمد في مكاني لا اتفاعل ولا اســـتجيب، كرهت الدنيا وتعاظمت رغبتي في تركها، لكنني أفكر في أســرتي، يقتلني إحســـاسـي

بالذنب تجاههم، فوجودي معهم معطلا يؤذيهم، وتركي لهم رائي في هذه الدنيا يؤذيهم، لذلك قررت مبدئيا أن أرحل عنهم واعيش هنا حتى يقضي الله في شأني

- كم هو عجيب ما تقول!
- أتفهم حيرتك، فثقافة الطب النفسي في السودان قاصرة، ورغم أن الاكتئاب هو أحد أكثر الأمراض المزمنة شيوعيا في العالم ومن أكثرها تأثيرا على الاقتصاد وهدرا للموارد والطاقات لكننا في بلادنا هذه لا نعرفه، ربما هو غير موجود رحمة من الله بسكان هذه البلاد المنحوسة، وربما هو موجود لكننا لا نحس به، لكنه مرض معلوم ومنتشر في شتى البلدان خاصة في العالم الأول، وهناك نوع منه يسمى متلازمة الاحتراق الكلي، وهي تحدث عندما يتعرض الإنسان لضغط نفسي عالي سواء في حياته المهنية أو الشخصية لمدة طويلة ويقاومه إلى أن يحترق ويصبح رماد أنسان. هذا النوع هو أكثر سوءا حتى من الاكتئاب العادي لأنه يجمع العديد من الأعراض الجسدية والنفسية، مثل الارهاق الحاد وعسر النوم وتشتت التركيز ونوبات الهلع، كما أن الأدوية المضادة للاكتئاب ليست بذات فاعلية معه. هل تعلم يا أسامة أن

المصـــابين بهذا المرض يمكن أن يمنحوا إجـازة مرضية لسنوات حتى يستطيعوا التعافي، والبعض منهم لا يتعافى أبدا منه

- لأول مرة اسمع مثل هذا الكلام!
- لا عجب في ذلك، فما نعرفه في هذه الحياة ما هو إلا قطرة في بحر ما نجهله، ثم إن هناك أمورا لا يخبر حقيقتهـا إلا من جربهـا، فلا يعرف طعم المانجا مثلا إلا من ذاقها
- يغلب على ظني يا ياسـر أن هذه الإمراض تنتشـر في بلاد الكفـار أكثر من بلادنـا لافتقـارهم إلى الإيمان
- ربما... ولكن ليس من السـهل التيقن من هذا الأمر وإن بـدا بـديهيـا. منـذ أن اكتئبـت وأنـا أقرأ عن الاكتئـاب وأتـدارس معـارفـه وأحـاول أن ألمّ بـأكبر قدر من علومه لعلي أن أجد شـيئا يخرجني من مستنقعي، ومما قرأت أن الدراسات النفسية توضح بشـكل لا لبس فيه أن نسـبة المنتحرين من اللا مؤمنين تفوق نسـبتهم من أولئك المؤمنين بأي دين، اذن ربمـا يقي التـدين من الانتحـار ولكن ليس بالضـرورة من الاكتئاب. جل الأديان تقدس الحياة وتجرم أنهـائهـا ولـذا ليس من الغريـب أن يتجنـب المؤمن الانتحار كي لا يلقى وبالا في حياته الآخرة

التي يؤمن بها، بينما غير المؤمن فلا شــيء يردعه عن التخلص من حياته وأنهاء مأســاته. أما ســؤالك عن الدين والاكتئاب فلا جواب قاطع لي عنه، لكن الذي لاحظته في نفســـي أنني لم أعد مؤمنا تقليديا مثل بقية أفراد ملتي كما كنت ســابقا، بل أصــبحت أكثر ميلا للتصوف والتأمل وخلق علاقتي الخاصة مع الله التي لا تنصــاغ لفقه الشــيوخ، لكنني لســت متأكدا بالضــبط إذا ما كان هذا التغيير قد حدث قبل اكتئابي أم بعده؟ هل خروجي من الحظيرة التقليدية كان هو ما تســبب في اكتئابي أم أنه كان نتيجة له؟ الحقيقة أني لســـت أدري... لقد حاولت أن أعود متدينا عاديا مثلك اؤدي الفرائض والنوافل واجتهد في العبادات والطاعات كما كنت سـابقا غير أني لا أجد طاقة لذلك ولا دافع، فاكتفيت بمحاولة أن اكون انســانا صــالحا يخشــع وجهه لله على مذهبي، ولا أعرف إن كان هذا صــوابا أو حماقة، فتفكير العقل المكتئب مشوش وملبد يصعب فيه تمييز الاتجاهات وفرز الصواب عن الخطأ

- الآن عرفت ما أكئبك... بعدك عن الله وعن الدين هو السبب
- وكيف ابتعد عن الله وهو أقرب الي من حبل الوريد ومعي أينمـا كنـت؟! أنـا أعيش في كون الله اتنفس

برحمة الله وأسيح في ملكوته، لكني اتفهم ما ترمي إليه، فمتدين تقليدي مثلك يستقي كل معرفته عن الله من افواه الشيوخ فقط دون أن ترهق نفسك في التفكير في الأسئلة الوجودية الكبرى التي تهز مكامن القلق في نفسنا البشرية الضعيفة حتى تخوض تجربتك الروحانية الذاتية وتتلمس طريقك نحو الله..

- ما هذا الشطح يا ياسر؟

ابتسم ياسر لدى سماعه تعليق صاحبه وقفز ذهنه لا إراديا إلى أبي يزيد البسطامي صاحب الشطحات. ازدادت ابتسامته اتساعا قبل أن يقول

- كلام ظاهره قبيح وباطنه صحيح
- ماذا؟؟
- تعريف الشطح عند الصوفية

بقي أسامة ينظر إليه لبرهة ممتعضا قبل أن يستنجد بنفس من سيجارته. "يا له من بريء... ماذا سيحدث لو عرف شيئا عن البسطامي؟" فكر ياسر في نفسه وهو يحس أنه قد أثقل على صاحبه في الكلام فقرر أن يلملم أطراف الحديث

- لقد طال حديثنا عن الاكتئاب يا أسـامة وأراك قد اشعلت سيجارتين عوضا عن واحدة
- فعلا لقد تكلمت كثيرا يا صـديقي. ألم تقل قبل قليل أن مرضى الاكتئاب يفقدون الرغبة في الكلام؟؟
- مضى زمن طويل منذ أن أسهبت في الحديث بهذه الطريقة يا أسـامة، ربما لأنك وجدتني اليوم رائق المزاج سعيدا ومستبشرا على غير عادتي، لكن دعني أنهي معك هذا الحديث المطول بأن اؤكد لك هذه النقطة مجددا، أنه ليس بالضـرورة أن يكون هناك سبب واضح وراء اكتئاب المكتئب. ألم تسمع كثيرا عن ممثل مشـهور أو مغنية معروفة ماتوا منتحرين؟ هؤلاء توفرت لهم كل مباهج الحياة مما يمكن أن يحلم به أي شـخص، المال والشـهرة والصـحة والقوة والجاه، تركوا كل ذلك ورائهم وأنهوا حياتهم هربا من هذا العالم. قد يستعجب الكثيرون ذلك لكني لا أفعل، فإن نفسـنا البشـرية لهي كينونة معقدة لا يمكن اختزالها في عناصـر معدودة، أمراضـها أكثر غموضـا واشـد تعقيدا وأصعب علاجا من الامراض التي تصيب الأجساد

قام ياسر عن المصطبة رافعا جلسة نقاشهما

- والآن هيا قم يا اسـامة... ألم تقل أن لديك موعدا ما في الخرطوم تريد لحاقه؟

نظر اسامة في ساعته ثم ضرب جبهته بيده قائلا

- رباه لقد تأخرت... إلى اللقاء ايها المكتئب

أنصـرف اسـامة مسـرعا ودخل ياسـر إلى بيته، أخذ حماما وخلد إلى فراشـه. إنه يريد أن ينام سـريعا كي تمضـي الساعات على عجل حتى يلتقي بليلى من جديد

-53-

في الخامسة إلا الربع صباحا رن المنبه الذي ضبطه ياسر في هاتفه المحمول. استيقظ نشيطا وقفز من فراشـه متجها إلى الحمام. أخذ يتوضـأ وصـوت نداء إقامة صـلاة الفجر يتهـادى إلى أذنيـه من بعيـد. ارتـدى (جلابيتـه) وخرج من داره يمشـي بحماس كي يدرك الركعة الأولى. وقد أدركها بالفعل لأن الأمام تطاول في القراءة، وكذا فعل في الركعة الثانية مما جعل ياسـر يسـرح بخياله"لماذا يتعمد هذا الأمام السـخيف إطالة القراءة هكذا؟ أيعتقد أن صـوته حسـن؟

طريقة قراءته بشعة واحكام التجويد عنده مكسرة... أيريد استعراض كم حفظه؟ تبا له...أ يعرف أن من السنة التخفيف؟ لو أطال أكثر من ذلك فسأقطع صلاتي وأصلي منفردا وليحمل هذا الأمام المتقارئ وزر ذلك". أخيرا كبر الامام راكعا فتنهد ياسر مرتاحا وعاد يحاول إعادة الخشوع إلى صلاته بعد أن اطمئن الآن أنه سيكون هناك متسع مريح من الوقت للحاق بميعاد ليلى

سلم الامام فسلم المأمومون خلفه وشرعوا في استغفارهم واذكارهم. تلفت ياسر يتفحص المصلين فلم يجد أسامة. ضحك في نفسه، فقد بدا له غيابه عن صلاة الصبح هزليا وهو الذي كان بالأمس يناقشه بحماس عن التمسك بالدين. فكر ياسر "ألا يجعله غيابه عن صلاة الفجر في خانة المنافقين يا ترى؟" طرد عن رأسه هذه الفكرة الفقهية سريعا، فقد تعلم من الأدبيات الصوفية التي قرأها ألا يقتصر حكمه على الظاهر، فكم من اسرار في بطن الباطن، وتذكر نفسه قديما عندما كأن يأتي لصلاة الصبح فقط مراعاة لوالده، اذن فليس كل من غالب النوم وجاء يصلي هنا في المسجد بأفضل ممن فاتته الجماعة وصلى في بيته. كم من أسرار في القلوب لا يعلمها الا علام الغيوب ومقلب القلوب.

خرج من المســجد وارتدى نعاله وأنطلق يمشـــي عائدا إلى داره. صـــادفه مؤيد صـــاحبه في الطريق يســير في دربه، فتسالما وتكلما

- أين أنت يا ياســر؟ لقد اختفيت بعدما ألقيت لي تلك المحاضرة عن قدم العالم الحديث...
- أنا موجود يا مؤيد، لعلك أنت المختفي
- معك حق، جري الدنيا ومشاغل الحياة
- فليعنك الله
- كم أود أن نلتم ونلعب الكوتشينة كما كنا نفعل قديما في الأيام الحلوة
- إنها فكرة حسنة. البارحة تذكرناها أنا وأسامة
- لكن ينقصــنا لاعب رابع ليتم ثلاثتنا. لقد فرغ الحي من الشـباب، كلهم تغربوا في أنحاء الدنيا وتركوني مع أســامة فقط نتقلب فوق أشـواك هذا البلد، لذا كم أنا سعيد بوجودك معنا يا ياسر
- لا عليك ســنجد أحد ما. عمر ابن عمي موجود في العاصــمة هذه الأيام وهو لاعب جيد. صــحيح هو مشـغول بالاسـتعداد لامتحان التخصـص ولكن لعله يجد لنا من وقته قليلا
- جميل... اذن ســأتصـــل بك قريبا كي نرتبها معا. سلام يا صاحبي

- مع السلامة يا مؤيد

أعطى ياسـر ظهره لصـديقه وزلف إلى داره، وأخذ يتذكر الأوقات الكثيرة والسـعيدة التي قضـياها قديما في لعب الكوتشينة، كانت من الأشياء التي يعشقها ويهدر فيها وقته بإسراف ببالغ السرور. لا يتذكر متى كانت آخر مرة لعب فيها، فالكوتشينة مثلها مثل الكرة والقراءة ومشاهدة الافلام ومثل استماع الأغاني كلها كانت أشياء يحب ياسر عملها لكنه رغب عنها في السنين الاخيرة بسبب نفسيته السيئة التي لم تعد تستمتع بشيء، ولم تعد لديها الرغبة في القيام بشيء، ولكن استجابتها الآن لدعوة مؤيد للكوشتينة لهي علامة إيجابية جدا، فهي تعني على الأقل أن فتاتا من رغبة أصبح لديه لعمل شيء ما. "يا سلام... ما أجمل هذا الشعور... بركاتك يا شيخة ليلى" ردد ياسر في نفسه مبتسما ثم ارتدى ملابسه وانطلق إلى الخرطوم تحت الاضواء الخافتة للأشعة الأولى للشمس التي بدأت تشرق على العاصمة.

ما أن ركبت بجواره في السيارة حتى أمسكت ليلى بيد ياسر ورفعتها إلى شفتيها تقبلها بنهم وهي تقول "وحشتني شديد يا روح". أخذ ياسر يتأمل مخمورا في هذا المنظر، في عيني ليلى العسليتين الواسعتان اللتين تقطران بالحب، في شفاهها المكتنزة الممتلئة بطاقة التقبيل، في قميصها الوردي الجميل الذي يبرز تقاسيم صدرها الثائر، في وجهها الناصع الذي يلمع كالبدر وهو ملفوف بهذه الطرحة الزرقاء الداكنة، في تنورتها الجينزية التي تشبه تماما نفس الجينز الذي يرتديه هو بنطالا، في حذائها الرياضي الوردي الذي يماثل لونه لون قميصها، وفي جوربها الأبيض القصير الذي بالكاد يمتد فوق حذائها مظهرا جزءا يسيرا من ساقها يتلألأ مثل قطعة من العاج بين النهاية السفلى للجينز الازرق وتلك العليا للجورب الابيض.

- يا روح

افاق ياسر من غيبوبته ورد عليها

- نعم يا روح
- وحشتني جدا
- وأنا أكثر والله يا ليلى
- ما بك كنت صامتا؟

- كنت اتأمل فيك، أحس وكأني في حلم، لا أعرف إن كنت صاحيا أم نائما

اقتربت ليلى بجسمها من ياسر ثم نظرت حولها للبشر الكثر العابرين حول مستشفى بري الكبير. عادت بجسمها للوراء وقالت في حسرة

- كم بودي أن احضنك
- وأنا كذلك
- لكن لا ينفع هنا مع هذه العيون الكثيرة من حولنا
- للأسف

سكتت ليلى قليلا ثم قالت بصوت متردد

- كم اتمنى أن أكون معك في مكان مغلق

عمت ياسر المفاجأة، فهذا بالضبط ما يتمناه هو، لكنه كتم ذلك في نفسه، فليس من اللياقة أن يدعو بنتا كليلى إلى ذلك، ولكن طالما هي من بدأت بإثارة الموضوع فليستغل الفرصة.

- بيتنا هو مكان مغلق لو تحبين

- ألا أحد هناك؟
- فقط عم زكريـا الغفير، وغرفتـه في الجزء الخلفي من البيت
- وإذا رآنا أحد من الجيران؟
- لا يهمونني ولا يعنونني في شيء، إلا إذا كنت أنت تهتمين
- ألن تفكر في أنني بنت سيئة إذا ذهبت معك؟

أمسك ياسر بيديها بين يديه وقال بنبرة عميقة وصادقة

- لا يوجد شـــيء في هذا الكون يمكن أن تفعليه يا روح لينقص من نظرتي اليك، أنت لا تعرفين كيف تراك نفسي، أنا لا أحبك فقط، إني اقدسك يا ليلى

ابتســـمت ليلى ولم ترد وظلا صـــامتين لبرهـة متعـانقي الايادي. سحب ياسر أخيرا يده وأدار محرك السيارة وقال

- دعينا فقط نذهب إلى الشـــاي كما اتفقنا، فشـــرب الشاي على النيل معك لهو من نعيم الجنة
- وأنا أحب جلســة النيل معك، لكن بداخلي طاقة من الشوق تلح عليّ أن اعتنقك وأن اقبلك

- افهم ذلك فما بداخلي اضعاف ما بداخلك، لكني افهم أيضـاً أنه ليس من السـهل على فتاة مثلك أن تحطم كل ما تربت عليه من قيود وترافق رجلا غريبا إلى بيته
- أنت لست غريبا يا ياسر
- بلى أنـا كـذلـك، فقبـل اسـبوع فقط لم نكن نعرف بعضنا
- ليس صـحيحا، أنـا أحس أني اعرفك منـذ زمن طويل، وأنتظرك منذ زمن طويل، واحبك منذ زمن طويل
- الله...

قالها ياسر متبتلا واستسلم صامتا للنشوة الزاحفة في جسده التي أحدثتها كلماتها. قالت ليلى

- خذنا إلى البيت يا ياسر
- هل أنت متأكدة يا روح؟
- نعم متأكدة
- حسنا اذن

غير ياسـر مسـاره متوجها إلى أمدرمان عبر بحري غير مصدق لما يحصل له، لا يستوعب أنه سيذوب في أحضان

ليلى بعد قليل، كم هو جميل القدر عندما يبتسم، وكم هي حلوة الحياة عندما نلتقي فيها بالشخص الذي يمدنا بها، وكم هي فاتنة ليلى ورائعة مبادراتها، كأنها تقرأ ذهن ياسر وتستشف عجزه وتبادر هي عوضا عنه بكل ما يرغب فيه، أنها ساحرة، قطعة سماوية معجزة.

عبرت السيارة كوبري بحري وواصلت طريقها باتجاه كوبري شمبات. توقف ياسر في إحدى البقالات يشتري حليبا وعصيرا وكعكا ليعوض به شاي النيل الذي تجاوزته الأحداث. تزود أيضاً ببعض المأكولات الخفيفة فمطبخه خاو على عروشه، وعاد يقود سيارته باتجاه بيته. اتصلت ليلى بزميلتها في البنك لتخبرها عن عدم قدرتها على القدوم اليوم لاستلام شهادة تدريبها، تعللت بظرف ما وطلبت منها الاحتفاظ بها حتى تستلمها منها في وقت آخر. ابتسم ياسر وهو يستمع للمكالمة، لا يصدق مجددا أنه سيقضي هذه الساعات الطويلة مع أكثر انسأن يحبه على هذه الأرض، أجل إنه في هذه اللحظة يحب ليلى أكثر من أبنائه، ومن زوجته السابقة التي لا يزال محتفظا بوده لها، ومن والديه الراقدين في بطن الأرض، ومن عمته خديجة، وحتى من نفسه.

عند ناصـية شـارع البيت توقف ياسـر بالسـيارة ونظر إلى ليلى ثم اشار لها قائلا

- ذلك يا ليلى هو بيتنا
- ما شاء الله... إنه بيت جميل
- أما زلتي متأكدة أنك تريدين فعل هذا؟
- أجل أنا متأكدة
- بإمكاني ارجاعك الآن لو أحببتي، فأنا لا أريدك أن تفعلي شـيئا تندمين عليه، أو تلومين نفسـك عليه مستقبلا
- لا يا روح... أنا أدرك ما أريد
- حسنا اذن... وفي أية لحظة أحسست أنك لا ترغبين في المواصلة يمكننا أن نغادر فورا
- جميل... هيا بنا لا تؤخرنا أكثر من هذا

انطلق ياسـر بالسـيارة مجددا حتى أوقفها أمام باب الجراج. نزل وفتح الباب وهو بعد لا يزال غير مصـدق أنه سـيلتحم بحضـن ليلى بعد قليل. أدخل السـيارة إلى الجراج واغلق بابه، ثم توجه لباب الدار وفتحه وبعدها أشـار إلى ليلى بالنزول فنزلت ودخلت إلى الدار. أخذ ياسـر يتأملها بلهفة وهو يحس أنه يحلم، فها هي ليلى تقف الآن في قلب الصالة

كشمس متوهجة. قال ياسر لنفسه "رباه... ما أجمل حياتي في هذه اللحظة".

-55-

بعد أن دخلا إلى المنزل في خلسة مسرعة أغلق ياسر ورائهم الباب بالطبلة والمفتاح، ثم التفت إلى ليلى ليراها واقفة في منتصف الصالة تنظر إليه، وعيناها تقطران لوعة وشهوة. اقترب منها فاندفعت نحوه وطوقته بذراعيها تحتضنه بوجد متدفق، اعتصرها بين ذراعيه حتى ارتطم صدره القاسي بصدرها اللين، أرخى رأسه عليها بين رقبتها وكتفها الأيمن وأخذ يشتم عبيرها بأنفاس متقطعة لاهثة كمن يقاوم الغرق، أما هي فدفنت وجهها في المنطقة الحدودية بين رقبته وصدره، وأغمضت عينيها وتركت أحاسيسها الجامحة تجرفها بضراوة إلى جنات عدن.

مرت دقائق وهما على حالهما، متحاضنين وقوفا في قلب الصالة، وأشواقهما تشع منهما في كل اتجاه كشمس النهار. رفع رأسه أخيرا من على كتفها، ومد يده يرفع ذقنها بحنان لينظر عميقا في عينيها المسبلتين. شفتاها المرتجفتان بالولع قدما له دعوة مفضوحة للتقبيل فلم يتأخر عن الاستجابة،

والتقت الشـــفاه الأربع في قبلة طويلة، بدأت بإيقاع بطيء، قبل أن تتسـارع وتشـتعل وتضـطرم معبرة عن شـوق طال كبته وعطش يرنو للارتواء.

أنهى القبلة بعضـة ودودة على شـفتها السـفلى وتأمل وجهها الهائم في سماوات العشق. بسرعة وخفة وضع إحدى يديه خلف ظهرها، وأخرى خلف ركبتيها، وحملها عن الأرض. احكمت ليلى قبضـــة يديها على عنقه في حركة تلقائية تصـدرها الاجسـاد الآيلة للسـقوط، قبل أن تدفن رأسـها في صدره وتقول بدلال "أنزلني يا ياسر".

ابتسـم ولم يرد، وتحرك بها عبر الصـالة نحو غرفة النوم، هناك ألقاها على سريره ثم ألقى بنفسه فوقها، وأخذت شفتاه تمران على أزهار جنتها، لم يترك سـنتيمترا واحدا فيها دون أن يقبله، كان يدخل برأسـه تحت ثيابها مقبلا ولاعقا وعاضـا، كل غرائز أسـلافه من وحوش الكهف اسـتيقظت لديه في تلك اللحظة. عبر العنق إلى الصـدر ثم البطن، بعدها توقف عن الحدود العليا لتنورتها ولم يواصـل الرحلة بل صـعد عائدا حتى وصـل إلى شـفتيها الشـهيتين، طبع عليهما قبلة نهمة ثم اسـتلقى بجوار ليلى. فتحت هي عينيها ناظرة إليه فوجدته قد هدأ فجأة بعد ثورته وعيناه تطالعان السقف بلا هدف وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة مسترخية،

ثم لمحت دمعة تنزلق من ركن عينه اليمنى سحبتها الجاذبية للأسفل حتى استقرت في تضاريس إذنه. مسحت ليلى أثر الدمعة، وأبقت كفها ملتصقا بصدغه، وارتفعت برأسها ليجابه رأسه، ونظرت في عينه الزائغة عن لقاء عيونها ثم سألته:

- ماذا بك يا روح؟

أخرج ياسر زفرة حارة من صدره ثم قال بصوت متهدج وعيون تائهة

- أنا سعيد للغاية يا ليلى... سعيد بطريقة تعجز اللغات عن وصفها...

ابتسمت ليلى وهي تحرك كفها على صدغه، تمسح بعض دموعه المستمرة في الهطول. أطلق ياسر زفرة حارة أخرى من صدره ثم أضاف بصوته المختلج

- أحبك جدا يا ليلى... مجرد تفكيري في الاقتراب من جناتك كان يغمرني بالقشعريرة، فكيف وأنا الآن أتقلب فيها، لذلك سامحيني إن توقفت قليلا

لأجمع شتات نفسي التي اعتادت الشقاء ولم تذق من قبل مثل هذا النعيم...

اغرقتها كلماته في طوفان من الارتعاش، اكتفت بالصمت الذي استمر لثوان طويلة بدت وكأنها دهور، عيناها المرورقتان بالدمع تثقبان أغوار عينيه المسبلتين التين تنظران بلا هدف إلى ذلك الخط الذي يلتقي عنده الحائط بالسقف، ويدها اليسرى لا تزال موضوعة بحنان على صدغه الأيمن بينما نظيرتها اليمنى قد استلقت مع ساعدها بأريحية فوق صدره. كانت هذه وأحدة من تلك اللحظات التي يتوقف فيها الزمان ويتلاشى فيها المكان وتتوحد فيها الابعاد وينكمش الوجود ليعود إلى تلك النقطة التي بدأ منها كل شيء، ومنها انفجر كل شيء، الحب... فلولا هذه المحبة ما ظهر العالم كما قال السادة العارفون.

دمعة انسلت من عين ليلى لتسقط مباشرة على عين ياسر كانت هي السبب الذي أخرجهما من تلك اللحظات البرزخية لتعيدهما إلى دنيا الحواس المتعطشة. أسقطت ليلى نفسها عليه فارتطم صدرها بصدره، وأشواقها بأشواقه، فأحييت الكائن الشهواني النهم من رفات الصوفي المتبتل، فهرع يحرث خلاياها لمسا ومسكا، ويزرع القبلات في شتى اجزائها، حتى وصل مجددا إلى الحدود الجنوبية، وحزام

تنورتها الذي يقف حارســـا لها، واتته الرغبة في تمزيقه ومواصـلة اسـتكشـاف هذه الأرض البكر، قبض عليه بكلتا يديه ليســحبه إلى الاســفل ويبعده عن طريقه، ولكن في اللحظة الأخيرة تمكنت بقايا من أخلاق في كبح جماح نفسـه الراغبة.

ليلى التي كانت مغمضـة العينين مسـتلقية في بهجة تسـتقبل أمطار قبلات ياســر وتتلوى من المتعة قد احســت بتوقف الامطار. فتحت عينيها لتراه قد تجمد على هيئته ممســكا بأعلى تنورتها، وعرفت من عينيه بالصــراع الذي يعتمل في داخله بين قلبه ورغبته من جانب وعقله واخلاقه من الجانب الآخر، وبحدســها الأنثوي أدركت أن الأفعال أبلغ من الأقوال لحسم هذه الصراعات، فمدت يديها إلى تنورتها تحل ازرارها بنفسها وتنزلها إلى الأسفل، ثم أكملت نزعها عبر حركات تناســق فيها اداء مؤخرتها وأرجلها، وبعدها امسكتها ورمت بها على الأرض، ونظرت إلى ياسـر الذي اتسـعت عيناه وهي تتقلب بين سـاقين من عاج قد انكشـف عنهما الحجاب، وبين تلك المنطقة الفردوسـية المتوســطة لهما والتي لا تزال تســتتر بقطعة صــغيرة من قماش، ثم نظر إلى عيني ليلى فرأى الحب الممزوج بلهيب الشـــهوة يشـتعل فيهما، كان ذلك كافيا لحسـم الصـراع القصـير في داخله، فواصــل السـباحة بكل نشـاط في محيطات ليلى

السفلى. وصل بعد رحلة طويلة إلى أقصى الجنوب، هناك عند قدمها المكتسية بالجورب الأبيض القصير، نزعه بلا رحمة وألقاه بعيدا، وأخذ يتأمل في قدمها المرسومة بريشة فنان بارع. برقت للحظة في مخيلته صورة عماد الذي ربما كان على حق في مذهبه الفتشي الذي يقدس الأقدام، لكن الفكرة تلاشت عندما انتبه لأظفار قدمها المطلية بطلاء وردي لأنها تشبه لون الأزهار التي ارتسمت على قطعة القماش تلك التي تستر عفتها، ذلك المكان الذي هو أجمل من كل الاقدام. بدأت شفتاه رحلة الصعود شمالا عبر شوارع سيقانها، وأوصله الطريق أخيرا إلى محور التقائهما، مجمع البحرين، ومركز المجرة، المتدثرة بقطعة بيضاء منسوجة من قطن ناعم، وعليها تناثرت رسومات صغيرة لأزهار وردية، لونها بنفس لون طلاء أظفار اقدام ليلى التي رآها عندما كان هناك في الجنوب، لكنه الآن في قلب العالم، مبتدئ كل شيء ومنتهاه، ومنبع الحياة ولاهوت الكون. أمسك بالحافة الفوقية لقطعة القماش تلك التي تستر الغيب، لكنه قبل أن يشدها للأسفل أرسل عينيه إلى عيني ليلى، فنال موافقة منطوقة بلغة العيون، فنفذ على الفور، ونزع عن الشمس سترها فانبهلت أضوائها ساطعة على وجهه.

-56-

انقطعت الكهرباء، وتوقفت المروحة التي كانت تدور فوقهما جالبة النسائم إلى جسديهم العاريين الملتصقين. سخونة الغرفة المتصاعدة لم تتمكن من تعطيل أنشطة عشقهما، وامتزج عرقهما وفاض وسال على ملائة السرير، تماما مثل ما فعلت مياه شهوتهما. ولأن اخراج العرق ينهك الجسد، واخراج الشهوة ينهكه أكثر، استسلم هو أخيرا لسلطان التعب ورقد على ظهره في اعياء، فاردا ذراعيه ومباعدا بين رجليه املا في التقاط خلايا جلده لأية نسمة عابرة تبرد قليلا من قيظ جسده.

أما ليلى فاستلقت بجواره على جانبها، رأسها للأعلى يستند على يدها وذراعها اليسرى، وإصبع يدها اليمنى يطوف ويجول بلمسات حانية على امتداد جسده، وشعرها الأسود الفاحم يتبعثر حول قرص وجهها المضيء...

- مسخن حبيبي؟

سألته في دلال، فأجابها بهزة من رأسه أن نعم، وجسمه المبتل عرقا يوافقه على اجابته. اعتدلت ليلى في جلستها ثم دنت برأسها من رأسه وأخذت تنفخ هواء فمها عليه، ابتداءا

من وجهه، ونزولا إلى قدميه. ابتسم مستغربا مما تفعله عشيقته، فكر لبرهة أنها تنفخ في وجهه جراثيمها وفيروساتها، ثم ازدادت ابتسامته اتساعا عندما انتبه لأنه إن كانت هناك ثمة من فيروسات أو جراثيم لتنتقل منها إليه فلا بد أنها فعلت ذلك مبكرا عندما سبر بفمه أغوار شفاهها العليا والسفلى...

- ماذا تفعلين يا حبيبتي؟
- أبرد لك جسدك، أم لم تفعل لك أمك ذلك عندما كنت صغيرا؟
- امي؟؟ لا أظن

قالها وابتسم مجددا وهو يتخيل أمه المتوفية تنفخ عليه بهذه الطريقة البدائية في التكييف. مد يده يجذب ليلى إليه، ووضع رأسها على صدره. تأمل في خيوط شعرها المتموجة أمام ناظره، أخذ نفسا عميقا مسترخيا ثم قال

- ليلى... هل تعرفين النيرفانا؟
- نيرفانا؟؟ بقرب بيتنا كوافير للسيدات اسمه كذلك. هل هو اسم مدينة في بلد ما؟
- النيرفانا يا عزيزتي هي اللذة العارمة التي تتحقق عندما نتحد بالذات العليا، بروح الكون، لذة مطلقة

لا نهائية يصـــعب تخيلها، لكن للتقريب تخيلي لذة ألف اورجازم سويا في نفس اللحظة

- ذات عليا؟؟ روح الكون؟؟ هل هذا خيال علمي؟
- ليس خيالا علميا ولكنه خيال ديني. في الديانات الشـــرقية كالبوذية لا يبعث الإنســـان بعدما يموت ليحاســـب ثم يكون مصـــيره الجنة والنار كما في الديانات الثلاث التي تعرفينها جيدا، وإنما تنســـخ روحه في جســـد آخر، وبحســـب عمل الإنســـان وصـــلاحه في حياته يتحدد مصـــير حياته الجديدة، فإما أن ينســـخ في جســـد أرفع كملك مثلا، وإما أن ينسـخ في جسـد أدنى كحيوان على سـبيل المثال، وتسـتمر هذه الدورات من تناسـخ الأرواح إلى أن تتطهر الروح تمـامـا، فتنتهي دورات التنـاســـخ وتكافئ الروح بأن تنال الجائزة الاســـمى وهي أن تتحد بذات الاله وتصـبح جزءا لا يتجزأ من نسـيج الكون، لحظة الاتحاد هذه هي النيرفانا ذات اللذة العظيمة اللا نهائية
- وما مناسبة هذا الكلام؟

أمسك برأسها بين يديه ليواجه وجهها وجهه، وأطبق شفتيه على شـــفتيها في قبلة طويلة، بعدها وجه عينيه المســـبلتين

السـكرانتين وجدا ونظر عميقا في عينيها العسـليتين المترقرقتين وقال

- لأني في هذه اللحظة يا ليلى... وصلت إلى النيرفانا...

-57-

بدأت مروحة السقف في الدوران معلنة عن عودة التيار الكهربائي، فدفعت بنسائمها نحو الجسدين العاريين الملتصقين. نهضت ليلى برأسها عن صدر ياسر فتطايرت خصلات شعرها مع تيارات الهواء التي خلقتها المروحة. رفعت يدها نحو شعرها تهندم خصيلاتها فتبعها ياسر مرتفعا برأسه إلى الأعلى ليدفن وجهه في رقبتها ويمرغها في قطرات عرقها وهو يتمتم لها "وجهي يتمنى أن يقضي باقي حياته هنا". أبعدته ليلى بدلال عنها وهي تبتسم، واقتربت بشفتيها من أذنه وهمست له "أنت مجنون!"، فابتسم هو بدوره وذهب بفمه نحو اذنها وهمس "أعرف... مجنون بك!"، عندها أمسكت ليلى برأسه وألصقت شفاهها بشفاهه، وأسنانها بأسنانه، ولسانها بلسانه في قبلة طويلة

وعنيفة، وكأنها تريد لثغريهما أن يلتحما ثغرا وأحدا. بعد مدة طويلة أنهت ليلى قبلتها وقالت في استسلام

- للأسف للأسف... تأخر الوقت ولم أشبع منك
- لا تخبريني أن عليك الذهاب الآن! لم نمض سويا سوى ساعة فقط... أو ربما ساعتين

أمسكت ليلى بهاتفها المحمول لتطالع الساعة فاتسعت عيناها دهشة وارتسم وجهها قلقا وقالت

- إنها الخامسة عصرا
- غير معقول!! لا اصدق!

قامت ليلى عن الفراش متعجلة وبدأت في التقاط ملابسها المتناثرة في ارضية الغرفة وشرعت في ارتدائها وهي تقول

- لا بد أن أمي تتساءل الآن عن سبب تأخري، ستمطرني بالاتصالات بعد قليل، وستسألني عن شهادة التدريب التي لم اجلبها رغم كل هذا التأخير. علينا أن نتعجل في الذهاب إلى الخرطوم يا ياسر

- أنـا مـا زلـت غير قـادر على الاســـتيعـاب، تقولين الخامســة عصــرا؟! هل يعني هذا أننا مكثنا هنا ما يقارب الإحدى عشرة ساعة؟! هذا لا يصدق
- فعلا لقد مر الزمن دون أن نشعر
- أحس وكأنها كانت فقط عشر دقائق... شيء عجيب
- ها هي أمي تتصل... لن أرد عليها الآن. قم يا ياسر وارتدي ثيابك فلا وقت للتعجب

قام ياسر متثاقلا عن السرير وهو لا يزال ملجوما بالدهشة، كيف مرت إحدى عشــرة ســاعة بهذه الســرعة؟ أخذ يبحث عن ســـرواله الداخلي حتى وجده ملقى هناك قرب باب الغرفة، ارتداه هو يتســاءل في نفســـه عما إذا كانت نظرية اينشتاين النسبية يمكن أن تفسر بشكل ما هذا الثقب الزمني الذي عاشـــه، هل هي قوة جاذبية ليلى التي ابطأت زمنها قياسا إلى زمن أهل الأرض؟ أم أنهما كانا ملتحمين بسرعة الضوء فتوقف الزمن عندها وافترقا عن توقيت الخرطوم؟

- ياسر أسرع ارجوك
- حاضر يا روح

طرد عنه أفكاره بأمر حبيبته وأســـرع في ارتداء ثيابه، ثم طفق يراقــب ليلى وهي تعـدل من زينتهـا أمــام المرآة،

وتداري عن شـــفتيها أورام القبل. أكملت مهمتها وتناولت حقيبتهـا، وقبـل أن يغـادرا الغرفـة وقفـا يطـالعـا انعكـاس صورتهما معا في المرآة وياسر يقف خلف ليلى ملتصقا بها مادا ذراعيه يحضـنها نحوه. أراحت ليلى خدها على ذراعه في دلال وقالت

- لقد أحببت غرفتك جدا يا روح
- وهي أيضاً احبتك
- وأحببت سريرك أيضاً
- وهو كذلك، لا شـك أنه سـيعاتبني بالليل عندما أنام فيه منفردا وسيسألني عنك

ابتسمت ليلى وأخذ جسمها يتراقص ببطء بين ذراعي ياسر أمـام المرآة. توقفـت فجـأة وامعنـت النظر في انعكـاس صورتها وقالت في وجل

- ياسر انظر هنا... ما هذه؟

نظر ياسـر إلى محل اشـارتها في أدنى رقبتها فوق ترقوتها بقليل، إنها بقعة حمراء على جلدها، أجابها

- إنها علامة يا روح

- علامة؟؟
- نعم، أثر قبلة شـــغوفة. يبدو أني قبلتها بنهم زائد فتكســرت الشــعيرات الدموية في الجلد تحت وطأة ضـغط القبلة مسببة نزيفا بسيطا ترك على بشرتك هذه العلامة الحمراء
- يا سلام... لقد احببتها جدا
- حقا؟
- بودي أن تملأ جسدي بعلاماتك

نظر ياسر اليها غير مصدق... ما هذا الشغف وما هذا الجنون وما هذه الروعة؟ ما كان يظن أنه يوجد على سطح الأرض فتاة يمكن أن تقاسمه جنونه. لم يجد ذلك في زوجته سارة ولا في غيرها من الفتيات اللواتي عبرن في سكة حياته، كلهن كن يستغربن هوسه ويستنكرن جنونه. ولكنه كان مخطئا ففتاة أحلامه الجامحة موجودة على هذا الكوكب، وهي تقف أمامه الآن، في قلب غرفته وأمام مرآته، وليست أية فتاة، إنها ليلى، الفتاة الجميلة الساحرة الفاتنة، ذات العينين العسليتين التي منذ أن وقعت عينه عليهما وهو يهوي في بئرهما. كم تمادت الأقدار في كرمها معه اليوم.

- لماذا تبكي يا روح؟

لم ينتبه لانهمار الدموع على خديه إلا بعدما ســـألته، لقد جرفته اللحظة، كم من المشــــاعر تعتريه الآن، وكم من الأحاسـيس تختلجه، قلبه ينبض وصــدره ينشــرح وروحه ترقص، وهو الذي كان إلى عهد قريب مجرد جثمان لا يحس. أجابها

- لأني أحبك جدا يا روح

وقفت ليلى على أمشاط أصابعها لتزيد من طولها، وألصقت خدها الناعم بخده المشــعر، وأخذت تمرره على شــعيرات لحيته المنتكشـــة مرســـلة تيارا من القشـــعريرة اللذيذة في أوصاله وقالت

- وأنا أحبك أكثر يا روح، وأحب لحيتك جدا، هيا بنا فقد تأخرنا

امتطيا الســـيارة وانطلقا إلى الخرطوم، وردت ليلى أخيرا على اتصـــــال أمها وأخذت تكيل لها من الأعذار على تأخرها، وصـــراخ الأم الغاضـــبة عبر الهاتف يصـــل إلى مسامع ياسر فيزيد من سرعة السيارة. أنهت ليلى مكالمتها وصـــمتت برهة، ثم بدأت في قضـــم أظافر أصـــابعها في

عصبية. انتبه ياسر لفعلها فأمسك يدها بحنان أملا في بعث الطمأنينة فيها وقال

- هل أنت بخير يا روح؟
- نعم أنا بخير
- هل أنت نادمة على ذهابك معي للمنزل؟

سحبت ليلى بسرعة يدها من يده ونظرت اليه في استنكار ممزوج بالغضب وقالت

- ماذا تقول؟؟ بالطبع لا، إنه أفضل قرار أخذته في حياتي، عشت معك لحظات لا تنسى
- كم أنا سعيد بسماع ذلك، وكم أتمنى أن نكررها، فإن إحدى عشرة ساعة فقط ليست كافية
- أتمنى ذلك أنا أيضاً يا روح، ولكن لا أعرف متى. إن أمي تبدو غاضبة وعلي أن أهدأ الأمور معها أولا قبل أن نرتب لقاءا جديدا
- أتفهم ذلك يا روح

وصلت السيارة أخيرا إلى بري، وقبل أن تنزل ليلى منها وضعت يدها على خد ياسر وقالت في وله

- سأشتاق إليك يا روح... وإلى هذه اللحية كثيرا

- وهي كذلك يا روح

انصـــرفت ليلى وعاد ياســـر أدراجه إلى أمدرمان وجســـمه مســـترخ مرتاح، ودماغه مغمور بهرمونات الســـعادة. لقد كان يوما لا ينســـى، فلم يســـتمتع قط مع انثى من قبل مثلما اســـتمتع اليوم مع ليلى، لا امرأته ولا كل النســـاء اللواتي عرفهن استطعن إسعاده جنسيا كما فعلت ليلى، التي أرسلته إلى عليين حتى بدون أن يجري بينهما ذلك الجزء الأهم، فهو لم يلج إلى داخلها، ولم يأخذ منها بكارتها، بالرغم من كل طلباتها وإلحاحها واصـــرارها، لكنه تمســـك بالرفض واكتفى بما دون ذلك. ومع أن ليلى بكر ولا ســابق خبرة لها على الفراش إلا أنها أنثى متوهجة، وأنوثتها قادتها لفعل الأعاجيب على سرير ياسر، أعاجيب لم يعشها ياسر طوال أكثر من عشرين عاما من الممارسات الجنسية العادية التي لا تقترب ولو قليلا من ســـحر ما فعلته ليلى معه اليوم. كم هي عجيبة هذه الفتاة، قديسة في الحب وعاهرة في الفراش، المزيج الفردوسي الذي يحلم به اي رجل.

ازداد غرام ياسر بليلى أضعافا بعد ذلك اليوم، فحبه لها الذي كان حبا سماويا ملكوتيا وروحيا خالصا قد تشرب بالعشق الأرضي الذي يهوى التحام الأجساد واندماج الخلايا وتبادل المياه. كانت ليلى بالنسبة له قبل الأمس ملاكا، لكنها اليوم أضحت آلهة. هي بالتأكيد من نسل عشتار ربة الحب والجمال، والهة الأنوثة والخصوبة، فأنوثتها التي تدفقت عليه بالأمس قد أيقظت ذكورته البالية، ولمساتها الخصبة أحيت أرضه الموات فتفجرت بالتستوستيرون الذي ملأ عروقه، واغرق دماغه، فما عاد يفكر إلا فيها، وفي الموعد القادم الذي سيجمعه بها في السرير.

تواصلهما عبر هواتفهما لم ينقطع لحظة عدا عن لحظات نومهما، يتبادلان الرسائل باستمرار. بالنسبة لياسر لهو خبر سعيد أن ليلى ليست من النوع الذي يحب الأحاديث المطولة عبر الهاتف، فذلك أمر لا يجيده، عكس الكتابة، فهو يهواها ويجيدها منذ زمن قديم جدا كان فيه يتبادل الرسائل مع سارة لسنين عدة قبل أن يتزوجا. هل حبه لإرسال الرسائل هو فرع من شجرة حبه لسارة ؟ فكر لبرهة في هذا التساؤل قبل أن يطرده عن خاطره سريعا، لأن الإجابة عليه قد تدخله في دوامة الأفكار السوداوية

المكتئبة التي اســـتراح منها قليلا بعد أن هبت عليه رياح ليلى.

ظل يتحين الفرص للقاء ليلى مجددا، هي ترغب في اللقاء أكثر منه كما تقول، لكن خروجها من البيت يتطلب منها حبك عذر وجيه يقنع أمها، وبعد أن انتهت مدة تدربها في البنك أصـــبح الحصـــول على مثل هذا العذر الوجيه أمرا متعســـرا. لا يفهم ياســـر كيف أن فتاة تقترب من الثلاثين تكون بحاجة إلى اختراع قصـــص محبوكة لكي تخرج من المنزل بضـــع ســـاعات، كان دائما يظن أن ذلك لم يعد له وجود في هذا القرن الحادي والعشـــرين، وحتى إن كان له من الحدوث نصـــيب فلربما في مجتمعات ريفية بعيدة، أما أن يحدث ذلك في قلب الخرطوم فهو العجب بعينه، لعله إذن صـــحيح قول من قال "الخرطوم ليســـت مدينة... إنها قرية كبيرة".

قالت له مرة في أحد حواراتهما الرســـائلية عبر الهاتف

- احمد الله كثيرا على أنك ولد
- الحمد الله على كل حال، ولكن ماذا تقصـــدين؟ هل لأني أستطيع الخروج من البيت دون اذن امي؟

- لا، على أنك لست مضطرا للتعامل مع الاجهاض الشهري

اجهاض!! ضحك من تعبيرها الفريد...

- نعم اجهاض، فكلمة دورة تقلل من فداحة ما نمر به كل شهر

أراد أن يقول شيئا لكنه فضل ألا يعلق، فليس من مكارم الأخلاق أن يتحدث المرء عما لا يعرف أمام من يعرف، فهو حتى وإن درس ذلك الامر وعلم الكثير عن تفصيلاته الطبية والحيوية والنفسية إلا أنه كذكر لم يعشه، هو فقط عالم بالامر، لكنها هي عارفة، فمن ذاق عرف كما يقول أهل الطريق.

واصلت كلامها

- تقلصات قاسية في البطن وألم مريع في الظهر، وصداع في الرأس وتكسر في الجسم، ودماء قذرة تسيل وملابس تتسخ وفوط تحتاج إلى تغيير، وفوق ذلك تعكر في المزاج وتوتر في النفس
- لا حول ولا قوة الا بالله، هذا كثير، أعانكم الله

- وكل ذلك يتكرر شــهريا. أنا مثلا تأتيني دورتي كل يوم واحد في الشهر
- أتعنين الشهر الهجري أم الميلادي؟
- الميلادي طبعا. أنا لا أعرف من الشـــهور الهجرية سوى رمضان
- ليس من الأدب أن اخطئك فيما يحدث تحت ملابسك الداخلية ولكن علي القول أن ما تذكرينه صـــعب الحدوث علما وعقلا، فلو افترضـــنا أن مدة الدورة عندك ثلاثين يوما مثل أغلب الشـــهور الميلادية فذلك يســتدعي أنها تأتي في اليوم الحادي والثلاثين في تلك الشــهور التي بها وأحد وثلاثين يوما، أليس كذلك؟
- لا، هي تأتي دائما في اليوم الأول من كل شهر

لم يستطع هذه المرة تفويت العبارة دون أن يسخر

- كل أول شـــهر؟ أموظفة هي في بنك مثلك تـأتي لتصرف مرتبها؟

تجاوزت بسرعة تعليقه المتظارف لتعود وتأكد على كلامها

- والله...

- أتعلمين يا روح أنني كنت سأوافقك لو كنت تتحدثين عن الشهور الهجرية القمرية والتي لاحظ الإنسان القديم ارتباط مسار القمر في السماء بمسار دورة الدم في رحم الأنثى، فكلاهما حوالي تسعة وعشرون يوما. لاحظ أجداد البشرية قبل عشرات الآلاف من السنين أن الأنثى التي تحيض مع ولادة الهلال الجديد تكون أرضا خصبة إذا عوشرت عند اكتمال البدر بعد أربعة عشر يوما
- لأنه في اليوم الرابع عشر يحدث التبويض
- بالضبط، هذا ما علمنا له علم وظائف الأعضاء، لكن الإنسان الأول ربما اعتقد أن للإله القمر تأثيرا مباركا على طائفة مختارة من الإناث اللواتي يحملن بالأطفال مباشرة متى ما عوشرن عند اكتماله، وكانت هذه إحدى البذور الأولى للإلهة الأنثى ذات الدم المقدس
- الدم المقدس؟
- أجل، فهذا الدم الذي وصفتيه بالقذارة كان مقدسا، كان يستعمل للتشافي وللتبرك بل وحتى لطرد الاعداء وإيقاف الكوارث
- معقول؟
- نعم يا سليلة القديسات، ظل هذا الدم مقدسا لوقت طويل من عمر البشرية، لعشرات الآلاف من

السنين كانت الأنثى مقدسة لأنها تهب الحياة، المرأة الأنثى تلد الإنســـان، والبقرة الأنثى تنجب العجل، والأرض الأنثى تهب الحبوب والثمار، وســـنبلة القمح أنثى...

- سنبلة القمح؟
- تذكرت قصيدة نزار

أريدك أنثى ...
لأن الحضارةَ أنثى ...
لأن القصيدةَ أنثى ...
وسنبلةَ القمح أنثى...
وقارورةَ العطر أنثى...
وباريسَ - بين المدائن - أنثى ...
وبيروتَ تبقى - برغم الجراحات - أنثى...
فباسمِ الذين يريدونَ أن يكتبوا الشعرَ... كوني امرأهْ...
وباسمِ الذين يريدونَ أن يصنعوا الحبَّ... كوني امرأهْ...
وباسمِ الذين يريدونَ أن يعرفوا اللهَ... كوني امرأهْ...

- الله... كم هي جميلة

ارتســمت على شــفتيه ابتســامة عندما قرأ ردها الذي يبدأ بكلمة الله، فهو كثير الترديد للفظ الجلالة هذا معها، فكلما يشــرق وجهها الفاتن عليه كلما ردد لســانه الله، وكلما يقع

ناظره على إشــعاع عينيها العســليتين كلما توقفت أنفاســه للحظة قبل أن تخرج وهي تقول الله، وكل شـــيء في ليلى المبروكة يبهره ويدفعه تلقائيا لقول نفس الكلمة الجميلة... الله. توقف ابهامه تلقائيا عن الكتابة على لوحة هاتفه وظل جســمه لبرهة جامدا عدا عن رجفة خاطفة أحدثها ســريان اللفظ الجليل في أوصــاله. صـدح هاتفه بنغمة رسـالة جديدة مــن لــيــلــى أخــرجــتــه مــن حــالــة الــتــجــلــي

- أين ذهبت؟
- معك يا روح
- قرأت القصيدة مرة أخرى، لقد اعجبتني جدا
- القصـــيدة يا عزيزتي أطول من ذلك، هذا ليس إلا مقطعها الأخير
- سأبحث عنها واقرأها من البداية
- حسنا تفعلين

كـان يخطط للاســـتطراد في تطور الإلهـة الأنثى وكيف انقلبت عليها الحضارات البشرية الذكورية، لكنه أحس فجأة أن قدرته على المواصــلة في الحوار قد خبت، يعلم أن ذلك بســـبب الحالة الســـماوية التجلوية التي اعترته قبل قليل، فالعودة إلى الأرض من السـماء شـاقة على الروح لأن ذلك نزع لها من وطنها. الشـعور بالغربة ومرارة الوحشـة على

الأرض يتضاعف لديه بعد كل اتصال سماوي، وحشة يحاول تخفيفها عبر استكشاف بوابات جديدة توصله بالعالم الوجداني الاخر، مثل بوابة التأمل في وجه ليلى.

- ليلى... متى سأراك مجددا؟
- لا أعلم يا روح، عندما تسمح الظروف
- لا أحب أن أكون لحوحا ولكن يا ترى هل ستسمح الظروف غدا؟
- بصراحة كنت أنوي المرور على صديقتي ريم في البنك غدا وفكرت أن استغل الظرف لأراك، لكنني عدلت عن ذلك عندما اخبرتني قبل ساعات أن لديك اجتماع في الغد مع مساعد المدير بخصوص مقابلة عملك
- لن أذهب

رد بها مباشرة دون أن يفكر. عقبت هي مندهشة

- ولكن ألم تقل لي أنه اجتماع مهم؟
- لم يعد مهما. سأكون منذ الفجر في انتظار إشارتك لنلتقي
- هل أنت متأكد ألا مشكلة في عدم ذهابك لذلك الاجتماع؟

- متأكد

كتبها وأرسلها بلا تردد على الرغم من أنه متأكد أن الصحيح هو عكس ذلك تماما، لكنه لا يهتم في هذه اللحظة سوى برؤيتها. ردت عليه أخيرا مستسلمة لقراره المتهور

- حسنا إذن... غدا صباحا سأخبرك بالميعاد
- ممتاز

-59-

استيقظ مع الفجر يدفعه الحماس للقاء ليلى، وكما فعل في المرة الماضية فقد يمم وجهه شطر المسجد وصلى الصبح حاضرا خلف نفس الامام سيء القراءة. أسرع عائدا للبيت عقب انقضاء الصلاة ليبدأ أنشطة الاستعدادات ليوم يرجو أن يكون حافلا. حمل آلة الحلاقة معه إلى الحمام وشرع في تهذيب لحيته الخفيفة. لقد مضى زمن طويل منذ أن كان يهتم بمظهره، لم يكن له دافع لذلك خلال سنينه الماضية، فلا أحد كان يعبأ به ولا هو نفسه كان يعبأ بأحد، أما الآن فقد اختلف الوضع، فليلى التي يعبأ بها جدا قد أعجبتها لحيته المبعثرة والتي رقصت شعيراتها طربا للمسات

أناملها، ونبض بروتينها الكيرياتيني الميت بالحياة عندما ألصقت ليلى خدها بها، لذلك استحقت هذه اللحية أن تشذب وأن تهذب لتكون على تمام الاســتعداد إذا منحتها الأقدار اليوم فرصة للسلام على خلايا خد ليلى.

فرغ من الحلاقة ونزل تحت مياه الدش الســاخنة، ينظف أعضـاء جسمه المتحمسة للقاء اليوم، ومنح عضـوه الأكثر حماسـا مزيدا من الوقت، ينظفه ويزينه، ويناجيه ويؤانســه، يتذكر معه متعة اللقاء الماضــي، ويترقبان معا متعة لقاء اليوم. أخذ يفكر ومياه الدش تتهاطل على رأســه أن كيف يمكن لماء كثيف تنتجه البروسـتاتا مخلوط بخلايا صــغيرة مشــوهة أتت قاطعة رحلة طويلة من الخصــيتين... كيف يمكن لمياه مســتقذرة كهذه أن تمنح أطنانا من الســعادة والراحة والبهجة والاســترخاء عندما تخرج متدفقة من مجرى البول؟

أنهى حمامه، وأكمل لبس ثيابه، ثم انطلق بســيارته قاطعا الكوبري باتجاه الخرطوم إلى أن وصــل شــارع النيل وواصل السير فيه إلى أن بلغ مباني جامعة الرباط، فتوقف قبالتها عند الســاحة الكبيرة المطلة على النيل، والتي يتجمع فيها محبو الصـباح الباكر، يستمتعون بنسيم الصـبح النقي قبل أن يلوثه ازدحام المركبات في العاصــمة، ويشــربون

الشاي برفقة مياه النيل الجارية بسلاسة نحو الشمال، بينما الشمس تمنحهم جرعة معتدلة من أشعتها الحانية قبل أن يزداد غضبها على أهل الخرطوم كلما مضى النهار.

كان يأتي كثيرا إلى هذا المكان في الصباحات الباكرة خلال إجازاته السابقة في السودان، يتأمل بإعجاب في الشباب والشابات الذين يحضرون ليشربوا الشاي هنا والعاصمة لم تفق بعد من سباتها، يأتي ويجلس وحده بينما هم يأتون في مجموعات صغيرة مختلطة، وفي أقل الأحوال أزواجا، ملابسهم جريئة، وحلاقات شعورهم مختلفة، يحس بغربة عنهم حتى وإن شاركهم المكان، فإضافة إلى السنوات الخمسة عشرة على الأقل التي تفصل عمره عن أعمارهم يظل فارق الشغف هو الأكبر، هم مقبلون على الحياة وهو نافر منها، هم تتدفق منهم البهجة وهو غارق في كآبته. كان عقله يدفعه للتبرير بأنهم صغار ساذجون، مدفوعون بأحلام طفولية، لكنهم عندما يكبرون كما كبر ويرون ما رأى فسيصلون إلى ما وصل إليه، ألا حقيقة في هذا الوجود وأننا نهوي في بئر لا نهائي من العبث.

اليوم لم تراوده هذه الأفكار السوداوية وهو يتأمل هؤلاء الشباب الذين يملؤون هذه الساحة الواقعة بين شريط النيل ومبنى جامعة الرباط. اليوم يحس أنه واحد منهم، مليء

بالآمال الطفولية ومتدفق بالأحلام الساذجة، يأمل ألا يتأخر اتصال ليلى، ويحلم أن يلتقيها وينجرف في اعماق عيونها العسلية، كما أن لديه كذلك طائفة أخرى من الآمال والأحلام غير الطفولية تتعلق بليلى وبجسد ليلى.

-60-

- الو ياسر... صباح الخير
- أهلا يا ياسين... صباح النور
- عذرا على اتصالي بك مبكرا هكذا، لكن تبقى على اجتماعنا مع مساعد المدير نصف ساعة ولا يبدو أني سأستطيع للأسف ادراكه من بدايته، فالكوبري مزدحم للغاية وسأستغرق الكثير من الوقت لأصل إلى البنك. أود منك أن تخبر المدير ذلك اذا سألك عني فأنت لا تعلم كم هو مهووس بانضباط الزمن
- كنت أتمنى ذلك يا ياسين لكني لن أحضر الاجتماع
- ماذا تقول؟ خيرا إن شاء الله؟
- متوعك بعض الشيء، ولا اريد الحضور للاجتماع ونشر جراثيمي المريضة بينكم
- ألف سلامة ولا بأس عليك، هل قابلت طبيبا أو تناولت دواءا؟

- أتمنى ألا احتاج لذلك
- كم هذا محبط، لقد انتظرنا طويلا لنرتب لك هذه المقابلة اليوم، لا بد أن مساعد المدير العام ومدير فرعنا سيصابان مثلي بخيبة امل كبيرة
- إن في غاية الأسف لذلك، لقد أرسلت لمدير الفرع رسالة هذا الصباح اعتذر فيها عن القدوم لعلتي، واتمنى منك أن تساعدني بأن تكرر له اعتذاري شفهيا
- اتصلت بك أملا في أن تساعدني فاذا بك أنت تطلب مني المساعدة
- فلتساعدنا السماء جميعا يا ابن عمتي...

أنهى الاتصال بقريبه ورفع كوب الشاي إلى فمه وعيناه تحدقان في شاب وفتاة يرتشفان الشاي بقربه وقد مال جسداهما تجاه بعضهما في جلستيهما حتى ارتفعت القوائم الخلفية لكراسيهما عن الأرض، لتوضح أن طاقة الجذب الصادرة عن هذين المتاحبين أقوى من جاذبية الكوكب الذي يحتويهما. ابتسم ياسر عندما طالع منظرهما وهما مندمجان في عالم خاص بهما يكاد ينفصل تماما عن العالم الذي يجلس فيه هو ممسكا بكوب الشاي، رغم أن المسافة بين العالمين لا تتجاوز بضعة أمتار، لكنه سحر الحب الذي يطوي نسيج الزمكان حول جاذبية المحبوب حتى وإن لم

يكن ذلك متضـمن صـراحة في نظرية اينشـتاين للنسـبية العامة.

أخرجه رنين هاتفه من خيالاته الفيزيقية والميتافيزيقية، ورقصت روحه طربا عندما طالع اسم (حمد الليل) ينير شاشة هاتفه. رد بحبور

- يا صباح الورد
- صباح النور حبيبي، اشتقت اليك
- وأنا في غاية الشوق لك
- أين أنت الآن؟
- في الخرطوم، شارع النيل
- حسنا، يمكنك المرور عليّ فأنا جاهزة
- ممتاز

أنهى المكالمة لكنه لم ينه كوب الشاي، تركه ورائه وسارع يلبي نداء ليلى. ركب سيارته ثم التفت إلى العاشقين الذين كان يجلس بجوارهما ليلقي عليهما نظرة مودعة، وجدهما على حالهما هائمين في ملكوتهما، لم ينتبها لقيامه تماما مثل ما أنهما لم ينتبها لجلوسه. ابتسم ووضع على عينيه نظارته الشمسية وأنطلق نحو ليلى.

-61-

فتحت ليلى الباب وركبت السـيارة. التفتت يمنة ويسـرة ومدت رأسـها للأمام والخلف تطالع ما حولها بنظرات سريعة، وبدون أي كلام امسكت رأسه بكلتا يديها والصقت على شفتيه شفتيها واطعمته قبلة سريعة لكنها ساخنة، ثم قالت

- هيا حبيبي انطلق قبل أن يرانا أحد

لكنه لم ينطلق، بقي جامدا لثوان ينظر إليها بنظرات هي خليط من البلاهة والاندهاش، والوله والمفاجأة، قبل أن يغمض عينيه ويهز رأسـه ويقول في صـوت متهدج

- عشتار!

نظرت اليه متعجبة وكأنها تسـأله من تكون عشـتار، لكن غريزة الخوف داخلها سـحقت غريزة الفضـول فقالت

- اطلع حبيبي بسـرعة، أخاف أن ترانا أمي من الشرفة

- حسنا

قالها وتحرك بالسيارة يقطع الشوارع الترابية الداخلية لحي بري الخرطومي بقرب مستشفاها الكبير، شوارع سيئة التعبيد مليئة بالحفر والعوائق، ولا يمكن للسيارة أن تسير فيها إلا ببطء وحذر.

- وحشتني حبيبي
- أنا أكتر والله يا روح
- آسفة لأن حالة شوارعنا سيئة، لقد سئمت السكن هنا بسبب هذا الامر
- لا تقولي ذلك، فقد احببت هذا الحي بشوارعه البائسة الحال لأن تحوي ديار ليلى

ثم التفت اليها ساحبا نظره عن متابعة الطريق وأنشد بيتي المجنون

أمر على الديار ديار ليلى
أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار سكن قلبي
ولكن حب من سكن الديارا

أعاد نظره نحو الطريق وتابع قائلا

- هذا الشـعر لمجنون ليلى، ويبدو أن أي عشـق لأية ليلى يلازمه الجنون
- حبيبي المجنون

سـحبت ليلى إحدى يديه عن مقود السـيارة ووضـعتها بين يديها ثم ضـمتها حاضـنة لها على صـدرها مرسـلة تيارا صاعقا من الكهرباء سرى فيه من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه عندما لامست يده وسائد صدرها.

- اذهب يا ياسـر بنا إلى النيل لنشـرب الشـاي فأنا نزلت دون أن أشرب
- حسنا هيا بنا
- لكني لم اسألك إذا كنت أنت قد شربت أم لا يا روح
- شـربت ولكني سـأشـرب معك ثانية، لأن الاشـياء معك لها طعم مختلف

كان ياسر يعني ما يقول حقيقة لا مجازا، فليلى تحول أشباه الأشـياء إلى أشـياء، الشـاي الذي يشـربه معه لا يشـابهه أي شـاي آخر، والمكان الذي تجلس معه فيه يتحول إلى قطعة

من فردوس عجائبي، والطعام الذي يأكله برفقتها كأنه منزل مع مائدة عيسى من السماء، والأغاني التي يسمعها في وجودها تبدو ذات كلمات مختلفة ولحن مختلف حتى وإن كان سمعها قبل ذلك ويحفظها، وتبدو وكأنها قد كتبت فيها، ولحنت لها، وغنيت من أجلها، فمع ليلى "حتى الأغاني غير" كما غنى كاظم...

-62-

جلس معها في نفس المكان الذي جلسا فيه مرات من قبل. خيوط الشمس تتبعثر متلألأة فوق سطح النيل الجاري، وشجرة النيم الكبيرة تمد لحاف ظلالها عليهم. استكان ياسر في جلستها جوار ليلى، متكئا بظهره على الكرسي البلاستيكي، مادا قدميه طويلا نحو الأمام باتجاه النيل، واضعا كفيه على بعضهما فوق بطنه، أخذ نفسا عميقا وتنهد في راحة، فها هو أخيرا مع ليلى، بعد أيام متطاولة ممتدة من لقائهما الأخير، لم تغب فيها عن ذهنه كسرا من الثانية.

- اشتقت لك كثيرا يا ياسر
- ليس بقدر شوقي أنا لك يا ليلى

- ياسر... هل ممكن أن اسألك سؤالا؟
- تفضلي يا روح
- عندما كنا في بيتكم المرة الماضية لماذا لم تقم بـــ... بـ... كيف أقولها يا ترى؟؟ آآآآه بفضي؟
- بماذا؟
- بفض بكارتي

التفت عن النيل الذي كأن يتأمل تكسـر نور الشـمس على مويجـاتـه ونظر إلى وجهها فرأى ملامح الجـديـة فيـه، حاجباها نصـف معقودان، وشـفتاها مزمومتان في ترقب، وعيناها تعاتبانه على ذلك الشيء الذي لم يفعله.

- لا ينفع يا روح
- لماذا لا ينفع؟
- لأن ذلك سيدخلك في سلسلة من المشاكل لا حصر لها، وأنا لا أرضى لك ذلك

سكتت وأشاحت ببصرها نحو النيل. تناول ياسر رشفة من فنجانه وأخذ يسـترجع تفاصـيل اللقاء الحميم الذي جمعهما فوق ميدان سريره، وكيف أنها في ذروة نشوتها طلبت منه غير مرة أن يكسر باب حصنها ويقتحم أعماقها، ورغم أن ذلك كان أحب شيء لديه في تلك اللحظة إلى أنه قاوم رغبة

نفســـه وإلحاح هرموناته وتمســـك بالرفض. بعد فترة من الصمت عادت ليلى للكلام

- حبيبي أنــت رجلي، وأنــت أحق النــاس بــافتتــاح أغواري. أنا أريد أن أقدم غشــاء البكارة اللعين هذا قربانا لك
- حبيبتي، ألا تظنين أني أود ذلك أيضـــاً؟ فوالله لا يوجد مكان في هذا الوجود أود الذهاب إليه أكثر من تلك الجنة التي بين قدميك. لا تدركين كم كان صـــعبا على التســـكع بقرب باب الجنة وملامســـة نعيمها وحرمان نفســـي منها، كان ذلك قطعة من العذاب، لكني يا ليلى أحبك جدا، لذلك لا يمكنني أن اسمح لنفسي بإيذائك
- وهل عندما التحم بك ونذوب جسـدا واحدا تكون قد آذيتني؟ ألا تفهم أن ذلك غاية ما اتمناه؟
- أفهمك عزيزتي ولكن ما عليك فهمه أنت هو أن ذلك الغشـاء الرقيق التافه الذي يحرس بكارتك ليس ملكـا لك، إنـه ملك هذا المجتمع الـذي نعيش فيـه، وهو الذي يضـــع القوانين التي تنظم ازالته، قوانين تعلمين جيدا أني أراها غاية في التخلف، تبيع هذا الغشــــاء بالمال، وتحتفي بذلك عبر طقوس بدائية هزليـة. هذه القوانين تقف في وجـه من يقدســـون

الحب مثلنا الذين يريدون أن يتوجوا التحام الأرواح باندماج الأجساد. نحن لم نضع هذه القوانين المجحفة لكننا للأسف مجبرون على الامتثال لها، نستطيع أن نضرب بها عرض الحائط لكن سيكون لذاك عواقب جسيمة ووخيمة، خاصة بالنسبة لك أنت يا روح، وأنا لا يمكن أن أعرضك لذلك

صمت ياسر وصمتت ليلى معه وعادا يتأملان في النيل وفي شريط الشجر الاخضر الممتد بمحاذاته، وفي تلك الأدخنة التي تنبعث من الضفة الاخرى في بحري، مصدرها ما يسمونه (كمائن الطوب)، وهي محارق بدائية تحرق الطين لتجعل منه طوبا بدائيا، ليبني به الناس بيوتهم عبر هدم الطبيعة. قطعت ليلى الصمت القصير

- لا دخل لي بما يظنه المجتمع، فلم أر من هذا المجتمع اللعين عبر سبعة وعشرين عاما شيئا يسر، والآن وجدت أخيرا مسرتي فيك. أنا اريدك في داخلي وليذهب المجتمع إلى قعر الجحيم
- عزيزتي... حتى وإن كنت مثلي رافضة لسلطة المجتمع الأخرق فإن الحقيقة هي أنك خاضعة لها رغما عنك. أنت مثلا لا يمكنك حتى الخروج من بيتكم دون استرضاء أمك بالأعذار الكاذبة. سلطة

المجتمع علينا متجبرة وقاسية، والوقوف في وجهها يتطلب الدخول في حرب طويلة صـــعبة ومدمرة، ولا أظنك تقدرين على تحملها

سـكت وأخذ نفسـا عميقا ثم نظر إلى تشـابكات أوراق النيم فوق رأســه وإلى خيوط الضـوء وبقع الظل التي ترسـمها وواصل حديثه

- أنا أحبك جدا يا ليلى... مجرد جلوســك بقربي هنا يضخ في شراييني الحياة. كنت ميتا قبل أن تبعثيني لفردوسـك العلوي. لم أكن أطمع في أكثر من أكون إلى جوارك، استمد النور من شمسك تضيء عتمة عالمي المظلم، واتأمل في عينيك العسليتين لأسبح الله البديع الذي أحســن كل شــيء خلقه. معك أحس أن روحي تتحرر من سـجنها الأرضــي لتسـبح في الســـماوات غير عابئة بما يدور على هذا الكوكب التافه

التفت إلى ليلى فوجدها تحدق فيه بعيون تتلألأ بسـبب طبقة رقيقة من الدمع كســت مقلتها لكنها بقت متمســكة بأهدابها تقاوم الجاذبية. واصل كلامه

- مـا كنـت أحلم بـأكثر من الـدوران في فلكـك، والاسـتمتاع بجاذبيتك، والاسـتدفاء بإشـعاعاتك، لكنك اقتحمت برفق عالمي، ومزقت برقة أستاري، وغصـت في خنادق نفسـي المظلمة التي لم يصـلها نور من قبل، حتى كشـفت كنه حقيقتي، وغدوت تعرفينني أكثر مما أعرف نفسـي، تفهمين ما أريد قولـه دون أقولـه، وتفعلين مـا أنوي فعلـه قبـل أن افعله، كنت لروحي يا ليلى مفتاحا لقفلها الصـدئ الذي ما ظننته قط ينفتح، لذلك أحبتك روحي حبا سـماويا خالصـا، فأنت من حررتها من قفصـها الأرضي لتعرج في عليين...

أخرجت ليلى منديلا من حقيبتها لتمسـح تيار الدموع الذي بدأ يخر من عيونها، ثم - مسـتعملة نفس المنديل - أخرجت من أنفها بقايا تلك الدموع التي وصلت إلى هناك عبر القناة الدمعية الأنفية. أمسـك ياسـر يدها القابضـة على المنديل المبلل وسـله من بين أصـابعها، رفعه إلى فمه يقبله قبل أن يدخله في جيب بنطاله. لم تصـدر عن ليلى أية علامة تبدي الاسـتغراب من تصـرفه المسـتقذر في عرف البشـر، فهي كانت لتفعل مثله لو انقلبت الأحوال. واصـل حديثه ويده ممسكة بيدها واصابعه تضغط على اصابعها

- لكنك يا ليلى منحتني أكثر من الحب السماوي، أخذتني معك للعالم الأرضي لأعيد اكتشافه، واتقلب في جماله. أهديتني رحيق شفتيك، وبهجة لمساتك، وسمحت لي بالتجول في حدائقك، أشتم أزهار جسدك، وارتوي من حليب خصوبتك، وأيقظت في داخلي ذكرا كان قد مات قبل أن يبعثه ملاك أنوثتك ويرسله إلى عالم فردوسي لم يحدث قط أن زاره برغم السنوات السبع والثلاثين التي قضاها على سطح هذا الكوكب، وبرغم البلدان الخمسين في القارات الخمس التي زارها ورأى نسائها

ارتشف ياسر من الشاي الذي برد وعيناه تتابعان قارب صيد صغير عليه صيادان يرميان شباكهما بحماس طمعا في اسماك النيل. ابتلع ريقه ثم أنشد يقول

عرفتُ نساءَ أوروبا...
عرفتُ عواطفَ الإسمنتِ والخشبِ
عرفتُ حضارةَ التعبِ...
وطفتُ الهندَ، طفتُ السندَ، طفتُ العالمَ الأصفر
ولم أعثر...
على امرأةٍ تمشّطُ شعريَ الأشقر
وتحملُ في حقيبتها...

إليَّ عرائسَ السكّر

وتكسوني إذا أعرى

وتنشُلني إذا أعثَر

- جميلة جدا
- من قصيدة خمس رسائل إلى امي لنزار
- أيخاطب امه بها؟
- اجل، لكنها تعبر جيدا عن حالي معك يا ليلى، باستثناء ذلك الجزء المتعلق بالشعر الأشقر

التفت اليها مبتسما وقد رفع يده يمررها بين خصلات شعره الأسود. ابتسمت وأمسكت بذراعه تجره الى حضنها. تقلص جسده ثم انبسط مسترخيا تفاعلا مع لمستها، ثم تسارع تفاعله عندما امسكت بذقنه تلفته اليها، موجهة عيناها العسليتان المتحفزتان نحو عينيه السوداويتين المستسلمتين وقالت

- لا عجب أن القصيدة تعبر عنك لأنني أنا أمك
- امي؟!
- نعم أمك... أنت ولدي ورجلي وحبيبي

ثم أفلتت يدها عن وجهه واكتفت بتشـــبيك أصـــابعها بين أصــابعه. للحظات ظل رنين صــدى كلمة "أمك" يدوي في أعماقه، ثم أخذت شفتاه لا إراديا تتمتمان

- أمي... أمي... نعم امي...

ثم التفت بكامل جسمه نحوها وقال

- أنت فعلا امي
- نعم أنا كذلك
- وحبيبتي...
- اجل
- هذا لأنك عشتار
- عشتار؟
- نعم عشـــتار... الهة الحب والجمال والخصـــوبة والأنوثة، الالهة الام

سكتت ولم وتعلق. واصل هو مندفعا

- كنت أعلم أنك لا تنتمين لعالم البشـــر، فجمالك الداخلي والخارجي لا يضـــاهيه جمال، وأنوثتك المتدفقة لا تماثلها أنوثة، وعاطفة الامومة عندك

تنسكب على رجل أكبر منك لم تلديه. ظننتك ربما تكونين ملاكا علويا أرسلته إليّ السماء، لكن الملائكة ليسوا إناثا، والآن فقط عرفت أنك لست ملاكا وإنما الهة

- استغفر الله... ما هذا الكلام؟
- أنت عشتار
- لا لست عشتار ولا أعرف من تكون
- عشتار الممجدة، فينوس، افروديت، ايزيس، أنأنا، عشتروت
- لا أعرف شيئا عن هذه الاسماء
- حسنا، هل تعرفين اللات؟
- اللات والعزى؟ اصنام قريش؟
- اللات فقط من أعنيها، هي النسخة العربية من الإلهة الأنثى، أم الإلهة، مانحة الخصب للأرض والارحام
- استغفر الله
- اللات هي مؤنث الله... أو ربما العكس
- استغفر الله العظيم
- يا عزيزتي هدئي من روعك، فأنا هنا لا اتحدث عن دين وعقيدة وإيمان، أنا اتحدث فقط عن تاريخ البشر الذين ظلوا يعبدون الإلهة الأم الأنثى لعشرات الآلاف من السنين، يتبركون بها في السلم

والحرب، ويمنحها الذكور غلفات قضبانهم قربانا، ولها بنيت معابد وكعبات، وحتى سمي باسمها كوكب الزهرة، قبل أن تدور رحى التاريخ وتصبح الآلهة الكبرى ذكورا

- كم أعشق الاستماع اليك، حتى عندما تتحدث عن أشياء تسبب لإيماني القلق
- ربما لا تعلمين أني قليل الحديث وأنصت أكثر بكثير من أن أتكلم، لكن شيئا فيك يا روح يحل عقدة لساني. إني استمتع بالكلام م..
- لأنني أمك
- نعم... أنت عشتاري
- أنا مشتاقة جدا لأدفن نفسي بحضنك. هيا قم بنا إلى البيت فلا أستطيع الانتظار أكثر

أغرقته عبارتها في نشوة عارمة، فرغم أن أشواقه للولوغ في أحضانها تزيد قطعا بأضعاف عن اشواقها إلا أن كون ليلى العشتارية هي من تستعجله قد نفخ السعادة في صدره وأعلى من ذاته. يحس أنه يقترب من أن يصبح هو أيضاً إلها اسطوريا مثلها بفضل بركاتها المقدسة.

قامت ليلى من كرسيها فانقشعت خيالاته وقام معها. نقدا بائعة الشاي نقودها ثم امتطيا السيارة وانطلقا تسبقهما أشواقهما نحو أمدرمان...

-63-

بمجرد أن انغلق باب الصالة عليهما وانعزلا عن بقية العالم حتى اندفعا تجاه بعضهما بجنون، وتلاحما في حضن طويل ودافئ. ضم ياسر ليلى على صدره برفق في البداية ثم أخذت عضلات ذراعيه تزيد من قوة الاحتضان، كأنه يريد أن يدخلها في صدره، أن يلتحم بها، أن يتوحد معها كيانا مطلقا، وبالمثل كانت ليلى، فرعشتها على صدره وآهاتها الثملة توحي وكأنها تبحث لنفسها عن مدخل أيضاً يوصلها إلى أعماق صدر ياسر، لتبقى هناك إلى الأبد.

طال حضنهما المتبادل في قلب الصالة ما شاء الله له أن يطول، ومن ثم توجها إلى غرفة النوم. تبادلا تجريد نفسيهما من الثياب في لهفة وشبق، وبعد ذلك بدأت موجات مجنونة من التحام الأجساد العارية. كان ياسر غارقا حتى اذنيه في النعيم، لا يكاد يصدق ما يحدث له، وكانت دهشته تزيد كل

مرة من أفاعيل ليلى التي لم تنقطع مفاجئتاها الأنثوية عنه، إنها أفاعيل امرأة خبيرة ذات باع وليست فتاة عذراء مثلها.

وكما حدث في المرة الماضية طلبت منه ليلى أن يدخل سيفه في غمدها وأن يفتض بكارتها، وكاد يستسلم وينهزم أمام جمالها وتوسلاتها وبراكين شهوتهما المتفجرة، ولكن بمعجزة ما أمسك بغمار نفسه الجامحة وظل وفيا لمبدئه. وكما حدث في المرة الماضية أيضاً أنقضت إحدى عشرة ساعة في لحظة، دون أن يشبع نهمهما أو تجف مياههما.

- للأسف للأسف يا روح...
- كم صرت أكره كلمة للأسف هذه يا ليلى
- اعرف، وأنا كذلك، لكن ما باليد حيلة. علينا أن نعود إلى الخرطوم

كان ياسر راقدا على ظهره وليلى راقدة من فوقه على ظهرها أيضاً، رأسها يتخذ من أعلى صدره وسادة له، وشعرها الأسود الناعم يتدفق منسابا حول وجهه يدغدغ خديه في لطف، ويداه على صدرها تقطفان فواكه نهديها. يحس أنه الآن في الفردوس الأعلى، فبالتأكد لم تخلق سعادة في هذا الكون توازي ما يشعر به وهو في هذه الوضعية، لكن محيط السعادة هذا يوشك أن يتبخر...

- كم إحدى عشرة ساعة نحتاجها يا ترى حتى نرتوي من بعضنا؟
- لا أعرف يا ياسـر... لكن يمكنني أن اقضـي باقي حياتي راقدة عليك هكذا دون أن أقوم
- وأنا كذلك يا روح، كم أود أن أبقى هكذا على هذا الوضع حتى نموت
- اذن هيا نتزوج يا ياسر...

سكت ياسر ولم يعلق. لم تفاجئه رغبتها في الزواج فطبيعي جدا أن تفكر فتاة مثلها فيه، ولكنه هو الغير طبيعي، هو من أصبح يمقت ذكر الزواج، ويرى أنه مشروع فاشل وتقليد اجتماعي عتيق معّوق ومشـوّه وفي طريقه حتما للزوال. نزلت ليلى عن ظهره ورقدت بجانبه وارتفعت بوجهها الفاتن في سـماء وجهه مثل بدر يشـرق في سـماء الدنيا وواصلت

- أنت تعلم أن علاقتي بك يا روح هي أكبر من أن يؤطرها زواج. أنا أعيش معك الآن اسـعد لحظات حياتي، أحبك بطريقة مجنونة لم يحب أحد بمثلها من قبل، وعلى السرير اتجلى معك بأفعال عجائبية لا أعرف ما هو مصـدرها ولا من أين تأتي، اتبع

فقط غريزة الأنثى التي خلقتها أنت في داخلي بسحرك. لم أكن مهمومة بالزواج سابقا، والآن بعد أن عرفتك فإني أعجز حتى عن تخيل أن يلمسني رجل آخر سواك، لكني فقط أفكر أنه لو تزوجنا فبإمكاننا أن نكون مع بعضنا طيلة الوقت دون قيود أو خوف من العيون المتطفلة. إن إحدى عشرة ساعة وإن تكررت مائة مرة فلن تكفي ابدا لإسكات جوعنا المتضور إلى بعضنا، نحن نحتاج العمر كله، وربما أكثر

استمع ياسر لحديث ليلى الذي هز كيانه دون أن يحرك بصره عن عينيها العسليتين، لم يرد وظل صامتا بينما بدأت مياه الدموع تتجمع في مقلتيه حتى انسابت وديانا متدفقة من ركني عينيه. بكى كثيرا ونقل عدوى البكاء معه إلى ليلى، فأسقطت نفسها عليه وعانقته، واختلطت دموعهما. قال ياسر بصوت مشهوق من أثر البكاء

- أنا أحبك جدا يا ليلى... أحبك أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا

ردت عليه بصوتها المخنوق دمعا وهي ما زالت في حضنه قابضة على شعره

- وأنا أحبك جدا جدا يا روح

بعدها سكتا عن الكلام وعمّ الصمت أرجاء الغرفة عدا عن صـــوت أنفاســـهما المتهدجة. أدار ياســـر جســـد ليلى فوقه ليعيدها إلى وضـــعها الأول راقدة على ظهره، وأعاد يديه إلى صدرها، وتركهما تتسكعان هناك في جناتها. استسلمت ليلى في اســترخاء للمســاته حتى بدا جســدها كقطعة شــمع تذوب وتسيل على جسده. نطق ياسر أخيرا وقال

- هي الدنيا دائما هكذا...
- ما بها؟
- تقابلك بالشخص الصحيح في التوقيت الخاطئ
- ماذا تعني يا روح؟
- أعني أني لو التقيتـك عنـدمـا كنـت انســـانـا حرا لتزوجتك على الفور
- انسانا حرا؟
- أجل، فأنا الآن مكبل بأسـلاك تشـدني إلى الأرض، وتمنعني من الالتحـاق بـك في الســـمـاء، مكبـل بعائلتي، مكبل بزواجي الفاشـــل المعلق المصـــير، مكبل بأطفالي الثلاثة الذين جلبتهم من عالم الغيب إلى هذه الدنيا لأكون مسؤولا عنهم، مكبل بأفكاري

السـوداء التي كفرت بمفهوم الزواج والأسـرة السعيدة، مكبل بنفسي العليلة التي لا ترى في الحياة سوى عبث فوضوي ينتهي بالعدم، نفسي هذه التي ظلت تتمنى الموت والفناء كل ثانية خلال السـنتين الأخيرتين حتى أشـرقت شـمسـك عليها يا ليلى، فمنحتها نسمة حياة ونفخة روح...

سـكتت ليلى ولم تعلق، لكنها مدت كفيها لفوق وألصـقتها على خدي ياسر، وأخذت تلعب بلحيته، بينما يداه هو لم تقفا لحظة عن اللعب في صدرها. واصل كلامه

- من الناحية النظرية اسـتطيع أن اتزوجك بسـهولة، فلدي هذا البيت الجاهز، كما أن وضـعي المالي ميسـور، وباسـتثناء الاعتراض الذي يمكن أن يبدر من أهلك على اقترانك برجل متزوج وذي أطفال فلا أظن أن هناك عقبة اخرى يمكن أن تواجه اتمام هذا الزواج، لكن عمليا اعتقد أنها فكرة سـيئة بالنسـبة لك في المقام الأول، فأنت انسـانة في بداية حياتك بينما أنا في نهايتها، صـحيح أني لم ابلغ الأربعين بعد لكن لي روحا شـائخة سـئمت من الحياة وضـجرت من الدنيا، لا رغبة لي مثلا في اقامة حفل للزفاف، ولا في أنجاب أطفال، ولا في

التواصل مع أحد، والعيش مع انسان مفلس الروح مثلي هو قطعة من جهنم، ودونك زوجتي التي ضجرت مني وابعدتني ولم يشفع لي عندها سنوات عشرتنا الطويلة ولا ابناؤنا الثلاثة، وهذا مصير لا أتمناه لوردة جميلة متفتحة مثلك...

رفعت ليلى يديها عن لحية ياسر ووضعتها فوق يديه القابضة على نهديها. أغمضت عينيها وقالت

- أنا لن اكون مثل زوجتك، فأنا أعرفك وأفهمك أكثر منها، وربما حتى أكثر من نفسك برغم عمر علاقتنا القصير. سأكون لك ومعك في كل حالاتك الحلوة منها والمرة، سأكون الحضن الذي يحتويك عندما تحزن، والحجر الذي تضع رأسك عليه عندما تتعب، والصدر الذي يدفئك عندما تبرد
- الله...

قالها ياسر مبتهلا بخشوع ثم زاد من قبضته على صدرها ضاما ظهرها بشدة نحو صدره العاري. طالع جانب رأسها الراقد على صدره من بين خصلات شعرها فلمح دمعة خرجت من عينها لتنزلق على صدغها. تحرك بشفتيه نحوها حتى اطبقهما على الدمعة النازلة، شفطها إلى أغوار

فمه وابتلعها متباركا، ثم طبع بشـــفتيه قبلة في ذلك المكان وأعاد رأسه مسترخيا على المخدة. سكت قليلا ثم قال

- كم أحبك يا ليلى... أنت حتما حلم أو خيال، فلا يمكن لفتاة حقيقية من لحم ودم أن تكون بمثل هذا الجمال الداخلي والخارجي
- وأنا احبك أكثر يا روح. أنت كذلك خيال، فلا يمكن أن يكون هناك رجل بمثل شـــخصـــيتك الجميلة الغامضـة، بمثل شـهامتك ورجولتك، بمثل ذكورتك الهائجة، وفي نفس الوقت بمثل طفولتك وبراءتك
- أنا بهذا الوصـف أكون فعلا خيالا، فياسـر الحقيقي شـــخص مختلف تماما، شـــخص ممل بائس تافه وسـخيف، أنت فقط لم تقابليه لأني حين اكون معك اتحول ببركة سحرك إلى شيء آخر
- اذن دعنا نتزوج ونقضـي باقي عمرنا معا ملتحمين في هذه الغرفة
- كم أتمنى لو كنت أقدر على ذلك، لكني أحبك جدا ولن اســـمح لنفســـي بظلمك، فكما رفضـــت أخذ بكارتك فأنا ارفض أخذ حياتك، فحتى لو حررني القدر من قيوده وتزوجنا فإنك حتما سـوف تندمين، سينقلب كل هذا الحب الذي تسكبينه دفاقا عليّ الآن إلى مقت وكراهية، ستبغضـين اللحظة التي ربطت

فيها مصـــيرك بإنســـان معدوم المصـــير. الزواج الناجح قد لا يحتاج إلى مثل حبنا المتوهج لكنه يحتاج حتما إلى رغبة مشـــتركة بين الطرفين في الاســـتمرار والمضـــي إلى الأمام، يحتاج إلى آمال مســـتقبلية وإلى خطط تقود لتحقيق تلك الآمال، وأنا انســـان لا رغبة لي ولا آمال ولا خطط ولا حتى مستقبل، وأنت قطعا تستحقين ما هو أفضل كثيرا من ذلك

كان ياســـر يتكلم وهو يبكي. انهمرت دموعه أنهارا حتى بللت المخدة بمياهها. ليلى هي الأخرى بكت وتســـاقطت قطرات دموعها بغزارة على صـــدر ياســـر. ظل مطبقا ذراعيه عليها يضم ظهرها إلى صدرها في صمت، وبعد عدة دقائق انسلت ليلى من قبضته وهي تقول

- لقد تأخرنا

قامت وشرعت في ارتداء ملابسها في سكوت، وكذلك فعل ياسـر. أتما المهمة وخرجا من الدار وتوجها بالسـيارة نحو حي بري الخرطومي. طوال الطريق لم ينبسـا لبعضـهما ببنت شـــفة، لكنهما كانا بين الفينة والأخرى ينهمكان في

نوبات من البكاء، تارة يبكي هو، وتارة تبكي هي، إلى أن وصلا بوابة المستشفى الكبير في بري.

فتحت ليلى باب السيارة لتنزل فسارع ياسر الباكي لمسك يدها ثم قال ودمعه ينساب من خلف نظارته الشمسية السوداء

- رغم أنك أفضل دواء وأجمل علاج جربته نفسي العليلة إلا أنه ربما من الأفضل أن نتوقف عند هذا الحد يا ليلى...

نظرت إليه بعينيها العسليتين اللتين احمر بياضهما بفعل البكاء الكثير وأجابت ببرود

- أوكي
- رغم أن هذا يقتلني لكنه أفضل لك كي تستطيعي المضي قدما في حياتك دون أن تعطلك أمراضي وأقداري
- أوكي
- ولأننا قد لا نلتقي مجددا فأريد منك فقط أن تعرفي أنك والله أجمل ما حدث في حياتي منذ الساعة التي ولدتني فيها أمي

هذه المرة لم ترد عليه ليلى، اكتفت بنظرة أخيرة منحتها له ثم فتحت الباب ونزلت، ولت منصــــرفة معطية إياه ظهرها دون أن تلتفت اليه أو ترســـل إليه قبلة من بعيد كما تفعل عادة، ظلت فقط تواصل السير حتى تلاشى طيفها في أزقة الحي.

رمى ياسـر بجبهته على مقود سـيارته وأخذ يبكي بحرقة لا متناهية، يبكي بألم ولوعة وحسـرة، يحس أن دمه يتسـرب من شـرايينه لينسكب دمعا من عينيه، لقد انتهت الآن أجمل قصـــة في حياته، انتهت نهاية مباغتة مفجعة، هو كان يعلم أن مصـــيرها حتما إلى الانتهاء ولكن ليس بهذه الســـرعة القاتلة. كان صــادقا تماما في كل ما قاله لها، حكى ضـميره وشــرح ما يؤمن به، فلأنه يحبها جدا فيجب عليه أن يبعدها عنه، حتى وإن كان ذلك يعني الحرمان من نفخة روحها ومن نهر حياتها الذي أحيت به رميم عظامه وأنقاض نفسه.

الفصل الثالث

"المغادرة"

-64-

ســاءت حالة ياســر النفســية جدا منذ أن فارق ليلى، انعزل لأيام في غرفته يقضـــي نهاره وليله على فراشـــه، يبكي أحيانا، وأحيانا أخرى يعجز عن البكاء، أظلمت الدنيا تماما في عينيه واســود لون كل ما فيها وهي التي كانت قبل ايام فقط تصــطبغ باللون العســلي الجميل... لون قدحات عيني ليلى.

انقطع تواصـلهما كليا. هاتفه الذي لم يكن يكف عن اسـتقبال رســائلها المتلاحقة قد بكم، وأصــبح حزينا هو كذلك، ولأن ياسـر كان مدمنا على التواصـل مع ليلى فقد بدأت أعراض الانسـحاب تظهر عليه تماما كما يحدث لمدمني المخدرات، قلق شـديد وتوتر، ورعشــة في الأصــابع، وألم في الصـدر وخفقان مزعج في القلب، وفقدان للشــهية واضــطراب في النوم، وحتى حين يجود الزمان عليه بساعة من الإغفاء فإن الكوابيس الكئيبـة تـأبى إلا أن تعكر عليـه ليبـدأ من جـديـد سلسلة لا تنتهي من الأرق والسهر المزعج، يظل فيه راقدا على ســريره وعينــاه مفتوحتــان عن آخرهمــا في ظلام الغرفة، يحدق في السقف الذي لا يراه.

انكفئ ياسر على دواخله المعتمة وقطع كل اتصال له مع بني الإنسان. اتصل به ياسين مرارا فلم يرد عليه، فليذهب هو ومديره وبنكه إلى الجحيم، فحتى ليلى لم تعد تعمل به، ووجودها هناك كان هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يدفعه لقبول تلك الوظيفة السخيفة.

رن هاتفه بضع مرات خلال الأيام السابقة. عمر ومعتصم ومؤيد وأسامة وعماد كلهم اتصلوا به، لكنه لم يرد على أحد منهم. الشخص الوحيد الذي رغب برؤية اسمه على شاشة هاتفه كان (حمد الليل)، لكن ذلك الاسم لم يظهر منذ أن فارق صاحبته بجوار مستشفى بري في ذلك اليوم المشؤوم.

أراد أن يقوم إلى الحمام ليقضي حاجته فأحس بالوهن. انتبه إلى أنه لم يأكل خلال الايام الفائتة إلا فتاتا لا يكفي بالتأكيد ليقيم صلبه. فكر أن يخرج ليشتري شيئا يأكله لكن دماغه المكتئب قاوم الفكرة، فلا طاقة عنده للخروج، ثم ما الهدف من الأكل أصلا؟ أليبقى على قيد الحياة؟ لماذا؟ لماذا يطيل من أيام بقائه التعيسة على هذه الدنيا؟ زوجته تخلت عنه، وعياله غير منتبهين لوجوده، وحبيبته اختفت كسراب عابر، ووالداه جلباه إلى هذا العالم ثم رحلا إلى العالم الآخر وتركاه وحيدا يصارع نفسه القاتمة وحياته العابثة الخالية من أي مضمون.

قام أخيرا عن الفراش بعد مجهود متجها إلى الحمام، مر بالطاولة التي يستقران عليها منذ وقت طويل طاقيته الخضراء وتلك المسبحة اللتين اشتراهما من سوق أمدرمان الكبير، وبجوارهما لمح كبسولة بيضاء كان قد نسي وجودها، إنها كبسولة البريجابالين التي جلبها له معتصم. تناولها بيده وبدون تفكير كثير قذف بها في أعماق جوفه ومضى إلى الحمام.

بعد دقائق عاد مجددا إلى فراشه وعادت معه أفكاره السوداء السلبية التي لا تنتهي. ما أقسى أن يكون الشخص مريضا في نفسه. إنه مرض ينزع عن الإنسان إنسانيته. الحيوانات لا تصاب بالاكتئاب لأنها لا تدفن نفسها في ذكريات الماضي الأليم، ولا تشغل تفكيرها في هموم المستقبل المخيف. الإنسان فقط هو من يصاب بالاكتئاب لأنه تمرد على طبيعته الحيوانية ويريد أن يصبح إلها.

أحس ياسر فجأة بالاسترخاء، أوتاره المشدودة تطاولت، وعضلاته المقبوضة انبسطت، وأعصابه المتوترة هدأت. للحظة استغرب من هذا التغير المفاجئ للأحسن، لكنه وجد تفسيره سريعا عندما تذكر حبة البريجابالين التي ابتلعها قبل قليل، "بركاتك يا شيخ معتصم" هتف في داخله.

استغل ياسر الطاقة التي نزلت عليه بغتة فقام عن سريره وأخذ يرتدي ملابسه، سيخرج ليشتري بعض الطعام والحاجيات. توجه بقدميه إلى سوبرماركت لا يبعد عن بيته كثيرا، وهو يحس بشعور غريب في بدنه، مزيج من الارتعاش والاسترخاء، كما يحس بشعور غريب آخر في رأسه، مزيج من الخدر والانتباه.

في طريقه إلى السوبرماركت أجرى اتصالا بمعتصم الذي عاتبه على غيابه وعدم رده على مكالماته فيما مضى من الأيام. وبعد أن اعتذر له ياسر متعللا كذبا بالمشغولية سأله عن تأثير كبسولة البريجابالين فوصف له معتصم بالضبط ما كان يشعر به وتمنى له ساعات سعيدة في بلاط جلالة هذا الدواء. وقبل أن يختما المكالمة قال له معتصم

- بالمناسبة... علا تسأل عنك
- حقا؟ يا ليتك تجمعنا بها، فما أحوجني لسيجارة خضراء برفقتها
- حسنا يا معلم، سأحاول أن أرتب ذلك في أقرب فرصة وأعلمك

ابتســم ياســر وهو ينهي المكالمة فذكر علا أبهجه، هو كان قد نســـي أن في هذه الدنيا إناثا منذ أن عرف ليلى، فلم يكن يرى في الوجود أنثى غيرها، ولا حتى ســـارة حبيبة عمره ورفيقة دربه، فهي ستخسر المعركة تماما وبكل بساطة في وجه أنوثة ليلى، لكن شــمس ليلى قد غابت عن حياته الآن، ولذلك لا بأس من نفخ ســيجارة محشــوة برفقة فتاة أخرى، فلربما تحل ليلى في اقنومها بتأثير العشبة الخضراء.

دخل السوبرماركت واشترى الكثير من المواد الغذائية. هو قادر على ذلك الآن بمســـاعدة من كبســـولة البريجابالين، وحين يزول مفعوله ســـيعود حتما للانعزال والتقوقع على نفسه المظلمة. من يدري فلربما يمكث أياما أو حتى اسابيعا دون أن يكون لديه أدني طاقة أو أقل رغبة للخروج من بيته، ولذا فمن الجيد أن يكون لديه مخزون من الغذاء في مطبخه يلبي الحاجة البيولوجية لخلاياه الحية إن حدث ورغبت نفسه الميتة في الأكل.

عاد إلى بيته حاملا أكياس الطعام، أدخلها إلى المطبخ بعد أن التقط رغيف خبز وقطعة جبن بيضـــاء أخذ يقرضـــهما دون شهية. رن هاتفه وكان المتصل هذه المرة مؤيدا

- الو... أهلا يا مؤيد

- سلام يا ياسر، أين اختفيت يا رجل؟
- أنها مشاغل الدنيا

ابتســـم ياســـر لا إراديا وهو يتأمل في عذره الكاذب الذي نسجه لصاحبه، ليس كاذبا فقط بل هو صفيق وبجح أيضاً، لعل البريجابالين هو من يتحمل المســـؤولية عن هذا الرد السخيف.

- متى ســنجتمع للعب الكوتشــينة كما اتفقنا؟ إنني في حالة لهفة للعب، وأسامة كذلك

ســكت ياســر قليلا وأخذ يفكر، لو كان مؤيد اتصــل به قبل ســاعة فما كان ســيرد عليه أســاســا لأنه كان خاوي الروح خالي الطاقة، عاجزا عن الكلام ناهيك عن لعب الكوتشينة، لكنه استطاع أن يرد عليه الآن بفضل حبة الدواء، وبفضلها أيضــاً تروق له فكرة اللعب في هذه اللحظة، اذن فليســتغل الفرصة وليلعبوا سريعا قبل أن يزول مفعول البريجابالين.

- ما رأيك أن نلعب اليوم يا مؤيد؟
- ممتاز، لا مانع لدي. هل عثرت على لاعب رابع يكملنا؟

- سأتصل بابن عمي عمر، فإن وجدته متاحا سأعود لاتصـــل بك لتبلغ أســـامة وتحضـــر ورق اللعب ولتجتمعوا جميعا عندي هنا في البيت
- اتفقنا يا صديقي
- اتفقنا

-65-

لم تمض ســاعة على عودة ياســر من الســوبرماركت حتى اجتمع ثلاثة أشـــخاص في بيته، مؤيد وأســـامة وابن عمه عمر. تحلق أربعتهم حول الطاولة المســتديرة في منتصـف الصـــالة وبدأوا يلعبون الكوتشــينة بانغماس وحماس. أحس ياسر ببعض المتعة والبهجة وهو يشاركهم لعبته المفضلة، إنه لنوع من التغيير الإيجابي في إيقاع أيام حياته القاحلة، أن يكون هنا وحوله أصــــدقائه، وأن يشـــاركهم هذا اللهو البريء، وأن يخرج قليلا من عزلة ســـجنه الانفرادي الذي حبسته فيه نفسه الجلادة.

مرت ساعات من اللعب ولم يفتر حماس الأربعة للمواصلة. انغماســهم في اللعب بهذا الإخلاص يعكس ربما رغبة منهم في تجاهل آلام الدنيا والهروب قليلا من كماشــــة واقعها

المرير، فكل وأحد من الأربعة يركض هربا من وحش يطارده، أسامة يريد أن يتناسى قليلا مشاكله الاقتصادية والزوجية، ومؤيد يود أن يتجاهل قليلا همه المحبط بالعثور على زوجة يؤوي إليها، وعمر لديه امتحان مهم قريب يلتهم كل وقته وطاقته فكان بحاجة لمثل هذه الاستراحة، بينما ياسر لا يرغب سوى في هدنة ولو مؤقتة من سيطان أفكاره السوداوية العدمية.

في عز دورة من دورات اللعب رن هاتف ياسر ليشتت تركيز الأربعة عن عالم الكوتشينة المغلق ويعيدهم للعالم الذي فروا منه. كان المتصل هو معتصم، أجابه ياسر محييا فرد هذا الأخير بصوت هامس مبحوح يشي بخطورة ما ينوي النطق به...

- ياسر هل أنتم في البيت؟
- نعم، برفقتي عمر ومجموعة من الشباب
- تخلص منهم بسرعة. علا معي في السيارة ونحن في الطريق اليك

ملأ الحماس والاستثارة وجه ياسر لدى سماعه اسم الفتاة وقال

- علا؟ اتقصـــد تلك نفســـها التي أتخيلها في رأســـي الآن؟
- أجل هي، واخفض صـــوتك كي لا ينتبه من هم حولك

صـــمت ياســـر برهة ونظر لمن حوله فوجدهم يطالعونه باستغراب وترقب. ابتلع ريقه ثم واصل الحديث مرتجلا

- حسنا يا معتصم... سأخبر عمر أنكم تنتظرونه
- ياللا بسرعة

أغلق المكالمة والتفت لعمر قائلا

- معتصـــم يود اعلامك بأنه ومجموعة من زملائكم في انتظارك الآن بمكتبة المســـتشـــفى لكي تتدربوا على حل مجموعة من الاختبارات القديمة استعدادا لامتحانكم نهاية الشهر

اندهش عمر مما ســـمعه، تســـاءل في نفســـه "أليس الوقت متأخرا على عمل كهذا؟ ثم لماذا لم يتصـــل معتصـــم بي لـــيـــخـــبـــرنـــي بـــذلـــك مـــبـــاشـــرة؟".

- طلب مني ايصالك إلى المستشفى والاستعجال في ذلك

قطعت عليه عبارة ياسر الاخيرة سلسلة تساؤلاته المشروعة، فوضع ورق اللعب على الطاولة وقام ليتناول جهاز حاسبه المحمول وكتبه استعدادا للمغادرة.

- أنا آسف يا شباب... صديق عمر المؤذي قد أفسد علينا جلسة اللعب الجميلة هذه، دعونا نواصلها مرة أخرى

قال ياسر ذلك موجها كلامه لأسامة ومؤيد الذين لا يزالان ممسكين بورق اللعب، فارتسم الاحباط على وجهيهما بسبب النهاية المباغتة لجلسة اللهو الجميلة. وضعا أوراق اللعب على الطاولة بانكسار ثم قاما متباطئين وودعا ياسر وانصرفا مخذولين.

حضر عمر يحمل حقيبة أغراضه ثم قال لياسر

- هيا بنا

ابتسم ياسر في خبث، لم يرد عليه بل أخرج هاتفه المحمول من جيبه واتصل بمعتصم

- يا معلم... أين وصلتم؟
- اقتربنا. هل انصرفوا؟
- نعم، الدار امأن
- أحسنت، دع لي الباب الخارجي مفتوحا لننسل عبره بهدوء
- علم وينفذ

وقف عمر مشدوها يراقب الحوار التلفوني ويحاول أن يفهم. ابتسم ياسر ابتسامته الخبيثة مجددا وقال له

- يا قريبي أعد حاسبك وكتبك إلى مكانهم، فلا توجد مكتبة ولا مذاكرة ولا امتحانات
- ماذا؟
- كل ما في الأمر أن معتصم قادم إلى هنا ومعه ضيف
- من؟
- علا...
- علا!!

ســـــار عمر خطوات إلى الوراء ليعيد حقيبتـه من حيث أحضرها، نبضات قلبه تتسارع، وانفاسه تتصاعد، اعتراه وابـل من القلق لأنــه ليس من هواة المغـامرات كيـاســـر ومعتصـــم، كما أنه لا يتعاطى الحشــيش، لذا بدت فكرة أن يجلس في جلسـة تحشـيش برفقة فتاة أمرا بالغ الفحش، ماذا لو عرفت زوجته؟ ماذا لو تم القبض عليهم متلبســين؟ ماذا إن حدث مكروه وفضحتهم الظروف؟

وهو في غمرة تسـاؤلاته المتخوفة سـمع صـوت الباب وهو يفتح لتظهر عبره فتاة ممشـوقة الطول، ترتدي جينزا أزرق يفصّـل تضـاريس نصـف جسـدها الأسـفل، وتكسـو نصـفها الأعلى بقميص نســائي أبيض يظهر ســاعديها الأســمرين اللامعين، شـعرها قصـير ومسـرح إلى الجانب بأناقة، أنفها متوج بزمام فضـــي يبرق، حاجباها مرسـومان بعناية فوق عينيها الواسعتين. دخل معتصم ورائها مباشرة وأغلق خلفه الباب بالمفتاح. انتصــب في وسـط الصــالة مبتسـما ونافحا صدره كديك يتبختر ثم قال

- أقدم لكما علا...

تقدم منها ياسر وصافحها طويلا وهو يخبرها أنه سمع عنها كثيرا من معتصم وكم أنه سعيد بهذا اللقاء الذي طال ترقبه.

أما عمر فسلم على علا بارتباك، وهو يتلفت بعصبية نحو معتصم راميا إياه بنظرات العتاب. دعاهم ياسر للجلوس وأحضر لهم مياها غازية من الثلاجة كنوع من الضيافة، ثم ابتدأ بينهم حوار اجتماعي عام عن العمل والدراسة، والسكن والسياسة، وغير ذلك من فضول الكلام، ولأن ياسر يكره هذا النوع من الحوارات ويؤمن بأنها هرائية عبثية بائسة لا قيمة لها ولا طائل منها فقد قاطع برعونة حديث عمر الذي كان بالكاد قد بدأ يتعود على الجو وقال موجها كلامه لمعتصم بنبرة شبه آمرة

- لندخل في المفيد

نظر معتصم لعلا نظرة ذات مغزى ففتحت حقيبتها وأخرجت كيسا مليئا بالعشبة الخضراء السحرية ووضعته على الطاولة. معتصم بدوره أخرج علبة سجائر وولاعة وورق بفرة ووضعهم بجانب كيس القنب الهندي. التمعت عينا ياسر المفتوحتان عن آخرهما لرؤية عناصر البهجة تكتمل، وسرت في جسمه قشعريرة لذيذة وهو يشاهد علا تخرج العشبة الخضراء من الكيس وتفردها على الصينية أمامها، ثم تحركها بإصبعها باحثة عن البذور لتخرجها وتعزلها، بينما أخذ معتصم سيجارتين وكسرها ومزج تبغهما، وبعد ذلك فردت علا ورقة البفرة وخلطت بها نبات

التبغ بفتات أوراق نبات القنب الخالية من البذور، قبل أن تبرمها وتلفها وتمنحها لحسـة من لسـانها ليصبح (جوينتا) جاهزا للنفخ.

- الله...

قالها ياسـر بنشـوة وهو يطالع (الجوينت) الملفوف بحرفية بين إصبعي علا، ورغم انفجار مشاعره إلا أن جسمه بقي جامدا متصـلبا على كرسـيه كراهب بوذي يمارس اليوغا. عمر بالمقابل كان متوترا، فلم يحدث من قبل أن جلس في جلسـة مخدرات كهذه، وكذلك لم يحدث أبدا أن يجمعه مكان مغلق بفتاة غريبة مريبة وحشـاشـة. حاول إخفاء توتره بالكلام فسأل معتصم بسذاجة فاضحة

- هل هذا بنقو؟
- لا يا صديقي هذا شاش
- ما الفرق؟

عندها قفز ياسر خارج حوصلته الوجدانية والتفت إلى عمر وقال

- كلهم ينتمون لنفس الفصـــيلة، أو بالأصـــح لنفس الجنس من النبـاتـات، القنـب الهنـدي، تلـك النبتـة الســـرمدية، التي تربط الســـماء بالأرض، فتنقل الكائنات الأرضـية نحو شـرفات سـماوية علية، ما يميزها هو احتوائها على مركب الـــــ Tetrahydrocannabinol أو الـTHC ، تحوله حرارة النار إلى صـورته الكيميائية الفعالة، فيدخل جســد الكائن الأرضـــي ويســري في دمه، ويعبر الحاجز الدموي الدماغي، ليصـــل إلى خلايا المخ، وعندها يفرز سحره العجيب، فيمزق ستار الغيب، ويكشــف حجاب الحقيقة، ويذيب الزمان ويصـــهر المكان، ويفصـــل الكائن الأرضـــي عن جذوره الدنيوية المقيدة، فيصــير كائنا ســماويا متوحدا مع روح الكون اللا نهائي...

التفتت علا لمعتصـــم وعلى وجهها ارتســـمت علامات التعجب المبتسم فقال لها وهو يبادلها الابتسامة

- هذا وهو بعد لم ينفخ
- يبدو أنه مسطول طبيعيا ولا حاجة له بسيجارتنا

قالت ذلك وهي تمد الجوينت المشتعل لياسر، فتناوله منها بفرحة أم قد مدوا له وليدها...

-66-

سرى الدخان الأخضر من فم ياسر إلى قصبته الهوائية قبل أن يستقر في رئتيه. حبسه هناك كاتما أنفاسه ومقاوما رغبة صدره الملحة في السعال، وبعد ثوان أطلق سحائب الدخان من رئتيه لتلبد سماوات الصالة وتجعل الجو فيها أكثر أثارة. أعاد السيجارة إلى علا قائلا

- صنف جميل... وسيجارة ملفوفة بحب...

بنصف ابتسامة وربع نغمة من الضحك التقطت علا السيجارة وجرت منها نفسا عميقا قبل أن تمررها بدورها إلى معتصم، ثم دارت الدائرة من جديد إلى أن تلاشى كامل السيجارة بعد بضع جولات. ياسر الذي أحس بدغدغة في دماغه وثقل في عينيه اعتراه الخوف من أن تكون هذه هي نهاية رحلة الانسطال، فهو يشعر أنه لا يزال في منتصف الطريق ولم يعبر أبواب السماوات بعد بالكامل. قال موجها نظرات عيونه المتثاقلة إلى معتصم

- إياك أن تخبرني أننا سنكتفي بواحدة فقط
- لا تقلق فهناك المزيد

قالها ضـــاحكا ونظر إلى علا التي تناولت حقيبتها مجددا لتخرج منها هذه المرة (جوينتا) طويلا جاهز اللف، أمسكته بين ابهامها وســـبابتها ومدته إلى ياســـر مبتســـمة.

- الله... كم من المبهجات تحوي تلك الحقيبة!

أخذ ياســر الســيجارة الملفوفة منها فرحا، مررها على أنفه متشمما ثم ابتسم ابتسامة بطيئة وطويلة تتناسب مع إيقاعه النصف مسطول. رد السيجارة إلى علا قائلا

- هلا تمنحيننا شرف الافتتاح؟

انفجر معتصـــم ضـــاحكا بينما تناولت علا الســـيجارة ووضعتها بين شفتيها المكتنزتين وأشعلتها نافثه الدخان في سماء الصالة قبل أن تعيدها إلى ياسر، الذي رفعها إلى فمه في غبطة متذوقا من عليها بقايا لعاب علا. أخذ نفســا عميقا وكتمه، وعندما نفثه أحس بالعبور. لقد عبر آخر أبواب الســـماء وفارق الأرض، عرف ذلك من إحســـاس تمزق

بطانة دماغه في رأسه، ومن تحول معتصم الجالس أمامه إلى صورة كرتونية مرسومة. ضحك ضحكة شديدة طويلة حتى تألمت عضلات بطنه وهو يمد السيجارة إلى معتصم. تناولها الأخير مبتسما وهو ينظر إلى عمر الجالس متوجسا يراقب ما يجري بأطراف عيونه دون أن يحرك رأسه ثم قال له

- لقد عبر قريبك يا عمر
- الله يستر!

تواصل دوران السيجارة الملفوفة حتى فنيت عن آخرها والتحقت بسابقتها في عالم الرماد. استرخى ياسر على كرسيه سامحا لكل عضلاته أن تتطاول في انبساط. لم يعكر ألم حلقه بفعل استنشاق الهواء الاخضر المحروق من بهجته وتحليقه في فضاءاته. سأله معتصم

- بشرني يا صديقي؟ هل أعجبتك؟
- من؟ السيجارة أم علا؟

انفجر رفقاؤه الثلاثة بالضحك، لكنه لم يضحك معهم، فسؤاله في تلك اللحظة بدا له سؤالا فلسفيا وجوديا عميقا، سؤالا جادا يتطلب إجابة جادة لا ضحكا عبثيا من مجموعة من

المسطولين.

- السيجارة يا معلم... أقصد السيجارة
- دعك من السيجارة يا معتصم فليست هي العامل الأساسي الذي به تترجح كفة الموازين وتتحدد طبيعة الأشياء، وعندما نقول طبيعة الأشياء فنحن نتحدث عما ندركه عن طبيعتها وليست الطبيعة في جوهرها، وهذا كما هو معروف نقاش قديم بين الفلاسفة بدأ مع السفسطائيين القدامى في اثينا ولم ينته مع ايمانويل كانط، لكن الذي تخبرنا به التجربة ولاحظ أنني اتحدث هنا عن التجربة الابنة الشرعية للعلم التجريبي الذي هو نفسه وليد الفلسفة التجريبية والناتجة بدورها عن تصورات عقلية، ولكنه بسبب إنجازاته العصرية أصبح سلطانا وحاكما عليها... ما أريد قوله هو أن...

وتوقف عن الحديث لأنه نسي ماذا يريد أن يقول، فتأثير الـ THCعلى خلايا دماغه العصبية بلغ مبلغا جسيما، فباعد بين محاورها وفرق بين تشابكاتها وأبطأ من سرعة كهربائها، فلم يعد بإمكانه التركيز على ما ينوي التركيز عليه. نظر إلى رفقائه الثلاثة فوجدهم متصنمين في جلساتهم يحدقون فيه بعيون مسطولة تتساءل عن بقية

كلامه. حتى عمر الذي لم يشاركهم أنفاس السيجارة بدا مسطولا أكثر منهم بفعل هواء الصالة الممتلئ عبقا بجزيئات الـ THC. سألهم ببساطة

- عن ماذا كنا نتحدث؟

رد معتصم ضاحكا

- كنت تتكلم عن التجربة، الوليدة الشرعية للعلم التجريبي
- أعرف ولكن ما الذي قادنا لهذا الموضوع أصلا؟

تدخل عمر

- يا ياسر، كل هذا الحديث الذي سكبته علينا كان بسبب سؤال معتصم لك
- سؤال؟ أي السؤال؟
- هل اعجبتك...
- أها صحيح... السيجارة أم علا...

انفجر الأربعة في ضحك هيستيري امتد لدقائق واضعين أياديهم على بطونهم كرد فعل تلقائي عديم النفع حماية لها

من التمزق بفعل الضـــحك الجامح. عندما هدأت نوبة الضحك قام عمر عن كرسيه متثاقلا. أخبرهم بأنه سيذهب للحمام ليغسل وجهه فهو لا يشعر أنه بخير. قالت له علا

- عادي يا عمر... لا تقلق، إنه تأثير بسيط وسيزول سـريعا. يمكنك أن تتناول قطعة من الجبن الأبيض لتسرع عملية تخلص جسمك من المخدر

مضى عمر نحو الثلاجة ليطبق نصيحة علا باحثا عن جبن أبيض عله يساعده على التخلص من هذا الشعور الغريب الذي يعتريه، شعور يمزج بين البهجة والتعب، والسعادة والقلق، والتركيز والتشـتت. ظل الثلاث الباقون على كراسـيهم صـامتين، عيونهم تحدق في الفراغ، تنظر ولا ترى. ياسر سرح مع أفكاره عن الجبن، يفكر من أين أتت علا بهذه النظرية الغريبة عنه، وأية مادة في الجبن عساها تكون مسـؤولة عن مثل هكذا تأثير؟ أتراه اللاكتوز سـكر الحليب؟ أم الكاسيين بروتين الحليب المتخثر؟ ثم كيف لمادة مصـنوعة من الحليب الذي ما هو إلا افرازات لغدة عرقية متحورة تسـتعملها الثدييات لإطعام صـغارها أن توقف التأثير السحري للـTHC ؟ وهل تعلم تلك البقرة التي سلبوا منها طعام عجلها الوليد ليصـنعوا منه جبنا يبيعونه بالكيلو جرام لنوع آخر من الثدييات يسمى الإنسان، هل كانت تلك

البقرة المسكينة تعلم أن افرازات ثديها المسروقة يمكن أن تستعمل لمقاومة تأثير نبتة القنب الهندي؟ و هل يعرف القنب الهندي نفسه أن الـ THC الذي يصنعه ليقي به أوراقه من غزو الحشرات أن ذلك المبيد الطبيعي يحرقه نوع من الثدييات يسمى البشر ويستنشقونه دخانا في صدورهم ليفتح لهم أبواب السماء؟ و هل يعرف القنب الهندي أن نو عا آخر من الثدييات يسمى البقر يمكن أن يفرز حليبا يحوله البشر إلى جبن يأكلوه إذا أرادوا الهبوط ثانية إلى الأرض؟

- أين سرحت يا ياسر؟

أخرجه سؤال معتصم من عالم أفكاره الحلزونية، نظر حوله ليستشعر العالم الذي يجلس فيه، فوجد علا عن يمينه متجمدة في جلستها وعيونها مرسلة بعيدا تنظر إلى اللا شيء، وأمامه معتصم يجلس محدقا فيه وعلى فمه ارتسمت ابتسامة بلهاء واسعة زادها قبحا عيناه المحمرتان، ثم التفت يساره فوجد الكرسي الذي بجانبه فارغا، توجه بالسؤال إلى رفيقيه

- كان معنا أحد ما يجلس على هذا الكرسي... أليس كذلك؟

انفجرت علا ومعتصم في ضحكة هيستيرية جديدة، ومن ورائه سمع ضحكات عمر تأتي من بعيد وتقترب حتى وقف أمامه، وفي يده قطعة كبيرة من الجبن الأبيض يلتهمها في نهم. قال له عمر

- وضعك صعب يا قريبي... خذ قليلا من الجبن لتستفيق
- لا يا عزيزي فأنا ابحث عن هذه اللحظة منذ سنين. لقد دخنا أنا ومعتصم البنقو قبل فترة في شقتكم، لكني لم أعبر كما عبرت الآن، بل ولم أشعر حينها بشيء كثير حتى أحبطت وظننت أن دماغي تصخّر وتصلّب وغدا مقاوما لتأثيرات القنب السحرية، وأنني مكتوب علي الحرمان من ملامسة السماء مجددا، لذلك أنا سعيد جدا اليوم بعلا وبما أحضرته علا، إنها فتاة مبروكة، وهذا يقودنا للسؤال الذي طرحه معتصم قبل قليل... هل أعجبتك؟ هو سؤال عميق ويحتاج قدرا كبيرا من التفكير والتأني قل الإجابة، لكني سأجيب عنه على أية حال، نعم أعجبتني، أعجبتني السيجارة، وأعجبتني علا أكثر، فمنذ سنين وأنا أحلم أن أدخن سيجارة خضراء برفقة فتاة، بدأ حلمي عندما كنت

مرة في أمستردام، مدينة القنب الأولى، هناك بيعه وتناوله حلال في حكم القانون، يمكنك أن تلف السيجارة وتذهب بها إلى ضابط الشرطة وتطلب منه أن يشعلها لك. يبيعون العشبة الخضراء المباركة في محلات مخصصة يسمونها Coffee Shop. لا أعلم من أين أتى هذا الاسم، فلم أشاهد بها قهوة ولا رأيت أحدا يأتي هناك لشربها. هذه المحلات منتشرة في وسط العاصمة الهولندية قريبا من منطقة الأضواء الحمراء، ومنطقة الأضواء الحمراء هذه بالمناسبة هي مكان لعرض الأجساد. تخيلوا سوقا كبيرا كالسوق العربي لكنه لا يعرض ملابسا ولا أحذية، وإنما يعرض المتعة والشهوة. على مد البصر هناك فتيات لا يرتدين من الثياب إلا ما يستر المناطق الأكثر سخونة، يقفن خلف واجهات زجاجية ويتبارين في جذب الزبائن والسواح. هناك المئات من هؤلاء الفتيات يلبين كل الأذواق المتنهمة، الطويلة والقصيرة، البيضاء والسمراء، النحيلة والبدينة، يرتدين مختلف الأزياء التي تتطلع لها كل الخيالات المريضة والسليمة، منهن من ترتدي زي معلمة، ومنهن الممرضة والقاضية ومضيفة الطيران وعاملة النظافة الفندقية بل وحتى الراهبة، كما أن هناك شارعا فرعيا في

هذه المنطقة ـ أعني منطقة الأضـــواء الحمراء ـ لمحبي الجنس المثلي، وحتى لأولئـك المتحولين جنسيا...

توقف ياســـر عن الحديث وقلب ناظره بين العيون المحدقة به والآذان الصاغية إليه وقال

- ما الذي أدخلني في هذه التفاصيل؟ هذا ليس ما أريد أن اتحدث عنه. ماذا كان الموضـوع الأسـاسـي يا معتصم؟

انفجر معتصـــم في ضـــحكة جديدة وكذلك فعلت علا، أما عمر الذي ربما منحته الجبنة البيضـــاء بعض التماســـك والتركيز فقال

- كنت يا ياســر تتحدث عن أماكن بيع الحشــيش في امستردام
- أجل صحيح. أحسنت يا عمر أحسنت

ثم سكت وفكر قليلا، بعدها قال

- لكني متأكد أن هناك موضـوع أصـلي قبله هو الذي دعاني لأتحدث عن أماكن بيع الحشيش هذه

صرخ معتصم

- آها... السيجارة أم علا يا معلم

ودخلوا جميعهم مجددا في موجة ضحك جديدة كانت أقصر هذه المرة لأن ضـــحكهم الســـابق كان قد أرهقهم وكأنهم ركضوا المارثون. واصل ياسر

- نعم نعود للنقطة الاساسية وهي لماذا أنا سعيد بهذه الجلســـة المباركة مع علا. عندما دخلت أحد هذه المحلات لأول مرة كنـت مضـــطربـا، لأن عقلي الباطن المتشــرب بكل خلفيتي الثقافية والاجتماعية كان يلح عليّ أن أكون حذرا لكي لا تقبض الشرطة علي متلبسا وأنا ابتاع المخدرات وأرمى في السجن وأجلـب العـار على أهلي. تغلبـت على التوتر وتوجهت للبائع الذي مد إليّ قائمة بالأصـــناف المتوفرة، أكثر من عشـــرين اســـما حوتها قائمته، ميزت بعضـــها والغالبية لم أتعرف عليها. عندما حارني الاختيار طلبت منه أن يختار لي هو صـــنفا

جيدا، فسألني عن ماذا أفضل؟ ماريجوانا أم حشيش؟ سألته ما الفرق فقال لي أن الأولى تعطي إحساسا بالجنون، أما الثانية فتبعث على الهدوء والاسترخاء. قلت له أني باحث عن الجنون لذا اختار الماريجوانا. سألني هل أزنها لك أم أعطيك (جوينتا) جاهزا؟ فاخترت الثاني لأني كما تعرفون لا أتقن اللف، فمد لي أنبوبا بلاستيكيا أسطوانيا، ولما بدت الحيرة على تقاسيم وجهي فتح الجزء العلوي منه فظهرت السيجارة الملفوفة بأناقة داخله، مدها لي من جديد مبتسما، وعندما ناولته الثمن أخبرني بأنني يمكن أن أجلس في الصالة العلوية لأدخنها هناك إذا اردت، فشكرته وصعدت إلى الصالة

توقف ياسر عن الحديث ونظر من جديد إلى الوجوه المتطلعة إليه. صمت قليلا ثم قال

- لقد توقفت هذه المرة لا لأني نسيت ما أريد التحدث عنه، بل لأخبركم أني أعرف تماما ماذا أريد أن أقول...

ثم ضحك عميقا وضحكوا معه طويلا، ولما استجمع أنفاسه ليواصل الحديث نسي أين توقف فسكت وأخذ يحدق في السقف.

- واصل يا معلم

قالها معتصـــم في اســـتجداء والابتســـامة البلهاء لا تزال مرتسمة على وجهه.

- ماذا أواصل؟
- القصة التي كنت ترويها
- أين توقفنا؟
- عندما أخذت السـيجارة وصـعدت إلى الصـالة كي تدخنها
- حسنا، لكن ماذا كان الهدف من القصة؟
- ألم تقل أنك تعرف تماما ما تريد قوله
- كنت أعرفه والله، لكني نسيته الآن

ضـحك ثلاثتهم لكن ياسـر لم يضـحك معهم، فاسـتمراره في نســـيان ما يريد قوله عكر مزاجه، رغم أن المجاهدة في حفظ حبال الأفكار متصـــلة كانت دائما إحدى نعمات القنب المفضلة لديه. قطع ضحكهم بقوله

- ذكروني فقط لماذا بدأت في سرد هذه القصة؟

قالت علا

- كنت تحكي عن فلسفة العلم التجريبي أليس كذلك؟

نظر اليها طويلا. عيونها الواسعة ضاقت واحمرت قليلا بفعل المخدر لكنها بدت أكثر جاذبية في جلستها المسترخية واضعة رجلها اليمنى فوق اليسرى وقماش بنطالها الجينز يئن من ضغط ما يحتويه من أوراكها. قال ياسر

- تذكرت... السيجارة أم علا؟ ولماذا كنت أتمنى جلسة كهذه مع فتاة مثلك. لقد بدأ كل شيء في تلك الصالة. كانت ملبدة بالدخان والذي عبره تلوح بوضوح خيوط النور التي يرسلها المصباح الوحيد المعلق في منتصف السقف. جدران الصالة مطلية بلون أخضر فستقي يليق بلون الحشائش الخضراء التي يدخنها الزبائن فيها، وارتصت بمحاذاة الحائط منصات عريضة للجلوس وأمامها طاولات تمتد بموازاتها. جلست في أحد الجوانب وأخرجت (الجوينت) من علبته البلاستيكية الفخيمة وشرعت

في إشـــعاله، وعندما نفثت أول الأنفاس انتبهت للزوج الذي يجلس أمامي، فتى وفتاة لا أظنهما بلغا العشـرين عاما، كلاهما شـقراوان ذوا عيون زرقاء باهرة. ملابسـهما تتشـابه كذلك، بنطال وجاكيت من الجينز الأسود، وحذاء أسود عالي الرقبة ذو شريط أسود طويل يتقاطع باتساق على نفسه قبل أن ينعقد خلف الســاق. يختلفان فقط في (التيشــيرتات) التي يرتديانها، هو يلبس واحدا رماديا خاليا من النقوش والرسومات، أما هي فزيها أبيض ناصع ترتسم في منتصـــفه وردة بنفســـجية كبيرة، وهناك اختلاف صـــغير آخر بين زييهما وهو أنها ترتدي قبعة بيضـــاء من الصـــوف، تخفي القبعة أذنيها وجانبا كبيرا من رأســـها، ويتدفق من جوانبها شـــعرها الأصفر كشلال من سنابل القمح الناضجة

ســـكت ياســـر قليلا ثم همهم لنفســـه "الســـيجارة أم علا... الســيجارة أم علا". تســربت ضــحكات متقطعة من أقرأنه على هذه المحاولة التي تدعو للشـــفقة منه لمنع أفكاره من التشتت. لم يعبأ بضحكاتهم وواصل

- أخذت أنفث سيجارتي وأنا اراقب نظراتهم الشـغفة لبعضـــهم البعض و هم يملؤون ورق البفرة

بالماريجوانا، وكيف حمل الفتى الورقة بما عليها ووضـــعها على فخذ رفيقته يلف الســـيجارة عليه، وهي تنظر إليه في حب وولـه. وعندما اقترب من اكمال لفها رفعها بالقرب من فمها طالبا لعابها ليكمل به المرحلة الاخيرة من اللف، ثم انهمكا في قبلة طويلة حبلى بالشغف حتى ظننت أنهم قد نسوا أمر السيجارة، لكنهما عادوا إليها وأشعلوها. أخذت منها الفتاة نفســـا عميقا وكتمته في صــــدرها، ثم اقترب فتاها منها وألصـــق فمه مفتوحا على فمها، فعبر دخان السيجارة الخضراء مباشرة من رئتيها إلى رئتيه، وعندما أخرجه وزادت الصــــالة دخانا على دخان نظر إليها فوجدها تطالعه في هيام، وقد التمعت عيناها الزرقاوان وانفرجت شـــفتاها الورديتان عن ابتسامة فاتنة أظهرت جمال أسنانها البيضــاء المتناسـقة، وانغرسـت في نسـيج خديها غمازتـان فـاتنتـان عجز الصـــبي عن مقـاومـة جاذبيتهما فانكب على واحدة منهما يعضها بأسنانه برفق، بينما الفتاة تضــــحك في دلال. وبعد أن ذاق حلاوة الغمازات تذكر الســـيجارة التي في يدها، فأخذها منها وسحب نفسا ورده لها في رئتيها تماما كما فعلت هي. وظلا على هذا المنوال يتبادلان الأنفاس والقبلات والهمسات واللمسات، وظللت أنا

اراقبهما وهما ليسا منتبهين لوجودي أصلا، ومشغولان فقط بالتأمل في ذواتهما العلية. لم آخذ من سيجارتي التي اشتريتها بعشرة يوروهات سوى نفسين، لكني نزلت من الصالة وخرجت من المحل وأنا في تمام الرضى، مسطولا بروعة ما رأيت، أجمل مشهد حب أراه في حياتي، ومنذ تلك اللحظة وأنا أتمنى أن اشارك فتاة تدخين القنب، لذلك طرت من الفرح عندما أخبرني معتصم عنك يا علا، وظللت ألح عليه منذ ساعتها ليجمعنا هذه الجمعة الميمونة، فوجودي بقربك ونحن نمرر السيجارة لبعضنا مرر في داخلي بعضا مما عاشه ذلك الفتى الأشقر المحظوظ، حتى وإن كنا...

في غمرة سطلته انتبه ياسر إلى تلك المنطقة الخطرة التي يوشك أن يلجها لذلك أجبر نفسه على السكوت، فهو لو واصل في ما يحكيه فكأنه يدعو علا لأن تصنع له مثل ما صنعت تلك الفتاة الشقراء لرفيقها، وهو حتى إن كان في هذه اللحظة مسطولا إلا أنه رجل محترم وراق لا يمكن أن يراود ضيفة في بيته عن نفسها أمام صديقها الذي قدمت برفقته، وهو فوق ذلك يدعي أنه نصير لحقوق المرأة، يرفض السلطة الذكورية والاحكام الاجتماعية حتى تلك المتعلقة بالزواج والطلاق، والتي تمنح الرجل حق أن

يتزوج بكلمة، ويطلق بكلمة، بينما تتم معاملة المرأة فيها كقطعة من متاع، خاضعة تماما لسلطان الرجال، يعطونها المال مقابل الجنس، يسمونه أحيانا مهرا، وأحيانا أجرة، يصفونه مرة بأنه حلال، واخرى بأنه حرام، وينعتونها تارة بالشريفة، وتارة بالعاهرة، رغم أنهم هم الذين في الحالتين يدفعون نقدا ويقبضون جنسا، لكن لأنهم أصحاب السلطة فهم يصنفون الأمور كما يهوون، والنساء المغلوبات لا بواكي لهن.

- لماذا سكت؟

أيقظه سؤال عمر من شبكة أفكاره العنكبوتية. أجاب

- لا شيء... انتهت القصة فقط

ثم التفت إلى علا قائلا

- على فكرة أنا من أكبر المؤيدين للحركة النسوية يا علا. يمكنك أن تصفيني بأنني رجل نسوي

نظرت إليه علا باستغراب ومطت شفتها السفلى بتعجب وهي تلتفت إلى معتصم. وما أن التقت عيناهما حتى انفجرا

ضحكا على هذه الانعطافة الحادة في مسار الكلام، وضحك عمر معهم، أما ياسر فاسترخى بجسده على الكرسي متنهدا في ارتياح بعد أن زينت له دماغه المسطولة أن علا بقولته هذه قد غفرت له تحرشه الافتراضي الذي لم يحدث .

-67-

فتح ياسر عينيه ببطء في وجه أشعة الشمس التي تضيء غرفته منهيا بذلك نومة طويلة هانئة أعقبت سهرة البارحة. تمطى في فراشه مبتهجا، يحس ببقايا بهجة واسترخاء حملها معه إلى فراشه عند انتهاء ليلته الخضراء بالأمس. يبدو أن بقايا كبسولة البريجابالين قد امتزجت بعبير القنب في دمه لتزيد من غياب عقله، ولتمنحه إجازة قصيرة من أزمته الوجودية، فلأول مرة منذ وقت طويل تمر عليه ساعات عديدة دون أن تنشغل خلايا دماغه في التفكير اليائس في عبثية حياته، أو في الكون الهائل الموحش الذي يحاصره، أو في مرارة علاقته الفاشلة بزوجته، أو حتى في ليلى وغروب بدرها عن أفقه، لكن ياسر يعلم أن كل تلك الأفكار اللولبية ستبدأ من جديد بجمع جيوشها لحصاره وبشن غارات أكثر عنفا عليه ما أن تنسحب فلول العقاقير المخدرة من دمائه لتتركه يواجهها وحيدا عاريا .

تناهض عن فراشـــه قائما وتوجه إلى الحمام. غســـل عن وجهه بقايا النوم والانسطال متذكرا كمّا من الأحلام السعيدة التي أرسـلتها إليه سـجائر علا في نومه. ربما لا يتذكر كل تفاصـيلها بإحكام لتشـوش دماغه، لكنه يتذكر أنه رأى فيها ليلى، وأمســك فيها بيد ليلى، وتقلب فيها مع ليلى على نفس الفراش الذي كان يرقد عليه الآن، ولذلك ربما هو يشـــعر بهذا الطيف من الســعادة بعد اســتيقاظه اليوم، على عكس عادته في القيام من النوم متبرما من اســتقبال كل صـــباح جديد يعامله كلعنة عليه قاسية مستمرة لا تود أن تنتهي .

من شــباك الحمام تسـرب له صــوت الأذان ومن بعده بدأ يسمع صوت الخطيب، اذن فاليوم جمعة! تفاجئ قليلا بذلك فقد تداخلت الأيام والأسابيع في بعضها عليه وهو راقد على فراشه. قرر أن يدرك الصلاة في الجامع، فانسل تحت مياه الدش يســتحم، وبعد ذلك ارتدى ثوبه ومشـــى بهمة نحو المسجد.

عندما جلس في باحة المسـجد وسـط جموع المصـلين كان الامام قد شرع في الخطبة الثانية، ومع أن ياسر لا يلقي بالا في العادة لما يقوله الخطيب وينحصــر تركيزه على إدراك ركعتي الصــلاة إلا أن اذنيه اضــطرتا إلى التركيز على ما

يقوله هذا الرجل المستند على سلطة المنبر، فقد كان يتحدث عن المظاهرات التي أخذت تنتظم في البلاد ضد حكامها الفاسدين، بيد أن موقف هذا الخطيب الذي يفترض أنه يتحدث باسم السماء كان مخزيا، فهو يدين هؤلاء المتظاهرين المسالمين ويصفهم بالفوضويين الذين يخرجون على ولي الأمر الذي يجب علينا جميعا أن نطيعه في المنشط والمكره، ونصبر على ظلمه وفساده ورصاصه، ووصف ما يحدث بأنها مؤامرة دولية على البلاد من الصهاينة والصليبيين والماسونيين أعداء الله، وأخذ يرفع صوته بالدعاء عليهم، وأن تقطع أوصالهم وترمل نسائهم وييتم أطفالهم. لم يستطع ياسر التحمل أكثر من ذلك فقام من مجلسه في باحة المسجد وغادر خارجا وسط بحلقات عيون المصلين المتعجبين من صنيعه.

عاد ياسر إلى البيت وهو يلوم نفسه على ذهابه للجامع وتسليم أذنيه لهذا الخطيب المعتوه، الفاقد لأي رصيد أخلاقي يدفعه لنصرة الحق، فهو يقف في صف الظالم ضد المظلومين، ويبرر بعنصرية دينية بغيضة ما يحدث بتفسيرات تؤامرية مجنونة، ويدعو بكل قسوة على النساء والأطفال الأبرياء في بيت الله رب العالمين، ومن فوق منبر رسول الله المبعوث رحمة للعالمين.

استلقى ياسر على فراشه مجددا بعد أن أضاع الخطيب عليه جرعة إيمانية كان يمكنها إيقاد شعلة نور في نفسه المظلمة، ولكنه لم يسرف في التحسر لأن اليوم جمعة وبعد ساعتين يمكنه الذهاب إلى النوبة في حمد النيل ليذكر ويرقص ولتحصل نفسه على شعلة النور تلك. هو لم يذهب إلى هناك ثانية بعد تلك المرة التي التقى فيها ليلى، فحمد النيل بالنسبة له مثلها مثل المخدرات التي يتعاطاها ما هي إلا مركبات يستقلها لتحمل روحه المحبوسة في جسده الأرضي نحو السماء، لكنه بعد أن عرف ليلى ترك كل ذلك، فليلى كانت بوابته المباشرة إلى الفراديس الفوقية، معها كانت روحه سعيدة متحررة، تحب الوجود وتحتضن الموجودات، وبعد أن فقد ليلى عادت روحه إلى قفصها الضيق ساخطة على الكون برمته.

مرت ساعتان من عمره المتسرب دون أن يتحرك عن فراشه، حتى اقترب ميعاد بدء النوبة فقام أخيرا وارتدى حلته الصوفية، وخرج يقود سيارته نحو حمد النيل، وهو يتطلع للانهماك في نوبة الذكر ومقارعة السماء...

أوقف ياسر سيارته بجوار سور المقابر وسار على قدميه نحو مدخلها، يتطلع في جموع المريدين الآخذين في الاحتشاد في ساحة النوبة الرئيسية جوار قبة الشيخ. وقبل أن يخطو إلى داخل المقبرة أمسكت فجأة يد من خلفه بمعصمه تستوقفه، فالتفت مذعورا يهيئ نفسه لمواجهة لص أو هجام، لكن السكون أطبق عليه ولجمت لسانه الدهشة عندما اصطدم نظره بالعينين العسليتين. ارتجفت شفتاه وهما يحاولان عبثا النطق باسمها فكف عن المحاولة، ووقف يتأمل صامتا في المنظر البديع الذي يملأ عينيه، وجه قمري مضيء يلتف بخمار أسود، وعينان عسليتان متوهجتان يشعان ببريق يفوق بريق السوبر نوفا، وشفتان مرتويتان عليهما مسحة من (النود) الذي يهوى لونه وطعمه.

- ياسر... أريد التحدث معك. هيا بنا إلى سيارتك.

مشى بموازاتها نحو السيارة، لسانه صامت لكن دواخله تضج بالغناء، يحس أنه عريس يتبختر برفقة عروسه في صالة أفراح وسط تصفيق الحاضرين وزغاريدهم. اتخذا مجلسيهما في السيارة المغلقة. أدار ياسر المحرك وشغل مكيف الهواء ليزيد من طراوة هذه اللحظة الناعمة. قالت ليلى

- حضرت مبكرا مع عمي ووقفت انتظر مجيئك عند المدخل، كنت أعلم أنك ستأتي

لم يرد عليها ياسر وبقي صامتا يتأمل في كيانها الذي اشتاق لكل تفصيلاته. سائل نفسه قليلا إن كان يحلم أو أنه يعيش خيالا ولده مزيج البريجابالين والقنب الذين تعاطاهما بالأمس. واصلت ليلى

- ما سأقوله لك الآن كان يمكنني قوله بالهاتف أو عبر الرسائل، لكنني أحببت أن اقوله لك مباشرة
- حسنا فعلتي

أخيرا نطق ياسر. قالها ممتنا لها، فقرارها هذا هو السبب في هذه الجلسة الجميلة بقرب نارها المقدسة.

- ما أريد قوله يا ياسر هو أنني أحبك... أحبك أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا، ولا أريد أن انقطع عنك ثانية أبدا لأعيش مرارة علقم هذه الأيام القاسية التي ابتعدت فيها عنك. لا أريد منك زواجا أو طلاقا، أريدك فقط أن تبقى في حياتي إلى أن ترغمنا الأقدار على غير ذلك، ولا تقل لي أنك

خائف عليّ أو قلق على مستقبلي إن واصلنا هذه العلاقة التي لا أمل فيها، دع مستقبلي لي فأنا سأتولى شأنه ودعنا نعيش معا في الحاضر، نعيش هذا الحب الجميل الذي لا نظير له، العنيف الذي يفطر بقسوة قلوبنا إن نحن تباعدنا، أيامنا في الدنيا محدودة وسعادتنا فيها شحيحة، ولذلك دعنا نغترف من نبع السعادة النادر الذي وجدناه معا، ولنعب منها عبا، ولننس كل شيء آخر

بكى ياسر كثيرا وهو يسمع كلامها. تساقط دمعه أمطارا على ثوبه الأبيض. كم يحب هذه الفتاة المدهشة. يستغرب من كرم الدنيا المفاجئ تجاهه وهي تلقي في طريقه العابث بزينة فتياتها مرة بعد مرة، لكن قدره المشؤوم لا يسمح له بقبول عرضها للتقلب في نعيمها، فما جدوى علاقة كهذه بالنسبة لها؟ هي ستخسر الكثير إن أضاعت نوارة عمرها بالتسكع مع رجل محترق مثله، ذي ماض مجروح وحاضر تعيس ومستقبل قاتم. همّ أن ينطق لها بالاعتذار، وأن يشرح لها بأنه لا يزال يرى بأن ابتعادهما عن بعضهما هو الفعل الصائب رغم كل ما يعنيه ذلك من دمار مضاعف بالنسبة له إلا أنه سيكون في مصلحتها على المدى الطويل، غير أن ليلى كانت أسرع منه عندما أخذت بيده المبتلة بماء دمعه وقالت

- اتفقنا يا روح؟
- اتفقنا

قالها بوداعة واستسلام بصوت مثخن بالدموع، ولكن أيضاً بسعادة طفل ضائع يعود أخيرا إلى حضن أمه

- لا تعرف كم اشتقت إليك...
- أنا اشتقت إليك أكثر يا ليلى
- هيا لننزل، فالنوبة على وشك البدء
- وما حاجتي للنوبة بعد أن لقيتك؟ دعينا نبقى هنا

نظرت إليه ليلى في دهشة ثم ابتسمت فأضاءت ابتسامتها عتمة السيارة. تمتم ياسر مبتهلا

- الله...
- انتظرني هنا دقيقة وأحدة

فتحت ليلى الباب ونزلت مسرعة تاركة ياسر في توهانه يطارد بقية الأنوار التي خلفها طيف ابتسامتها. بعد قليل عادت ليلى، قالت وهي تغلق الباب

- هيا تحرك...
- إلى أين؟
- إلى مكاننا في شارع النيل
- وعمك؟
- لقد أخبرته أني سأعود إلى البيت لأني أشعر ببعض التوعك
- اذن هيا بنا

انطلق الحبيبان نحو الخرطوم وياسر لا يزال غير قادر على استيعاب ما جرى له، لقد جاء إلى حمد النيل للذكر أملا في طرق السماء فإذا بالسماء نفسها تنزل إليه لتأخذه معها إلى النيل...

-69-

نظر إليها وهي جالسة بجواره على كرسي بلاستيكي قبالة النيل، مسندة ذقنها على قبضة يدها، وعيناها العسليتان سارحتان في مياه النهر الجارية، وقد تراجعت طرحتها السوداء عن ناصيتها لتظهر شعرها الفاحم المجدول، وشفتاها المكتسيتان بـ(النود) يبعثان بطعم الكرز في حلقه.

أغمض ياسر عينيه ورفع حاجبيه وقال بخشوع" :الله"

التفتت ليلى ســـاحبة نظرها عن النيل نحو وجهه المبتهل الذي زاده وهجا ثوبه الأبيض الناصـع الذي تتدلى من عنقه عليه مسبحته الطويلة، بينما أضافت طاقيته الخضراء على رأسـه اللمسـة الأخيرة للوحة الصـوفي المتبتل. ابتسمت ولم تعلق. بعد برهة صمت تكلم هو وعيناه مصوبتان على بقايا أشـــعة شـــمس العصـــر المنعكســـة على مجرى النيل

- الله الذي عينته عندما تنهدت باســـمه وأنا أطالع وجهك ليس ذلك الكائن الضـــخم المتوهم في مخيلة الـذين لا يعرفون، الجـالس على عرش ملـك في السماء، والذي يتدخل في صغائر تصرفات الناس، ولكن الـذي أعنيـه هو الإلـه الحقيقي، هو الجمـال الذي يتجلى في كل شـــيء، هو الذي نذكره عندما نرى طفلا جميلا فنقول الله، وعندما نرى الطاووس يفرد ذيله الفريد ليبهر الأبصـــار نقول الله، وعندما يحرز ميســي هدفا سـاحرا يقول المعلق ونقول معه الله، وعندما نأكل قطعة بســوســة وترتطم حلاوتها في حلوقنا نقول الله، وعندما يقذف العاشـق شـهوته وتغمره لـذتهـا يقول الله، وعنـدمـا تمر فتـاة جميلـة

بجمع شـــباب يحبســـون أنفاســـهم ثم يطلقونـها وهم يرددون الله...

التفت نحوها بخشـــوع فوجدها تتأمل فيه بعيون مســـبلة وقبضـــة يدها لا تزال تسـند رأســها الذي أثقله ما سـمعته، وشفتاها ترتجفان كأنهما تبحثان عن كلام لتنطقا به. أمسكت بيده اليمنى ووضــعتها بين يديها على حجرها، فســرت في جســـده رعشـــة لذيذة. نظر إلى عينيها نصــف المحتجبتين خلف جفنيها المنسدلين وقال

- لا تعرفين كم يغير رأســـي من يدي اليمنى في هذه اللحظة، فهو يود أن يرتاح على حجرك أيضـــاً كما تفعل يدي اللعينة، تبا لها كم هي محظوظة!

مدت ليلى رأســـها للأمام والتفتت يمينا ويســـارا، ثم مطت شفتيها ونظرت لياسر هازة رأسها في حسرة وقالت

- لولا أن المكان مليء بالناس لكنت أرقدت رأســـك علي حتى أراضيه

ابتسم في استرخاء بينما رفعت ليلى يده إلى شفتيها وطبعت عليها قبلة سريعة. قال ياسر

- الله... الآن سيغير رأسي أكثر، خاصة شفتاي
- كل ما اتذكر قبلتنا الطويلة عندما استلقينا على فراشك يا ياسر أحس بأن جسمي كله يذوب
- قبلة طويلة؟ عمّ تتحدثين؟
- في آخر مرة التقينا فيها... عندما تجردنا من الثياب وارتمينا على الفراش والتحمت اجسادنا قبلتني قبلة واحدة طويلة، ربما كانت نصف ساعة أو أكثر بلا انقطاع
- حقا؟ لا اتذكر ذلك
- هل أنت جاد؟ لقد كنت تقبلني بشغف وحب وربما حتى بعنف
- فعلا لا اتذكر... نصف ساعة تقولين؟
- ربما حتى أكثر
- أنا آسف لأني بالفعل لا أذكر ذلك. عندما قلت سابقا أن الزمن يتوقف حين أكون معك فإني لم أكن أكذب
- ما كان أجملها من قبلة

ضغطت بيديها على يده المستسلمة في وداعة على حجرها وعادا يرسلان بصرهما نحو مياه النيل الجارية بلا هوادة.

مضــت لحظات من الصــمت الجميل قبل أن يتنهد ياســر ويقول

- الحب يا ليلى فعل روحي... الأرواح تحب بعضــها في عالم الملكوت في السـماء، لكن أرواحنا الآن يا عزيزتي محبوســة في أجسـادنا الأرضـية، ولذلك فإن قدرتها على التعبير عن الحب محكومة بأبعاد هذه الاجســاد. خذي فعل التقبيل الذي تحدثت عنه مثلا، لو جردته عن الحب أو الشــهوة لوجدت أن هذه القبلة هي فعل قبيح مســتقذر، أو في أحســن الأحوال لا معنى له. أنا مثلا جسمي يقشعر أنفا إن خطرت لي فكرة أن أقبل امرأة عجوزا شــمطاء، ويقشــعر أكثر قرفا إن فكرت أني اقبل رجلا على فمه، في حين أنني قد قبلتك نصــف ســاعة كما تقولين ولم أع ذلك من فرط المتعة، وعندما كنت مراهقا قبلت مئات الفنانات وآلاف النساء الجميلات في خيالي مســتلذا بالنشــوة المصــطنعة، لكن هذا الفعل نفســه... فعل القبلة... التصــاق شــفاه الفم الأربعة وتعانق اللسـانين واحتكاك الأسـنان وتبادل اللعاب هو بهذا التجريد فعل قبيح مستقذر، لا يمكن تبريره منطقـا ولا عقلا إن نزعـت عنـه الحـب. انظري إلى ذلـك الكلـب الضـــال الأجرب الـذي

يركض بمحاذاة النيل هناك... هل يمكنك أن تتخيلي أن تضـــعي فمك على فمه دون أن تصـــيبك هذه الفكرة بـالرغبـة بـالتقيؤ؟ ومع ذلـك دعيني أخبرك أني شـــاهدت العديد من الناس في أمريكا رجالا ونساءا وهم يقبلون كلابهم بمحبة. الحب يا ليلى هو الـذي يمكن الأرواح المحبـة المنجـذبـة من اقنـاع الأجســـاد بالقيام بأفعال هي في كنهها بشـــعة لكن الحب يصبغها بالجمال.

لم تعلق ليلى وإنما جلسـت تحدق به في هيام. واصـل ياسـر الممتلئ بطاقة الكلام حديثه المسهب

- عنـدمـا كنـت في هولنـدا يـا روح حضـــرت أحد المهرجانات الســـنوية للمثليين، يســـيرون فيها في الشـــوارع بـأزيـائهم الغريبـة المبهرجـة ويغنون ويرقصـــون، شـــاهدت منهم رجلين كانا يمســـكان بأيدي بعضهما ويرقصان رقصة السالسا في بهجة على أنغام إحدى الأغنيات، وبعد أن انتهت الأغنية انحنى أحدهما على الآخر وطبع على شـــفتيه قبلة طويلة استسـلم لها رفيقه مغمضـا عينيه في لوعة. أحسـست سـاعتها باشـمئزاز بالغ وصـرفت نظري سريعا. وبعدها بدقائق شاهدت منظرا مشابها ولكن

هذه المرة بين فتاتين جميلتين. لم أشعر عندها بالاشمئزاز بل بالمتعة والإثارة، وأخذت اختلس النظر وأراقب الفتاتين العشرينيتين الشقراوتين وهما يندمجان في القبلة بشغف وهيام متمنيا لو أني أشاركهم فيها. بعدها أخذت أفكر وأتساءل... لماذا اشمأززت من قبلة الرجلين وانجذبت لقبلة الفتاتين؟ اذن هذا الاشمئزاز ليس نابعا من كراهية مطلقة لدي للسلوك الجنسي المثلي وإلا لكنت كرهت الفعلين على حد سواء. الآن وبينما كنت أحدثك عن علاقة التقبيل بالحب والشهوة خطر لي خاطر، هل يمكن أن يكون ذانك الرجلان المثليان يشعران بنفس الاشمئزاز الذي شعرت به عندما رأيتهما يقبلان بعضهما حين يرون رجلا وامرأة يقبلان بعضهما؟ هل يا ترى يتسرب لهما نفس القرف الذي يتسرب لي عندما اتخيل شفاهي ملتصقة بشفاه رجل إذا ما تخيلا نفسيهما يقبلان أنثى؟ الحقيقة أني لا أعرف الإجابة على هذه الأسئلة، ولا زلت أفكر إن كان ما بهم هو مرض أم انحراف او شيء آخر، لكني قللت على أية حال من تعصبي الشديد ضدهم، وكراهيتي المتدفقة تجاههم، وتركت أمرهم لله، فهو ربهم، وهو من خلقهم، وهو من سيحاسبهم، ولا يظلم ربك أحدا ...

-70-

سكتت ليلى وأحنت رأسها للأرض بعد أن سمعت حكاية ياسر الهولندية. بعينين والهتين أخذ هو يطالع خصلات شعرها النافرة نحو الأمام هربا من طرحتها، ينزل بنظره قليلا نحو جبهتها الناصعة، ثم بضعة سنتيمترات أخرى أسفلها ليقع على عينيها العسليتين المثبتتين نحو الأرض، يعود بعدها من حيث أتى صاعدا مارا بجبهتها الناصعة أولا لينتهي مجددا عند خصلات شعرها النافرة. كرر ياسر رحلته تلك مرات كثيرة، صعودا ونزولا، ذهابا وإيابا، دون ملل، بل دون أن تنتقص متعته "رباه... يمكنني أن أقضي باقي عمري متأملا هذا المنظر!" قال ياسر لنفسه وهو يستعجب من سحر هذه الفتاة عليه، بقربها لا يشعر بأنه مجرد انسان، يحس أنه أرفع من ذلك، ربما ملاك أو حتى افاتار هندوسي خارق، يشعر أنه مليء بالنور وبالراحة، وأنه متعالي فوق قوانين الطبيعة. نعم بقربها لا يكون كائنا فيزيائيا بل كائنا ميتافيزيقيا، ولعل هذا يفسر له لماذا يتوقف الزمن معها، ويفسر لماذا يشعر أنه قطع هذه الرحلة المقدسة بين خصلات شعرها وعينيها منذ الأزل ملايين

المرات. بقربها تتماهى كتلته ويتطاير أثيره بسرعة أسرع من سرعة الضوء، يتجاوز نسيج الزمكان بما فيه من نجوم وثقوب سوداء وكواكب تافهة يسكنها بشر تافهون...

- سأخبرك شيئا يا ياسر لم أخبر به أحدا قبلك

أعادته عبارتها من عالمه الموازي الفوقي إلى كوكب الأرض مجددا

- أخبريني يا روح
- كلامك عن المثليين الذين شاهدتهم في هولندا أعاد إليّ ذكريات تجربة... اممم آآآه... تجربة مثلية عشتها في الجامعة قبل سنوات

لم يعلق ياسر وبملامح جادة رسمها على وجهه هز رأسه لها في تشجيع يستحثها على الكلام، غير أن ما كان يجري داخل جمجمته كان على خلاف مع ما يبدو على وجهه، شعر بالدهشة والإثارة بل وحتى الشهوة، واجتاح الحماس كل خلايا جسمه لسماع هذه القصة. واصلت ليلى

- كانت هناك مجموعة من زميلاتي في الكلية معروفات بأن لديهم ميولا نحو البنات... أو على

الأقل كانت كثير من البنات يزعمن عنهن ذلك. إحدى هؤلاء البنات كانت صفاء. لم تكن صديقتي بالمعنى الحرفي ولكننا كنا نقضي الكثير من الوقت معا بحكم أننا في نفس المجموعة الصغيرة التي يفترض أن تجري أحد البحوث سوية. وفي أحد الأيام كنا نجلس لوحدنا على كرسي خشبي طويل تحت ظل شجرة في فناء الكلية. كان الوقت متأخرا ولم يكن هناك الكثير من الأشخاص وكنا للتو قد انتهينا من جلسة عمل مع الاستاذ الذي يشرف على بحثنا. غادرت الفتيات الثلاثة اللواتي كن معنا في المجموعة بعدها مباشرة، بينما جلست أنا انتظر السائق ليأتي ويأخذني بعدما اتصلت به وأخبرته أني قد انتهيت ولا أستطيع العودة مشيا إلى البيت لوجع في ركبتي. لا أعلم إن كانت صفاء تنتظر شيئا هي أيضاً أم أنها جلست بقربي فقط ليحدث ما حدث

اتسعت حدقتا عيني ياسر وابتلع ريقه في خفية، واجتهد حتى لا يفضح صوته تشنجه وقال

- وما الذي حدث؟

- كنا نتحدث حديثا عاما عن مشـــروع البحث الذي ســـنقوم به، ثم التف ســـياق الحديث حول الاســـتاذ المشـــرف علينا. ســـألتني صـــفاء إن كان يعجبني فأجبتها بأنه محترم ولطيف، فقالت بأنها لا تحب صـــنف الرجال عموما لأنهم مخادعون ومنافقون، ودائما يبطنون عكس ما يظهرون، وهم عاجزون عن الحب الحقيقي ولا يفهموننا نحن الفتيات. بعدها أمسكت بيدي وأخذت وكأنها ترسم بأصبعها فوق راحة كفي وقالت لي وهي تبتســـم ابتســـامة مريبة ودون أن ترفع عينيها عن يدي "هل جربتي يا ليلى أن تحبي فتاة؟". لا أعلم لماذا اكتفيت بقول "لا" فقط، ولماذا لم أصـرخ فيها غاضـبة، ولماذا لم أقم تاركة لها المكان، فقط تسـمرت في مجلســي تاركة كفي مسـرحا لأصـابعها. اقتربت صـفاء مني حتى التصـــقت بي دون أن تفلت يديها من يدي، رفعت نظرها إليّ فهربت منها عيناي المرتعشتان تنظران نحو بوابة الكلية وتسـتعجلان قدوم السـائق لينقذني من صفاء، ومن سهام نظراتها، ومن تأثير أصابعها على كفي. لا أدري لماذا أحسست أني عاجزة وأني غير قادرة على رفض شيء مرفوض تماما بالنسبة لي، لذلك تعلقت كل آمالي بباب الكلية وبســـيارتنا التي تمنيت أن تظهر عبره

ســـكتت ليلى لبرهة ونظرت لياســـر، كان منتبها ومهتما، عيناه تطلبان المزيد من التفاصــيل، وملامح وجهه ترســل رســـائل التفهم والتضـــامن معها ومع تأثرها العميق وهي تســـترجع تفاصـــيل الحكاية. وبالرغم من أن الجزء المثير جنسـيا لم يأت بعد فإن ذلك لم يعد يهم ياسـر الذي غدا أكثر اهتماما الآن بهذا الصراع النفسي الذي تحكيه، وعن فشلها في مقـاومـة مـا ترفضـــــه، وعن فقدانها لإرادتها عندما احتاجتها، كل ذلك يشـــكل لديه مباحث نفســـية ووجودية عميقـة أكثر إثـارة بكثير من أي أحـداث جنســـيـة تقع بين فتاتين، حتى وإن كانت إحدى الفتاتين ليلى. مد ياســـر يده وأخذ بالأصـــابع الأربعة ليد ليلى اليمنى متجاهلا ابهامها لأسباب جغرافية. ضغط أصابعها الأربعة في قبضة يده في رسالة تضامنية وقال

- واصلي يا روح
- عندما التصقت بي صفاء أحسست بانقباض مزعج غير أني لم أتحرك، ويبدو أن ذلك شـــجعها لتقرب رأســـها من رأســـي وتلصـــق شـــفاهها في أذني وأصابعها لا تزال تعبث في راحة يدي. همست لي بزفرات حارة قائلة "حب البنات مختلف يا ليلي"، وعندها أحسست أن الكرسي الذي نجلس عليه أخذ

يلتف حول نفســـه بســـرعة وكأننا نمتطي إحدى أرجوحـات الأطفـال. أخـذ جســـمي كلـه يقشـــعر ويرتعش بمـا في ذلك شـــفتـاي اللتـان عجزتـا عن التعليق رفضا أو إيجابا. لم تتراجع صفاء بل أخذت تتقدم أكثر، ذهبت بشفاهها خلف أذني وطبعت قبلة هناك قبل أن تعود إلى مدخلها وتهمس "البنت تفهم ما تريده بنت مثلها يا ليلى". كانت أرجوحة رأســي لا تزال تدور في تسارع لكني شعرت بحركة خلف ظهري لم أميزهـا إلا عنـدمـا أخـذت اليـد اليمنى لصــفاء الجالســة عن يســاري تتحســس صــدري الأيمن. انزعجـت لكني لم أقـاوم ولم أنبس ببنـت شفة. واصلت صفاء همسها المثير والحار في أذني اليسرى "إذا جربتي حب البنات يا ليلى فإني أعدك أنك ستنسين الأولاد تماما". همست بذلك ويدها ما زالت على صــدري تداعبه، ثم نزلت بشـفاهها من أذني إلى رقبتي وألصقتها بها وقبلتني هناك، قبلتها كانت مزيجا من التقبيل والشـــفط واللعق، عندها اقشعر بدني كله، لكن لا أخفيك يا ياسر أنها لم تكن قشــعريرة نفور، بل كانت قشــعريرة نشــوة. تفاعل صــدري مع لمســاتها وأذني مع همســاتها. شـعرت بأني أدوخ أكثر ولكنها هذه المرة كانت دوخة لذيذة. رفعت يدي نحو يدها اللاعبة في صـدري لأضـمها

عليّ أكثر، عنـدهـا رن هـاتفي ليوقظني من هـذه اللحظة الشـيطانية، فأمسـكت بيدها وأبعدتها عني وانتفضـت واقفة، وأخذت الهاتف أرد على السـائق الـذي أخبرنـي أنـه وصـــل وينتظرنـي أمـام بوابـة الكليـة. التقطـت حقيبتي من الكرســـي ومضـــيت مباشـــرة في طريقي دون أن التفت إلى صـــفاء أو أقول لها شيئا. مشيت بخطوات سريعة آلمت ركبتي وكأني أهرب، ونبضـــات قلبي تضـــرب في عنف وســـرعة وكأن قلبي هو أيضـــاً يريد أن يهرب من صدري. وصلت إلى باب سيارتنا وركبت، قال لي السـائق "ما بك يا ليلى وجهك محمر جدا؟"، أجبته أن لا شـــيء غير أني اشـــعر فقط ببعض التعب، ورغم عدم الاقتنـاع الـذي بـدا عليـه الا أنـه اكتفى بردي ولم يتكلم. اسـترخيت على كرسـي السـيارة مجهدة، وعندها انتبهت لشـيء غريب، أحسـسـت ببلل شـديد يغرق ثيابي الداخلية، انزعجت وتوترت وتمنيت أن نصل سريعا إلى البيت لأتفحص الأمر. قلقي من هذا البلل الذي لم أفهمه والذي يحدث لي للمرة الأولى في حيـاتي جعلني لا أفكر كثيرا في صـــفاء وما حدث معها طوال الرحلة، لكن تلك الأفكار لم تتأخر طويلا عن الحضـــور، وبســـببها

ظللت اسبوعا كاملا لا أنام جيدا، بسببها أيضاً ادعيت المرض ولم أذهب إلى الجامعة لفترة

كان ياسر ينصت إلى حديثها في صمت وتعاطف، ويده لا تزال قابضة على أصابعها الأربعة. ود لو يقوم ويأخذ ليلى في حضنه ويواسيها ولكن كما قالت هي نفسها قبل قليل فإن الوضع لا يسمح، فهذه البقعة على النيل مليئة بالكثير من البشر الطفيليين الذين لن يفوتوا فرصة مد رقابهم وحبال عيونهم على شاب يحتضن فتاة أمامهم، لذلك اكتفى بمواساة يده لأصابعها وهو يفكر في هذه القصة. قصة مثيرة جدا بالنسبة له، ليس بسبب موضوعها الجنسي وإنما لأنها تجربة انسانية حية وحقيقية، تجربة تجمع الرغبة والألم والمغامرة والندم، تجربة يسمعها مباشرة من فم صاحبتها، ورغم أنه يشعر أن صاحبة القصة تتألم داخليا وهي تسترجع هذه الذكريات إلا أن رغبته في معرفة المزيد عن حالتها النفسية ساعتها كانت قوية فلم يستطع كبح سؤاله

- أية أفكار بالضبط يا ليلى هي التي جعلتك لا تنامين؟
- خليط من الأفكار يا روح، أولها الشعور بالذنب، لأنني ارتكبت فعلا قبيحا يغضب الله، وما زاد شعوري بالذنب أكثر هو أنني لم أقاوم، لا بل أني

بشـــكل ما كنت مســـتمتعة بتلك اللحظة وهو ما ســـيجعل الله أكثر غضـــبا مني... اســـتغفر الله... استغفر الله

شد ياسر من قبضته على أصابعها ولم يعلق، يملأه إحساس التعاطف معها وتطفو على دماغه بقايا من تساؤلات، هل يا ترى تشـعر ليلى بالذنب كذلك بعدما تبللها شـهوتها برفقته؟ أم أن ذلـك لا يغضـــب الله عنـدهـا بنفس القـدر برغم أن علاقتهما هي أيضاً لا تندرج تحت شريعة الفقهاء؟ أم لعلها لا تشعر بالذنب لأن عقلها يصنف علاقتهما كعلاقة طبيعية بين جنســين خلقهما الله لينجذبا لبعضــهما وليســت علاقة شيطانية تجمع جنسين من نفس الصنف لا ينبغي لهما ذلك في قوانين الإلـه والمجتمع؟ هل يكون الأمر برمتـه ثقـافيـا وليس دينيا؟ ما يرفضه المجتمع وليس ما يحرمه الرب؟

رفع عينيه عن أصـــابعها إلى عينيها اللامعتين بفعل طبقة رقيقة من دمع يقاوم السقوط وقال

- في هولندا يا ليلى لم أشـــاهد فقط المثليين ولكني شـاهدت أيضـاً الكثير من المسلمين الذين يعيشـون هنـاك ولا يتورعون عن شـــرب الخمر، بمختلف أنواعها، بدءا من جعة الشـعير الخفيفة مرورا بكل

درجات النبيذ ووصولا إلى الخمور الثقيلة كالويسكي والفودكا. يجتمعون لشرابها ويحتفلون، بعضهم يشربها يوميا، وأغلبهم ملتزمون في صلاتهم لا يضيعون فرضا

سكت ياسر قليلا يتأمل ملامح وجه ليلى المتسائلة عن مناسبة حديثه وعلاقته بمغامرتها المثلية مع صفاء. كان أذكى من ألا يدرك نظرتها المستفهمة لكنه اختار تجاهلها ومضى في طريق حديثه

- نعم يا روح، رأيت مسلمين كثيرين يشربون الخمر لكني لم أر مطلقا مسلما ملتزما أو غير ملتزم يأكل الخنزير، مجرد ذكره يجلب التأنف في النفوس. شاهدت أحدهم مرة مستمتعا بأكل لحم من طبقه مغدقا عبارات الثناء على حسن طعمه وجودة طهوه دون أن يدري أنه كان لحم خنزير، يمضغ لقمته في متعة متلذذا ثم ينزلها إلى جوفه برشفة من كأس جعة كبير، ولما أخبر بطبيعة اللحم الذي يأكله تقمع وجهه ولا إراديا تقيء جميع ما أكله. هذا التسامح الذي رأيته مع الخمر والتعصب الذي شهدته ضد الخنزير لم أستطع فهمه في البداية، كنت أنظر إلى الأمر من زاوية الدين والفقه،

وبحسـب الفقهاء فإن شـرب الخمر من الكبائر بلا خلاف بل هي أم الكبائر، أما أكل الخنزير فشـأنه أقل خطورة والعديد من الفقهاء لا يعدونه كبيرة، كما أن هناك من حصـر التحريم على اللحم فقط وأفتى بحل ما عداه كالجلد والدهن، اذن القضية هنا أن درجة اسـتبشـاع الفعل لدى النفوس المؤمنة ليست بالضرورة مربوطة دائما بما هو أشد تحريما أو بما يغضب الله عندهم أكثر

هزت ليلى رأسـها ببطء في إشـارة على اسـتيعابها لكلامه، لكن الاسـتفهام في عينيها لم يخفت، فما علاقة كل ذلك بصفاء وما جرى معها؟ ياسر الذي قرأ السؤال في عينيها انتبه إلى أن ليلى لم تكن معه على قارب أفكاره عندما طرح عليه عقله السـؤال المهم "هل تراها تشـعر بالذنب عندما يقبل هو رقبتها كما فعلت صفاء؟"، لقد كان كل الذي قاله حول الخمر والخنزير مجرد مقدمة للإجابة على ذلك السـؤال الذي لم تسمعه ليلى، وبالتالي لم تتمكن من وضـع كلامه على الطريق الصـحيح في خارطة الحديث وإنما بدا لها خارجا عن السياق. "أتراها بدأت تشك بأنني مجنون؟ " سـائل ياسـر نفسـه وهو يفكر بأن المجانين فقط هم من يتحدثون بكلام خارج السـياق، كلام لا يتصـل بما قبله ولا يرتبط بما بعده، على الأقل بالنسـبة للسـامعين، أما بالنسـبة

للمجانين فحديثهم دائما متصل وفي سياقه، ولكن بكلام هم وحدهم فقط من يسمعونه. أراد ياسر أن يبدأ بتوضيح ما عناه بكلامه لليلى، أن يخبرها بأن شعورها العظيم بالذنب بسبب حادثة صفاء هو شعور أولئك المسلمين الشاربين للخمر عندما يتناولون لحم الخنزير، شعور يعمقه الإحساس بالذنب الاجتماعي أكثر بكثير من الذنب الديني، شعور ارتكاب فعل مشين يخالف كل المسلمات الأسرية والثقافية والمجتمعية التي يتشربها الإنسان منذ نعومة أظافره من جميع ما حوله. نتيجة لكل ذلك فإن من الطبيعي أن يرهقها ذنب مغامرتها مع زميلتها، وألا تحس بالذنب لما تفعله معه.

"ولكن مهلا... أحقا لا تحس به؟ أتراه يرهقها هو أيضا؟ ما أدراني؟ هل أنا متأكد من ذلك؟" فكر ياسر في نفسه متشككا، فبالرغم من أن كل ما يبدر عن ليلى يشي بانغماسها في علاقته به، واستمتاعها بها، بل وتطلبها للمزيد إلا أن قطعه بنفي وجود أي شعور بالذنب يراودها كذلك الذي ألم بها بعد مغامرتها مع صفاء قد يكون تهورا مغرورا. أخذت عاصفة الشكوك تضرب رأسه مبعثرة كل استنتاجاته المنطقية، وأخذ عقله يترنح كقارب صيد صغير وسط موج هادر، وعندما طال صمته سألته ليلى

- لماذا سكت يا روح؟

رفع ياسر اليها عينيه مندهشا، كنائم أيقظه رفيقه فجأة من وسط حلم غريب. نظر إلى وجهها المضيء وعينيها العسليتين لبرهة ثم قال

- ليلى... هل تشعرك علاقتنا بالذنب أيضاً؟

دون أدنى تردد هزت ليلى رأسها نفيا وقالت

- لا طبعا يا روح

اجتاحت ياسر الغبطة لإجابتها، وعمه ارتياح اليقين بعد رهق الشك، ولكن لا بد من نار الثاني للوصول إلى جنة الأول، وكما قال ابو حامد "من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في متاهات العمي". الآن يستطيع بثقة أكبر أن يطرح عليها فرضيته حول القياس بين الخمر والخنزير من جهة، وياسر وصفاء من الجهة الاخرى متسلحا بإجابتها التي تعضد فرضيته

- حديثي عن الخمر والخنزير يا ليلى أردت به أن اقول أن الذنب الذي اعتراك بعد ما حادثة صفاء لم

يكن نتيجة لعظم الذنب الديني وإنما لعظمه الاجتماعي والثقافي. المجتمع يستعظم ويستنكر ويستقبح أي سلوك جنسي مثلي حتى وإن كان في حدوده الدنيا مثل لمسات صفاء معك، ولا يستبشع بنفس القدر الزنا برغم خطورته الدينية، ربما ولا حتى الاغتصاب، وشعورنا بالذنب العظيم إزاء أمر ما يكون أحيانا انعكاسا لقيم ذلك المجتمع المغروسة في وعينا، وليس بالضرورة لقيم السماء

صمتت ليلى ولم ترد. بدا أن ذهنها مشغول بأمر آخر غير الذي يتكلم فيه ياسر، نظرت إلى الأرض لبرهة ثم وضعت يدها اليمنى فوق كفي ياسر القابضة على أصابعها ونظرت عميقا في عينيه وقالت

- معك يا ياسر لا أشعر بتاتا بأي ذنب، برغم كل ما فعلناه معا، كل قبلاتنا ولمساتنا واحتكاكات اجسادنا، وكل الأشياء التي لم أفعلها مع رجل من قبل ولم يدر بخيالي أني يمكن أن أفعلها أصلا قبل أن أتزوج... كل ذلك لا يشعرني بذرة من الذنب، بل إني تمنيت عليك وما زلت أتمنى أن تقتحم أبواب رحمي، وأن تنثر فيه بذورك، وأن أحمل

منك حتى دون أن نتزوج، وكل ذلك إن حدث فلن يشعرني مطلقا بأي ذنب أيضاً...

هاله وقع كلماتها، وتسربت دمعة من ركن عينه بهدوء لكن جسـمه كله كان يضـج بالصـراخ، ما هذه الفتاة العجيبة؟؟ حتى في أجمل أحلامه لم يتخيل أن يوجد على سـطح هذه الأرض فتاة تقدر أن تشـاركه حبه وجنونه بمثل هذا العنفوان. قال بصوت باك ينضح بالحب

- وأنا أيضاً يا ليلتي... لست فقط لا أشعر بالذنب، بل إن كل لحظة معك احتسبها في أعمالي الصالحة...

-

-71-

استمرت جلسـتهما الهانئة على ضـفة النيل لما يقرب من السـاعتين حتى بدأت الشـمس في لملمة خيوطها اسـتعدادا للمغيب. قالت ليلى

- للأسف يا روح...
- تبا لكلمة للأسف هذه

- أعرف يا عزيزي، لكن الوقت تأخر وســـتبدأ أمي بعد قليل بالقلق

عجيبة هي اللحظات التي يمضــيها ياســر بقرب هذه الفتاة، لحظات تمر بسرعة خاطفة، الساعات معها تبدو أقصر من ثوان، أما حين تغيب فإن الزمن اللئيم يتباطآ، وتغدو الثواني المؤلمة دهورا لا تنقضــي، كم هو مدهش سـحرها الخارق الذي يلوي سهم الزمن، لو قضى ياسر ألف سنة بقربها فلن يشعر إلا أنه مكث يوما أو بعض يوم. قال لها متوسلا

- دعينا نجلس بضـــعة دقائق إضـــافية فقط. أريد أن أنهل من روحك أكثر لأعوض عن تلك الأيام التي غبت عني فيها، فمهما قلت لن أسـتطيع أن أصــف لك قسوة الفترة الماضية
- اعرف حبيبي، فأنا نفسي عانيت أشد المعاناة
- لكني أشك أن تكون مثل معاناتي، فأنا يا ليلى رجل ميت ولم أحيا إلا عندما منحتني قبسا من حياتك. لا تعلمين كم تغيرت دنيتي عندما دخلتيها، تحولت من رجل يكره كل شـــيء إلى آخر يتدفق منه الحب، ومن شـــخص يتمنى الموت والفناء كل ثانية إلى شخص يحب الحياة في رحابك إلى آخر مدى، ومن انسـان لا يرى في الوجود سـوى العبث إلى انسـان

يدرك قبسا من المعنى، تأثيرك علي ساحر باهر، لقد فعلت ببساطة ما عجز الطب والأطباء عن فعله عبر سنين، وعالجت نفسي المريضة التي ما ظننت قط أنها يمكن أن تعالج

ثم أمسك ياسر بيدها ونظر عميقا في عينيها قبل أن يضيف

- أنت روحي يا ليلى... احييتني بعد موت، وإن ابتعدت عني أموت مجددا

ظل نظرهما معلقا ببعضهما البعض لثوان، يتأملان في وجهيهما، وينجرفان مع أمواج مشاعرهما الهادرة. كل شيء آخر حولهما اختفى فلا وجود في كل الوجود سواهما.

- السلام عليكم...

هبطا من سماواتهما العلية والتفتا معا إلى مصدر الصوت الذي ألقى بالتحية. صعدت ليلى ببصرها تطالع الشاب الطويل ذي الشعر القصير والذي يلمع إطار نظارته الأسود كما يفعل كذلك حزامه وحذائه، ثم هبطت تمسح ببصرها الفتاة القصيرة الواقفة من خلفه والتي ترتدي عباءة سوداء تشبه تلك التي ترتديها هي وتعلق على كتفها حقيبة صفراء.

لم تتعرف على أي منهما ولكن يبدو واضحا أن ياسر الذي قام عن كرسيه يعانق الرجل يعرفهما...

- أهلا يا عماد ومرحبا يا زهرة... ما هذه الصـــدفة السعيدة

دعاهما ياسر للجلوس معهما ولشرب القهوة على حسابه، فعل ذلك من باب المجاملة الاجتماعية وإلا أنه كان يفضــل بالتأكيد أن يكون لوحده مع ليلى، ولكن لا بأس فما هي إلا دقائق على أية حال ثم عليهم الانصـــراف بعدها حتى لا تتأخر ليلى عن أمها أكثر. بدأ ياسر بتقديم الشابين إلي ليلى، أخبرها عن قديم علاقته بعماد، وذكر لها أيضـــاً أين يعمل. بدأت ليلى بربط الحلقات المتناثرة، "هذا اذن هو عماد الذي رآه ياســـر في ذلك الحلم الغريب" فكرت في نفســـها وهي تطالعه، لكن زهرة كانت هي من حظي بالتركيز الأكبر من ليلى، تفرست طويلا في ملامحها تحاول أن تستشف إن ما كان ممكنا أن يصدر عنها تلك الصنائع التي رآها ياسر في الحلم. تأملت في حذائها الأصفر عالي الكعب وفي أظافرها الطويلة المطلية باللون نفسه قبل أن يحول عماد نظرها إليه من جديد قائلا

- فرصة سعيدة يا استاذة ليلى

- أنا كذلك سعيدة بالتعرف عليكما

ابتدأت رحى الحوار تدور بين الجالسين الأربعة، حوار عام عن الطقس والعمل والوضع الاقتصادي، كعادته كان ياسر ضنين المشاركة في مثل هذه الحوارات التي لا جدوى منها ولا قيمة بحسب رأيه، وكان يعد الثواني في انتظار القهوة التي طلبها لضيفيه حتى يتركهما وينصرف مغادرا مع ليلى ويعود للانفراد بها مجددا، لكن عماد قال شيئا جذب قليلا من اهتمامه

- هل ستشاركان غدا في الموكب؟

رد عليه ياسر مستفهما

- موكب؟؟ اي موكب؟
- الموكب الكبير المخطط غدا، ستكون مظاهرة حاشدة في ذكرى الثورة. لا بد أن نرسل رسالة واضحة لهؤلاء العسكر الطغاة أن هذه البلد هي بلدنا وأننا لن نتركها لهم يعيثون فيها الفساد
- جميل...

- ألا تنوي المشـــاركة يا ياســـر؟ أنا وزهرة ســـنذهب للاحتشـــاد مع الثوار منذ بداية الموكب عند القصـــر الجمهوري في الساعة الواحدة ظهرا
- الحقيقة أني لم أفكر بالأمر
- لماذا؟ ألا تهمك قضيتنا العادلة؟
- بلى
- هل تخشـــــى العنف والرصـــــاص الذي يمكن أن يواجهنا به العسكر؟
- ليس بالضبط
- اذن لماذا لا تتحمس لمشاركتنا؟
- هذه هي مشـــكلتي الجوهرية، أعاني نقصـــا في هرمونات الحماس لأي شـيء، لكني سـأحاول على كل حال أن أكون معكم غدا
- لا بد أن تفعل يا صديقي، فهذه البلد تحتاج لهمة كل واحد من ابنائها حتى نســـتطيع التخلص من هذه الطغمة الحاكمة وننهض بها نحو مســـتقبل أفضـــل من هذا الحاضر المزري
- معك حق فيما تقول يا عماد

وصلت القهوة أخيرا فاستغل ياسر الفرصة على الفور، لكز ليلى فهبت معه قائمة، واعتذر الاثنان الواقفان عن حاجتهما للانصـــراف الآن لأن الوقـت قـد تـأخر، وتمنيـا للاثنين

الجالسين لحظات سعيدة وودعاهما ثم مشيا منصرفين نحو السيارة، لكن عماد قام عن كرسيه سريعا وجذب ياسر من ذراعه وقال همسا بالقرب من أذنه

- شكرا على القهوة يا ياسر
- العفو يا صاحبي
- لم تخبرني من تكون هذه الفتاة الجميلة بصحبتك؟
- إنها ليلى
- أعرف اســـمها، ولكن ما أعنيه هل هي... هل هي شمال أم يمين؟
- تبا لك يا عماد... عد إلى رفيقتك ودعني أدرك رفيقتي
- أرجوك أخبرني، لأنها لو كانت شــمالا فلدي تعليق فتشي ساخن لا أطيق صبرا حتى أبوح به
- لا يا عزيزي، احتفظ بتعليقك لنفســـك، فهذه الفتاة مقدسة لدي ولا أرضى أن تدنسها بأفكارك الفتشية
- حسنا، أتمنى لك التوفيق معها يا صديقي
- شـــكرا يا عماد... دعني أخبرك أنه كما أدهشـــتني فتشـيتك بالأمس فقد أدهشـــتني وطنيتك اليوم وأنت تتكلم بـإخلاص وحمـاس عن مظـاهرات الغـد. يعجبني فيك هذا التناقض المحير الذي يجعلك تثور مدافعا عن كرامتك ضــد بطش العســاكر وفي نفس

الوقت يجعلك تتمنى أن تبعثر نفس تلك الكرامة تحت أقدام فتاة تذلك

- لا يا صديقي فلا تناقض هنا، لكل مقام مقال، ففتشيتي مكانها غرفة النوم فقط
- عموما كلنا مليؤون بالتناقضات يا عماد، وهذا ما يجعلنا كائنات غير عادية وغير فيزيائية تختلف عما عداها من خلق الله. ارجع إلى زهرة وانتبه على مؤخرتك منها كي لا يتجسد واقعا ذلك الكابوس السخيف الذي رأيته

ضحك عماد وأطلق يد صاحبه مودعا وعاد يجلس بقرب زهرة ليرتشفا القهوة التي طلبها لهما ياسر، بينما مضى هذا الأخير ليدفع الحساب ثم سار عائدا إلى سيارته التي تقف ليلى عندها.

-72-

- آسف يا روح لأني تأخرت عليك
- لا يهمك حبيبي...

بعد أن اعتذر ياسر لليلى عن تأخره بسبب حديثه الإضافي الهامس مع عماد انطلقا بالسيارة نحو بيتها. كان صوت المؤذن يصدح بالنداء داعيا لصلاة المغرب، وكانت الظلمة قد بدأت في طرد أشلاء ضوء الشمس عن سماء الخرطوم.

- أظنك قد عرفت من يكون عماد يا روح، أليس كذلك؟
- بلى... إنه صديقك الذي رأيته في ذلك الحلم
- صحيح...
- وزهرة التي معه هي نفسها التي فعلت به ما فعلت في ذلك الحلم
- صحيح...
- عندما حكيت لي الحلم المرة الماضية كان تحليلي أنه إشارة سماوية على شر محتمل تمثله زهرة على صاحبك، لكني أعود الآن عن هذا التحليل، فالفتاة لطيفة وتبدو بريئة وطيبة وإن كانت غريبة الأطوار نوعا ما. لعل ذلك الحلم كما قلت أنت ليس أكثر من أضغاث أحلام
- عماد يحبها وينوي الزواج بها
- يبدوان مناسبان لبعضهما رغم فارق الطول الكبير بينهما. اتمنى لهم التوفيق

رد ياسر متمتما بصوت منخفض وكأنه يكلم نفسه

- لكني أشك جدا أنها ستقبل بممارسة الفتشية معه...
- تمارس ماذا؟
- لا شيء
- قل أرجوك
- الفتشية...
- الـ... ماذا؟
- الفتشـية... هي نوع من الممارسـات الجنسـية غير المعتادة، بها شغف بأقدام المعشوق وشبق تجاهها، وهي فرع من شـجرة الممارسـات المازوخية التي تسـتمتع بالتعذيب والإذلال والأذى الجسـدي خلال ممارسة الجنس
- يا سلام... كم أود أن تفعل ذلك بي

ضـغط ياسـر فجأة على مكابح سـيارته فأوقفها وركنها عن يمين الشارع، وأخذ يحدق في ليلى مفتوح العينين مصعوقا من الدهشـة، وامتلأت أعماقه بالصـراخ "ما هذا يا رباه؟ ما هذه الفتاة رائعة الجنون؟ لا شـيء عادي فيها وكل ما بها أكثر جموحا من أي خيال، أنها آية اسـتثنائية مدهشـة، ونسيج كوني فريد مخلوق لوحده!".

أخذت ليلى بيده من على المقود دون أن تبدي تعجبا من توقفه المفاجئ ولا من دهشته المتفجرة. قالت مبتسمة بصوت ناعم حنين

- هل فاجأتك يا روح؟
- جدا... منذ عرفتك وأنا في حالة تفاجئ مستمر
- هل تغيرت نظرتك إلي وصرت تراني فتاة سيئة الآن؟
- لا بالتأكيد، فنظرتي المقدسة لك لا يمكن أن تتغير مهما قلتي أو فعلتي
- ولهذا أنا احبك وأشعر معك بتحرر لا نهائي يجعلني أريد أن أمارس معك كل أنواع الجنون، ما اكتشفه الناس قبلنا وما سنكتشفه نحن لوحدنا، أريد أن أعبر معك كل الخطوط الحمراء، وأكسر معك كل الحواجز، وأطير معك إلى الفضاء الخارجي

رفع ياسر يدها نحو وجهه، يقبلها ويلعقها، ويمرغهما في وجهه ولحيته، وقال والنشوة تتفجر شلالات من مساماته

- أنا أحبك حبا خرافيا اسطوريا يا ليلى، حبا يكاد يقترب من العبادة

- وأنا أحبك أكثر يا روح، وأحب ملمس لحيتك الآن على يـدي، آه لو تعلم كم بودي لو أمرغ وجهي وصدري بها
- كم أحب جنونك، وشـــغفك اللا محدود، وشـــبقك الخارج عن السيطرة. أنا أكثر انسـان محظوظ في كل هذا الوجود لأني اتقلب في نعيم حبك، ورغم أني لست من هواة الفتشية إلا أنني مثلك أرغب في تجريب كل أنواع الجنون معك والذهاب فيها بعيدا جدا، إلى اللا نهاية وما ورائها
- حبيبي المجنون...
- الآن وقد أيقظت مارد جنوني فكم أود أن نحشـــش معا
- بكل تأكيد
- حقا؟! بهذه البساطة؟! هل جربت ذلك من قبل؟
- لا، ولكني سأجربه بكل سرور معك
- يا إلهي! لا يمكن أن تكوني فتاة عادية من لحم ودم، أنـت شـــيء إعجـازي آخر، نعم تـذكرت... أنـت عشتار
- أنا فقط أحبك بصدق يا ياسر. أحبك بشكل لا يمكن أن يتصوره أحد
- وأنا أحبك أكثر يا عشـــتاري، وطاقة الحب التي أحملها بداخلي تجاهك مستحيلة فيزيائيا، فهي أكبر

من كل الطاقة التي في الكون بما فيها الطاقة المعتمة

- آآآه كم اتمنى أن ارتمي عليك عارية لأترك جسدي يعبر هو أيضاً عما يحمله لك من حب
- وكم اتمنى ذلك أنا أيضاً. ألا يمكن أن نلتقي غدا يا روح؟
- سيكون ذلك صعبا، فإن أمي لو علمت بأمر هذه المظاهرات المزمعة غدا فأكيد أنها لن تسمح لي بالخروج مهما غزلت لها من الاعذار

أحنى ياسر رأسه في أسى، إنه يشتاق جدا للالتحام بليلى والارتقاء في فراديسها. كان بوده أن يصب لعناته على أم ليلى التي تقف عائقا في وجه بهجته، لكنه لا يستطيع لأنها صاحبة فضل عليه، فهي من جلبت هذه الوردة الفاتنة إلى الدنيا. أدار متحسرا محرك السيارة وقطع المسافة البسيطة المتبقية التي تفصل مستشفى بري الكبير عن ذلك المكان الذي توقف فيه فجأة. ضمت ليلى ذراعه على صدرها بقوة قبل أن تفارقه وقالت

- أعدك أن أحاول يا روح، فأنا في غاية الشوق إلى غرفتك وإلى سريرك
- نعم أرجوك حاولي يا ليلى

- سأفعل

نزلت من سيارته متجهة إلى داخل الحي المجاور للمستشفى، وجلس هو في مقعده يراقبها حتى التفتت إليه ومنحته تلك القبلة الطائرة التي ينتظرها، ثم تحرك بعدها عائدا إلى أمدرمان بعدما جادت عليه ليلى بنوبة ذكر فريدة، وتجل صوفي رائع، أفضل بكثير من ذلك الذي كان سيناله في قبة الشيخ حمد النيل...

-73-

وصل ياسر إلى بيته واستلقى على فراشه مبتهجا بعد أن نزع عنه ملابسه، لقد عادت روحه مجددا بعد أن رجعت ليلى لتنير سماء حياته. غرفته التعيسة ضجت بالحياة، ولبست حلة عسلية فاتنة من لون العسل الذي يملأ عيون ليلى. أمسك بهاتفه ليراسلها فهو في غاية الشوق لها كأنه لم يلتقيها منذ سنوات، برغم أنه لم يمض على افتراقهما سوى نصف ساعة. كتب لها في تطبيق المراسلة على هاتفه

- اشتقت إليك جدا...

- وأنا والله اشتقت إليك أكثر يا ياسر. لا أعرف كيف أداوي هذا الشـــوق الذي لا يريد أن يهدأ. لقد أرهق قلبي بالنبض السريع وكأني أركض بلا توقف
- الله...
- ما أقوله هو عين الحقيقة يا روح، إني لا أبالغ
- أعرف يا روح، فما تقولينه يصـف بالضـبط حالي، لكن هذا الذي بيننا ليس شوقا
- ليس شوقا؟؟ ما هو اذن؟
- أنه اشتياق
- أليس هما الشيء نفسه؟
- لا، لقد فرق الشيخ الأكبر بينهما عندما قال "الشَّوْقُ يَسْـكُنُ بِاللِّقَاء، والاشـتِيَاقُ يهَيجُ بالالْتقَاء. لا يَعْرفُ الاشْـــتيَاقَ إلاَّ العُشَّـــاق. مَنْ سَـــكَنَ باللِّقَاءِ، فَمَا هُوَ عَاشق عِنْدَ أَرْبَابِ الحقَائِق"
- الله...
- وهذا هو حالي يا روح، فكل لقاء بك يزيدني اشتياقا إليك أكثر
- وحالي أنا أيضاً والله يا ياسر، ولكن لدي لك مفاجئة سارة، يمكنني أن التقيك غدا
- أتحلفين بالله؟ لا أصدق... كيف وافقت أمك؟
- أخبرتها كذبا بأن لدي ورشة عمل مع صديقتي ريم في البنك غدا. قالت لي بأن الغد هو يوم السبت وأن

البنوك لا تعمل، فاتبعتها بكذبة أخرى عن أن الورشة تقام في أحد الفنادق فوافقت عندها ولم تسألني عن مزيد من التفاصيل، ومن حسن الحظ أنها لم تسمع بعد عن المظاهرات المخططة في الغد

- كم أنا سعيد بهذا الخبر
- وأنا أيضاً أكبر سعادة. لا تتصور يا ياسر كم يضايقني كذبي على أمي لأخرج والتقيك، لكن ليس بيدي حيلة أخرى، فأنا بأشد الشوق والحاجة للقائك وإلا سينفجر قلبي من شدة خفقانه
- ألا يمكن أن تقولي لها الحقيقة ببساطة؟
- أتريدني أن أقول لها أني ذاهبة للقاء شاب يدعى ياسر وهو متزوج ولديه ثلاثة أطفال وسأذهب معه إلى بيته الذي يعيش فيه وحده؟
- معك حق لا يبدو وقع ذلك على السمع جيدا. ألا يمكن اذن أن تكتفي بالقول أنك خارجة للقاء شخص ما دون ذكر تفاصيل توقعك في محيط الكذب؟
- ستحاصرني عندها بالأسئلة... من وأين وكيف ولماذا؟ أنت لا تعرف أمي يا ياسر، إنها امرأة متسلطة ومتحكمة وقادرة، وكل من في بيتنا بما فيهم أبي يخضعون لسلطانها
- فليحفظها الله لكم

- باستثناء سيئات كذبي على أمي فإن كل شـيء آخر معك يا روح يزيد إيماني عمقا، وكلامي هذا ليس مبالغة يا ياسر، فأنا أعني وأعي ما أقول
- أفهم ذلك جيدا يا روح فهذا بتمامه هو ما أحس به أنا أيضاً. أنلتقي الساعة السادسة عند المستشفى؟
- لا، دعها الســابعة، حتى لا أثير شــكوك أمي أكثر بالخروج مبكرا في يوم عطلة
- حسنا
- ويمكننا أن نعوض هذه الســاعة بالذهاب إلى بيتكم مباشــرة دون الجلوس أولا على النيل. ســأشــرب شاي الصباح في البيت قبل أن التقيك
- حســنا، برغم أن الجلســة معك على الذيل عند الصباح ليس في مثل روعتها شيء
- هل أنت متأكد مما تقول؟ أتفضلها على الالتحام في السرير؟
- أتصدقينني إن قلت لك أني أحبها أكثر؟ صحيح أني أحب أيضاً كل لحظاتنا في الفراش، وكل الأعاجيب الجنسـية الجامحة التي تهطل بها أنوثتك علي، لكن حبي لـك يـا ليلى في المقـام الأول حـب روحي، روحي تحب روحك أكثر من محبة جسدي لجسدك، إذا انقطعت التحاماتنا الفراشـية فإن جسـدي لا شـك

سـيحزن، ولكن إن انقطعت جلسـاتنا النيلية فإن روحي حتما ستموت

- سلامة روحك يا روح
- صـدقيني يا ليلى أني عندما عرفتك لم يدر بخلدي أبدا أن أجسـادنا سـتلتحم في مثل هذه المعارك الجنسية المسعورة التي خضناها معا، كان أقصى طموحي هو الجلوس بقربك على النيل، اتأمل جمالك وارتوي من روحك. وجودك معي في تلك البقعة الخضراء على شط النيل يكمل صورة الجنة في ذهني، فما كنت قادر على تخيل سعادة أقصى من سعادتي في تلك اللحظة. ربما طمعت قليلا في لمسة من يديك، أو قبلة من شفتيك، ولكن لم يخطر ببالي قط أن نعيش ما عشناه فوق هذا الفراش الذي أرقد عليه الآن، فلقد كنت من قبلك خاملا جنسيا ومعطوب الذكورة حتى ضغطت أنت على زر إعادة تشغيلها
- أتقول هذا يا ياسـر برغم فحولتك الهائجة؟ كم هذا عجيب! صحيح ألا خبرة لي قبلك مع الرجال ولكن الذي رأيته منك يفوق في الوصـف كل ما سـمعت عنه
- إنها بركاتك يا مولاتي، فأنا لم أكن قط على ما أنا عليه الآن، ولا حتى عندما كنت أصغر عمرا

- هذا وأنا لم أعطيك بعد كل ما لدي من أنوثة. أحس أنه ما زال عندي الكثير كي أقدمه لك
- يعجز عقلي حقيقة عن تصور ذلك، فما شهدته منك لم أره أبدا في حياتي، ولا حتى سمعت عنه، ولكن لا غرابة فأنت عشتار ربة الأنوثة والجمال، عجائبك لا تنقطع، وبركان أنوثتك الثائر لا يخمد
- هذا فقط لأني أحبك. أنا نفسي متعجبة من صنيعي ولا أصدق أن كل ذلك بدر مني. إنها بركاتك يا مولاي
- آآآه كم احبك يا ليلتي...
- وآآآه كم احبك يا ياسري...
- وآآآه متى تأتي الساعة السابعة كي أراك مجددا؟ إن الساعة اللعينة لا تريد أن تتحرك
- اذن هيا بنا ننام لنجبر الزمن على المضي للأمام
- هيا بنا، تصبحين على خير يا روح
- وأنت من أهله يا روح، أحبك...
- أحبك...

استيقظ ياسر مبكرا مع الفجر كما يفعل دائما قبل كل لقاء صباحي بليلى. قام وتوضأ وخطا إلى المسجد مدركا صلاة الجماعة. أطال الأمام القراءة في كلتي الركعتين، لكن ياسر لم يتضايق من ذلك، ولم ينزعج من قبح صوت الامام، ولا من ركاكة قراءته المفتقرة للتجويد المحكم، لقد كان هادئا مطمئنا لأن ميعاده اليوم مع ليلى متأخر قليلا، لذا فليقرأ هذا الأمام الممل كل ما يريد أن يقرأه.

انتهت الصلاة وخرج ياسر من المسجد عائدا إلى داره وهو يستنشق بإسراف في صدره نسائم الفجر العليلة. في الطريق التقاه مؤيد الذي كان متوجها على عكسه نحو الجامع، يبدو أن النوم استغرقه فتأخر استيقاظه وفاتته الجماعة. وجه السؤال إلى ياسر ليتأكد منه وهو يتوقع إجابته المحبطة

- هل انتهت الصلاة؟
- أجل
- استغفر الله... لم يوقظني المنبه اليوم
- هون عليك يا صديقي، فلك ثواب النية
- ما زال بقلبي غصة من انفضاض جلسة الكوتشينة قبل ان نتشبع منها

- سنعوض تلك الجلسة التي لم تكتمل بواحدة أخرى قريبا إن شاء الله
- ما رأيك لو نلعب اليوم؟
- آسف، فاليوم لدي أمر ما سيشغلني
- هل ستخرج في موكب المظاهرة أيضاً؟ أنا وأسامة سنتحرك إلى هناك عند الواحدة
- لا أظن، فلدي موضوع آخر أهم
- أهم من الخروج في سبيل الوطن؟
- نعم بالنسبة لي هو أهم. ربما التحق بكم إذا فرغت منه
- حاول بشدة يا ياسر، فمظاهرة اليوم قد تكون مسألة حياة أو موت بالنسبة لمستقبل السودان
- أتفهم ذلك، لكن الأمر الذي سيشغلني اليوم هو بالفعل مسألة حياة أو موت بالنسبة لي ولذلك أعطيه الأولية
- وماذا يكون يا ترى هذا الأمر المهم الذي سيشغلك؟
- سألتقي شخصا مهما
- من تراه يكون؟
- شخصا لا تعرفه
- ذكرا ام أنثى؟

صمت ياسر ثم ابتسم، يريد أن ينهي تحقيق مؤيد معه هنا لأنه يرغب أن يظل شأن علاقته الاسطورية بليلى سرا مقدسا بعيدا عن الألسنة الطفيلية. قال بود لصاحبه

- يا مؤيد ستتأخر، وسيفوتك الفجر. عد إلى بيتك وأدرك صلاتك

رد مؤيد ضاحكا وقد فطن لتهرب صاحبه

- من الواضح أنها أنثى. عموما اتمنى لك حظا سعيدا في لقائك وحاول جاهدا أن تنضم إلينا لاحقا في الموكب
- سأجتهد في ذلك. إلى اللقاء يا صديقي

عاد ياسر إلى البيت وبدأ في الاستعداد للقائه المهم. تحمم وتزين وتطيب، رتب لحيته القصيرة وسرح شعره الطويل ولبس أجمل ما عنده من الثياب، كأنه عريس يستعد لاستقبال عروسه. كان يحلق في فضاءات عالية من السعادة ويشعر بجمال الحياة وبهاء الدنيا وتناغم الكون، نعم ذلك الكون الذي كان هائلا موحشا باردا ومخيفا والذي حاصر دماغ ياسر بالأسئلة الوجودية المؤلمة واجاباتها العبثية

العدمية... نفس ذلك الكون أصبح لطيفا وناعما بعد أن تجسد في ليلى، فهي الآن كل شيء ولا وجود إلا لها.

ركب سيارته وخرج من بيته نحو الخرطوم. سار في الشوارع شبه الخالية، واستغرب قليلا من قلة الحركة فيها. صحيح أن اليوم سبت وهو عطلة وأن الوقت لا زال مبكرا ولكن حتى بوضع هذين العاملين في الحسبان فإن عدد الناس والمركبات على السواء أقل من المعتاد، كما أن هناك وجودا ملحوظا لسيارات شرطة إضافية منتشرة في الشوارع، ومركبات عسكرية ترتكز في التقاطعات الرئيسية. يبدو أن الذين سرقوا السلطة في هذه البلاد لن يتورعوا عن العنف في مواجهة مظاهرات اليوم.

واصل ياسر طريقه دون كثير الاهتمام بما يراه حوله، تركيزه منصب فقط على ليلى ولقائها والحياة والفناء في رحابها، وعند الساعة السابعة تماما كان ينتظرها في المكان المعتاد بقرب سور المستشفى الكبير في بري، وعند السابعة تماما أيضاً أشرق نورها من بين أزقة الحي قادمة إليه. أخذ ياسر يتأمل في تضرع هالة النور المحيطة بها والتي أخذت تقترب رويدا رويدا من سيارته، إلى أن وصلت إليه فأغمض عينيه مرغما، وقاية لهما من وهج نورها الساطع، وهو يسبح الخالق العظيم.

ركبت ليلى بجواره، وبدون مقدمات ألقت بنفسها على كتفيه تحضنه وتقول "اشتقت إليك جدا يا روح". عجز ياسر عن تحريك ذراعيه ليبادلها الاحتضان، وبقي ساكنا في مكانه يرتجف لذة، يحس بتيار كهربائي يشحن كل ذراته المعطلة ويبعث فيها الحياة. أنهت ليلى حضنتها سريعا وقالت "هيا تحرك يا روح". بطريقة آلية نفذ مباشرة أمر سيدته ثم تنهد عميقا يخرج مع أنفاسه شحنات الطاقة الهائلة التي أمدته بها تلك الحضنة السريعة، والآن - وبعد تأخير - أصبح بإمكان لسانه أن يرد عليها

- وأنا اشتقت إليك جدا يا روح
- كم أنا سعيدة بوجودي معك
- سعادتك ما هي إلا قطرة في بحار سعادتي يا روح
- كيف بدت الشوارع في طريقك؟ هل كل شيء عادي؟
- في الحقيقة هناك بعض المركبات العسكرية المنتشرة في الشوارع. سترين بعضها الآن في طريقنا
- ربنا يستر

أرســـل يده لتمســـك بيدها بعد أن أحس بقلقها الذي حملته جملتها الأخيرة ثم قال لها

- لا تقلقي يا روح

ضمت ليلى يده إليها بلهفة وقالت

- لســت قلقة، فمعك يا ياســر أشــعر بكل الأمان الذي في الدنيا...

-75-

وصـــلا إلى البيت، وغابا في عالمهما الخاص تاركين باقي الدنيا لباقي البشر. وعلى عادتهما، ابتدئا اتصالهما الجسدي بالاحتضان الطويل في قلب الصالة عقب دخولهما مباشرة، تلك الحضــنة الممتدة التي يذوبان فيها معا، يعصــران فيها كل أشواقهما لتفيض دفاقة من حولهما. كل روح منهما تريد أن تتحد مع نصفها الآخر، فتدفع أجسادهما للالتحام العنيف والانســـحاق في بعضـــها أملا في التوحد، ولكن قوانين الفيزياء الســخيفة تمنع الأجســـاد من ذلك، وتجبر الأرواح الوالهة المحبوسة في تلك الأجساد على المحاولة من جديد.

دقائق طويلة مرت عليهما وهما لا يزالان متحاضنين وقوفا في منتصـف الصـالة. لم يكن ياسـر يمانع أن تسـتمر هذه الحضنة إلى الأبد، لكن ليلى انسلت منه وأخذت بيده تسحبه نحو غرفته، لقد حفظت هذا البيت جيدا وأصـبحت تعرف عن ظهر قلب طريقها فيه. عندما وصـلا بقرب الفراش تعلقت ليلى بياسـر، وسـقطت معه على السـرير، وابتدأت دورة جديدة من التقبيل المحموم الذي لا يهدأ. لعل أرواحهما المشـتاقة للاتحاد بدأت تبحث عن مخرج من ثغريهما بعد أن فشـلت في الخروج من صـدريهما. تواصـلت قبلاتهما النهمة لوقت طويل حتى تصـاعدت الأحداث، وتسـاقطت الثياب، واعتركا في غزوات جنسـية طاحنة، أراقت كثيرا من الشهوة، وأسالت وفيرا من المياه.

سـقطا على الفراش صـريعين بعد انتهاء إحدى معاركهما الكثيرة، يرسلان بأنفاسهما الحارة المتعبة إلى هواء الغرفة. أغمض ياسر عينيه يفكر في أطنان السعادة التي يتقلب فيها الآن، "ربما حتى الجنة نفسـها ليسـت بهذه الروعة". فتح عينيه ملتفتا إلى ليلى المسـتلقية بجواره تلتقط أنفاسـها هي أيضـاً بعد أن أنهكتها انفجارات براكينها الثائرة. مد ياسـر ذراعه وحمل رأسها ووضعه على صدره العاري، ثم رفع رأسـه قليلا ليقبل شـفتيها التين لا تبعدان عن شـفتيه سـوى

بضعة سنتيمترات، وأعاده بعدها ليرقد مبتهجا على الوسادة. ظلت العيون الأربعة المتقاربة تطالع بعضها، تحكي وتروي وتعشق وتحب وتسيل وتذوب بلغتها الحكيمة الصامتة. في تلك اللحظات أشرقت فجأة بصيرة ياسر، ووصل إلى الاستنارة الكاملة التي كان يتحدث عنها بوذا. لقد أدرك معنى الحياة والهدف من الوجود، وعزم على أن يبدأ صفحة جديدة مع الدنيا، وأن يمزق كل صفحاته الماضية المكتئبة. منذ هذه اللحظة سيحاول أن يكون انسانا جديدا، يتصالح مع الكون، وينهي كل خلافاته القديمة معه.

قامت ليلى من على صدره تترنح عارية في الغرفة. نظرت إلى هاتفها المحمول وقالت مصدومة

- يا إلهي!
- ماذا هناك؟
- لقد تأخرنا
- إياك أن تقولي للأسف للأسف
- للأسف، لا بد لي من قولها. فللأسف علينا أن نعود. لقد اتصلت بي أمي كثيرا
- لماذا؟ الوقت لا زال مبكرا. لم يمض على مجيئنا هنا سوى عشرة دقائق
- أنها الساعة الرابعة يا ياسر

- لا أصدق ذلك!

مرة أخرى يحتال عليهما الزمن ويغشـــهما في حســـاب الســاعات. أخذ ياســر يفكر أن اللحظات الجميلة تمضـــي سـريعا كما يقولون، لكنه لا يسـتوعب أنها يمكن أن تمضـي بمثل هذه السرعة الخرقاء.

- أنا ذاهبة إلى الحمام
- هل يمكن أن اذهب معك؟
- طبعا

قام ياسر يهز رأسه متعجبا في نشوة، فهذه الفتاة أكثر جنونا منه، لا تسـتغرب منه طلبا ولا يدهشـها منه شـيء، ومعها يجـد مرتعـا مرحبـا بكـل أفكـاره المخبولـة. دخلا الحمـام وجلسـت ليلى على مقعده لتتبول، بينما جلس هو القرفصـاء على أرض الحمـام يتـأمـل فيهـا أثنـاء قيـامهـا بهـذه العمليـة البيولوجيـة، يحس بـأنـه مجنون أو معتوه، لكنـه في نفس الوقت يحلق في سماوات من السعادة الطفولية اللا محدودة. عندما انتهت ليلى من مهمتها قامت واقفة تنظر إلى ياســـر الجالس، ابتسمت وهزت رأسها في حبور وقالت

- حبيبي المجنون

- كم أعشقك
- وكم أهواك... هيا فلنستحم معا

قام ياســـر من جلســـته ودخل معها في ركن الاســـتحمام الصـــغير تحت مياه الدش المنهمرة. كان أجمل حمام أخذه في حياته، فلقطرات الماء المتدفقة من الدش شـــعور آخر خارق عندما تختلط بلمسـات ليلى، وقبلات ليلى، وأحضـان ليلى. وككل اللحظات الجميلة التي انقضـــت ســـريعا قبله انتهى أيضاً هذا الاستحمام الجميل سريعا.

عادا للغرفة وشــرعا بأســى في ارتداء الثياب والاســتعداد للمغادرة. أكملت ليلى زينتها والتقطت حقيبتها وســـارت خارجة مع ياسر إلى الصالة وهناك لمحت صندوق سجائر فوق الطاولة، التفتت لياسر وقالت له

- هل تدخن؟
- كلا
- ما هذا الصندوق اذن؟
- أنه لصاحب لي يدعى معتصم نساه عندي

تناولت ليلى الصـندوق وفتحته ووجدت به سـيجارة واحدة. قالت لياسر

- أرغب أن أدخنها
- تفضلي على الرحب والسعة
- لكنها سيجارة واحدة
- لا مشكلة، خذيها، فأنا أصلا لا حاجة لي بها
- لكنني أرغب بأن تدخن معي
- وأنا أرغب بأن أفعل معك كل شـــيء. ســأشــاركك بسحب بعض الأنفاس منها

تناول ياســـر علبة كبريت من المطبخ وعاد مع ليلى إلي غرفته. جلسـت هي في وسـط السـرير ممسـكة بالسـيجارة بقرب فمها، بينما التقط هو عود كبريت وأشـــعلها لها به. سحبت نفسا من السيجارة ثم أطلقت سحائب الدخان الأبيض في أرجاء الغرفة وياسـر يتأمل مبهورا روعة المنظر الذي يراه، لكن رؤية اخراجية أخرى انبثقت في دماغه فأحب أن يطالع المنظر من زاوية أقرب. ألقى بنفســه على الســرير ووضـع رأسـه في حجر ليلى وأصـبحت عيناه الآن تنظران للأعلى نحو وجهها، يطالع الجزء الأعلى من رقبتها ومن بعده الجزء الأسفل من فكها، ويرى السيجارة واضحة تبرز من بين أزهار شــفتيها، ويراقب ســحب الدخان تخرج من بين تلك الشــفتين لتتبعثر في الأعالي. أخذ يســرح مخمورا مع كل تفاصيل المشهد الرائع، ويتوه منتشيا في أبعاده.

أحنت ليلى رأســـها للأســـفل ناظرة إلى عينيه الهائمتين السـائحتين في ملكوتها فابتسـمت، وضـعت السـيجارة بين شـــفتيه فتذوقها باحثا عن بقايا طعم شـــفتيها، ثم أخذ نفســـا قصيرا جعله يسعل وهو يخرجه. أبعدت ليلى السيجارة عنه ووضعت يدها بحنان تربت على صدره الساعل وقالت

- سلامتك حبيبي...
- تسلمي يا روح
- واضح أنك لا تجيد التدخين
- فعلا
- ولكن ألم تقل لي أنك تريد شرب سيجارة خضراء معي؟
- أجل، كنت أنوي الاجتهاد في شربها معك للوصول إلى أقصى درجات الجنون
- أحبك وأحب جنونك
- لم أكن أعلم أنك تدخنين...
- لا أدخن كثيرا. كنت قديما أسـرق السـجائر من أبي أحيانا، وفي الجامعة دخنت عدة مرات مع صديقتي
- كم أنت مثيرة، وإن كان التدخين مضرا بالصحة
- أعرف، وتدخين النســـاء بـالـذات غير مقبول في مجتمعنا

- عمتي عمرها ثمانون عاما وما زالت تدخن
- وعمتي كذلك
- لا أصدق! هل تعلمين أنك أول شخص يجيبني بهذا الرد؟ كل الذين حكيت لهم عن تدخين عمتي استغربوا واستنكروا
- نحن نتشابه في أشياء كثيرة يا روح
- خاصة في جنوننا يا ليلي
- لو قدر لي أن أعيش معك في هذا البيت لملئت كل جوانبه معك جنسا وجنونا، ولن تقتصر أنشطتنا على هذه الغرفة فقط
- أتعنين أننا سنمارس الحب في المطبخ مثلا؟
- وفي الحمام والصالة والحوش والسطوح والسيارة وفي كل مكان
- رباه كم أعشقك!
- لكن سريرك هذا وغرفتك هذه سيظلان يحتفظان بمكانة خاصة في قلبي، فهنا ابتدأت حياتي وعشت أجمل لحظاتي. أنا اشتاق إليهما الآن مع أني لم أغادرهما بعد
- وهما كذلك يا روح يشتاقان لك في كل لحظة. إنك لا تتصورين كم تحزن جدران هذه الغرفة عندما تغادرينها

صـــمتت ليلى قليلا وبعدها قالت بصـــوت متهدج ينضـــح بالحسرة

- لماذا نحن لسنا لبعضنا يا ياسر؟
- أنا كلي لك يا ليلى... أنت تملكينني بالفعل

بدأت الدموع تتجمع في مقلتيهما ألما من قســـوة الأقدار عليهما، أقدار رحمتهما عندما جمعتهما لكنها تتســـلى الآن بتفريقهما مرة بعد مرة دون كبير أمل في دوام الاجتماع، أقدار نســجت من الماضـــي شــبكة محكمة علق فيها ياســر عاجزا عن التحرر من قبضـــتها ليلتحق بليلى في عالمها السحري الرائع.

سحبت ليلى نفسا أخيرا من السيجارة في ظل صمت اعترى جلسـتهما الفاتنة ودموع تترقرق على المقل. نزلت برأســها نحو ياسر الراقد على حجرها ومنحته قبلة طويلة ذاق ياسر فيها بقايا طعم التبغ من على شفاهها باستمتاع. أنهت قبلتها المعطرة بالنيكوتين وقالت لياسر

- هيا فلننطلق...

-76-

خرجت السـيارة من البيت وسـارت في شـوارع حي الملازمين المتعرجة إلى أن وصـلت لشـارع الأزهري الكبير الذي يقود إلى الجسـر العابر فوق النيل إلى مدينة بحري. تفاجئ ياسر وليلى مما رأياه هناك، فالشـارع مغلق تماما بأكوام من الحجارة والإطارات المشـتعلة التي تنتشـر على طوله، يمتلئ بالناس الماشين في قلبه يحملون الأعلام، دون أي فرصـة لعبور السـيارات معهم على الطريق. لا بد أن مظاهرة اليوم كانت كبيرة بالفعل. قالت ليلى بقلق

- ما هذا يا إلهي؟!
- لا تقلقي يا روح، سأعود لأذهب عن طريق الجسر الآخر
- أسرع يا ياسر فإن أمي لا تكف عن الاتصال، ولن أستطيع الرد عليها حتى أعرف كيف سنتصرف

اسـتدار ياسـر بالسـيارة عائدا إلى أزقة حيهم إلى أن خرج من الناحية الثانية قبالة شـارع النيل قرب مباني الاذاعة والتلفزيون. كان ذلك الطريق متحركا وخاليا من العوائق، فلابد أن العسـاكر حرصـوا على تـأمينـه واخلائـه من المتظاهرين الذين لا يريدون لهم قطعا الاقتراب من آلتهم

الإعلامية المضـــللة التي تعبر عن صـــوت الحكام دون صوت المحكومين.

- الحمد لله... الشارع يتحرك جيدا يا ليلى
- الحمد لله... أسرع أرجوك يا ياسر

انطلق ياسر بأسـرع ما يمكنه على أرضـية الشـارع سـيئة التعبيد التي لا تختلف عن أغلب شوارع العاصمة، يتجاوز الحفر، ويتخطى المطبات، وينسل من بين السيارات، حتى وصـــل قريبا من الجســـر الرابط بين أمدرمان والخرطوم فتوقف عن السـير وسـط ازدحام كبير من السـيارات التي ترغب في عبور الجسر. تنهدت ليلى بقلق وضجر

- ما هذا الازدحام يا رباه
- سنتجاوزه إن شاء الله يا روح
- ولكن كم نحتاج من الزمن؟ عشرة دقائق؟
- نصف ساعة ستكون تقديرا أكثر واقعية
- تبا...

بدأت ليلى في قضم أظافرها في عصبية والتوتر يجثم على ملامحها، وبدا ذهنها مشغولا في البحث عن عذر أو سلسلة أعذار تصـوغها لأمها التي لم تتوقف اتصـالاتها المتلاحقة

عن رن الهاتف. بعد دقائق من التفكير المضـــطرب أجرت ليلى اتصـــالين باثنتين من صـــديقاتها، وأحدة تدعى ريم، وأخرى تســمى ســماح. جلس ياســر خلف مقعده يراقب ويســمع كيف تحيك ليلى خططها مع صــديقتيها لمواجهة طوفان أمها. أنهت مكالماتها وقالت لياسر

- لقد اتصلت أمي بريم فعلا
- من هي ريم؟
- ريم صــديقتي التي يفترض أني خرجت لحضــور ورشة معها اليوم في أحد الفنادق
- ومن أين أتت أمك برقم هاتف ريم أصلا؟
- أمي تعرف كل صـــديقاتي وتحتفظ بأرقامهم. إن سيطرتها تمتد على كل علاقاتي
- عجيب... وماذا قالت ريم لها وهي لم تلتقيك من الأساس؟
- أخبرتها بأن الورشة انتهت منذ قليل، وأني خرجت مغادرة في طريقي إلى البيت
- وكيف أتت بمثل هذا الجواب المثالي من تلقاء نفسها؟
- لأننا دائما نفعل ذلك، فأنا وريم وســماح نلجأ لمثل هذا التكتيك في مواجهة قبضة أهلنا، نستعمله كثيرا

كلما نود أن نتأخر عن البيت، وكلما نود حضـــور حفل ما أو حتى الذهاب إلى السوق

- غريب جدا أن يحتاج القيام بمثل هذه الأشـــياء البسيطة إلى كل هذا التخطيط العسكري
- أنت لا تعرف أمي يا ياسر...
- حسنا، وما شأن صديقتك الأخرى سماح؟
- سماح أحتاجها أن تغطي ظهري في هذه الفترة، أي من ساعة الخروج من الورشة إلى ساعة الوصول إلى البيت
- تخطيط اســـتراتيجي بعيد المدى لا يترك شـــيئا للصدفة

قالها ياســـر متعجبا وســـاخرا وهو يواصـــل زحفه البطيء بالسيارة نحو مدخل الجسر، يستغرب جدا من هذا الحصار الخانق الذي تمارســـه هذه الأم على ابنتها، كأن كل خروج لبنتها من الدار هو مشـــكلة ومصـــيبة يجب عليها أن تنهيها الأم سـريعا بأقل الأضـرار، ويسـتغرب من شـبكة المقاومة الناجحة التي صـــنعتها هؤلاء الفتيات الثلاث لكســـر هذا الحصار. لهو شيء عجيب أن تحتاج الفتاة لنسج خيوط من الكذب في كل الاتجاهات للقيام بأمر بسـيط مثل الذهاب إلى السوق، لكنه قطعا لا يفهم ولن يفهم حقيقة الأمر، فهو كذكر في هذا المجتمع لم يتعرض أبدا لمثل هذا الحصار.

اتصلت ليلى أخيرا بأمها التي وصلت صرخاتها الغاضبة على بنتها عبر سماعة الهاتف إلى مسامع ياسر. بدأت ليلى بإهراق الأعذار عن التأخير وسكب الوعود بسرعة العودة. أخبرتها أنها ستمكث قليلا برفقة صديقتها سماح في مكان آمن ريثما تعود الشـــوارع المكبلة ببقايا المظاهرات إلى حركتها الطبيعية. بدا صوت الأم ساخطا وغاضبا ومتوعدا. تعجب ياســـر أن أم ليلى برغم كل حرصـــها وتســـلطها قد فشـــلـت في منع ابنتهـا في الوقوع في أعظم مـا يمكن أن تخشـــاه أم مثلها، فكل حصـــارها الخانق قد أخفق في منع ابنتها من التقلب عارية على فراش رجل غريب.

- الحمد لله يا ياســـر، لقد تمكنت من شـــراء بعض الوقت
- الحمد لله، وها نحن الآن نقترب من عبور الجسر يا روح
- أحبك
- أتذكرت الحب الآن فقط بعد أن هدأ توترك؟
- اعذرني يا ياسر، فمجددا أنت لا تعرف أمي
- لا عليك يا روح، فأنا أحبك في جميع أحوالك

أخيرا عبرت الســيارة الجســر المعلق فوق مقترن النيلين الأبيض والأزرق وأخـذت تشـــق طريقهـا في الخرطوم، ولكن بعد مســافة ليســت بالطويلة بدأ يلوح أمامها اختناق غير عادي للسيارات في الشارع الرئيسي. توقفت سيارتهما أخيرا وسط أكوام السيارات المزدحمة قرب قاعة الصداقة، وعلى ما يبدو فإن مواصـلة السير في شـارع النيل سـتكون شـــبه مســـتحيلة. بدأت ليلى من جديد في قضـــم أظافرها ولســـانها يغمغم بكلمات غير مفهومة لكنها تشـــي بعظيم التوتر. مد ياسر يده يمسك بيدها الأخرى مهدئا ومطمئنا

- هدئي من قلقك يا روح. سـنجرب أن نسـلك طريقا آخر
- حسنا، افعل ارجوك

انعطف ياســر بالســيارة يمينا، وبعد جهد جهيد نجح في عبور تقاطع شــارع الجامعة المزدحم ووصــل إلى شــارع الجمهورية الموازي له ليواصـل رحلته شـرقا باتجاه بري، لكن شارع الجمهورية كان أسوأ حالا من شارع النيل، كان مليئا بمئات الســيارات الرابضــة عليه بدون حركة تقريبا، وكل التقاطعات أمامهما التي وصـل إليها بصـرهما تتشـابك فيها السـيارات بطريقة فوضـية شـائكة تقتل أي أمل واقعي

في أن يتحرك هذا الشـــارع قريبا. أخذت ليلى تلطم خديها في جزع وتصرخ

- يا ويلي يا ويلي يا ويلي...
- هدئي من روعك يا عزيزتي
- لا لن افعل. ستقتلني أمي اليوم
- سنجد طريقة للوصول إن شاء الله
- كيف ذلك أخبرني؟ هل سنطير مثلا؟ كل هذا بسببك يا ياسـر. بعد اليوم لا أريد أن أراك لمدة سـنـة... لا لسنتين... بل لا أريد أن أراك أبدا

أخذ ياسـر يتأمل في جزعها وصـراخها صـامتا، يتطلع في هذا الوجه الجديد منها الذي لم يره قبلا. انتبه إلى أنه حتى لو كانت ليلى عشتار المقدسة فإن بها جانبا بشـريا ضـعيفا، وهـذا الجـانـب يظهر منهـا الآن. لم تجرحـه كلمـاتهـا ولم تزعجه، بل على العكس فقد تعاطف معها جدا. أمسك بيدها من جديد ونظر في عينيها بعمق و هدوء وأعاد عليها نفس العبارة مجددا

- سنجد طريقة للوصول إن شاء الله

عم السـكون ليلى فجأة وهي تحدق بعيني ياسـر، أحسـت بـالاطمئنـان يغمرهـا. رفعت يده نحو شـفتيها ولثمتها ثم تمتمت

- إن شاء الله

بدأ ياسـر يزحف بسـيارته بين السـيارات، يحاول أن ينتقل من وسـط الشـارع إلى جانبه، وبعد زمن ليس بالقصـير ومحاولات ليست بالقليلة نجح في النهاية في إدراك مبتغاه، ووصل إلي يمين الشارع، تحرك فيه قليلا إلى أن وجد بقعة خالية خارجه فركن فيها السيارة وأوقفها هناك ثم التفت إلى ليلى وقال

- هيا بنا
- إلى أين؟
- سنواصل مشيا

نزلا من السـيارة ووقفا في وسـط الشـارع الممتلئ على مد البصـر بالمركبات العالقة. كانت هناك أيضـاً جموع بشـرية كبيرة تسـير في الشـارع في كلا الاتجاهين، كثير من الناس تحمل الأعلام وتسير في مجموعات تهتف وتغني وتصـفق وتردد شـعارات الثورة، يصـرخون ويطالبون بحكم مدني

خالص من قهر العسكر، ويطلقون شعارهم الصارخ "مدنيااا" ويتبادلون الإشارة بعلامات النصر وهم يمرون بجوار بعضهم. نظر ياسر إلى ليلى وسط هذا الكم من الحركة الثائرة حولهما ومد لها كفه فأعطته كفها، وانطلق يسير بها بسرعة بين قطعان السيارات وأمواج البشر.

سارا مسافة كيلومترين بعجلة وصمت ودون انقطاع، يسير ياسر نحو الأمام سريعا ويجر بيده ليلى التي تحاول أن تجاري سرعته. كانت الشمس قد بدأت في لملمة أشعتها استعدادا للغروب عندما تفاجئا بأن عربات عسكرية وجنودا يغلقون الشارع ويمنعون العربات والراجلين على حد سواء من مواصلة السير فيه. قالت ليلى لياسر

- هذا هو سبب الازدحام يا روح. إنهم يغلقون الشوارع التي تؤدي إلى مباني القيادة العامة للجيش
- تبا لهم
- كيف سنتصرف الآن حتى نصل إلى بري
- دعينا نتبع حركة الناس الماشين، فلا بد أن هناك مخرج ما من هذا المأزق

انعطفا يسارا مع أفواج الناس تاركين شارع الجمهورية ومتجهين إلى شارع الجامعة الموازي له، ومن حسن الحظ

كان ذلك الشـــارع مغلقا في وجه الســـيارات لكنه مفتوح للمشاة. بأمل يتجدد تسارعت خطاهما فيه باتجاه نهايته، ويد ياسر لا تزال مطبقة على يد ليلى بقوة، يسير ويسحبها معه إلى الأمام، وهي تتأخر عنه بخطوة ولكن تحاول بجد أن تجاريه في مشيه السريع.

مرا بمحاذاة البوابة الكبيرة لجامعة الخرطوم المطلة على الشـــارع وســـارا بقرب مجموعة من الشـــباب الحاملين للأعلام، والذين يصـــنعون دائرة خاصـــة بهم من الهتافات الصاخبة. أحس ياسر بأنه لن يفلت من تعليقاتهم وهو يمسك بيد هذه الفتاة الجميلة ويســـير بها بســـرعة أمامهم. حاول تجنب أن يلتقي نظره بأنظارهم وواصـــل الســـير مع ليلى بأقصـــى ســـرعة حتى تجاوزاهم، وما أن تنهد مرتاحا حتى ســـمع صـــوتا يصـــرخ عاليا من خلفه "هذه هي المدنية التي نريدها"، ومن ثم ســـمع قهقهات عالية مجنونة ولكنه لم يلتفت وزاد من قبضـــة يده على يد ليلى حتى ابتعد عنهم، بعدها التفت إليها فوجدها تضـــحك من قولهم فضـــحك هو أيضـــاً معها، فعلى الأقل هي أفضـــل مزاجا الآن منها عندما كانت معه في سيارته، ولم يعد حي بري يبتعد عنهم كثيرا.

وصـــل الحبيبان إلى نهاية شــارع الجامعة، وعبرا النفق القصـير القابع من تحت الجسـر الذي يحمل قضـبان سـكة الحديد فوقه. تابعا سيرهما وسط حشود السائرين نحو جسر كوبر الذي تبدأ عنده حدود منطقة بري، ولأن الشارع الذي يسـيران فيه الآن تطل عليه منشـئات عسـكرية كثيرة تتبع لقيادة الجيش فقد كان ممتلئا بالمركبات العسـكرية وبالجنود الرابضـين عليها، المتابعين في صـمت وترقب واسـتعداد حركات العابرين على هذا الشـارع من أمثال ياسـر وليلى. واصـل الأخيران في صـمت وعزم رحلتهما برغم التوتر والتعب والتأخير حتى وصـلا أخيرا لمدخل الجسـر الذي تتراص عند أحد الشـوارع بقربه مجموعات من مركبات التكتك الصغيرة، أو ما يدعوها السودانيون بـــ(الركشة). توجه ياسـر لإحداها ودفع ليلى فيها راكبة وجلس بجوارها ثم قال للسائق

- مستشفى بري الكبير...
- كم ستدفع؟
- الذي تريده. تحرك بسرعة

بدأت الركشة تتحرك بهما متهادية فوق الشارع في طريقها نحو المستشفى. رن هاتف ليلى مجددا لكنها ردت عليه هذه

المرة بحماس وثقة وأخبرت أمها المتصـــلة بأنها وصـــلت تقريبا وســـتكون معها بعد دقائق، وعندما أنهت المكالمة نظرت بحب وامتنان إلى ياسر ثم أحنت رأسها على صدره وقالت

- أنا أحبك جدا يا روح
- وأنا كذلك يا ليلى
- لقد رأيتني اليوم في أسوأ حالاتي العصبية
- لا عليك، الحمد لله أنك وصلتي أخيرا
- أنا آسفة جدا لأني قد هجت عليك في السيارة
- لا تهتمي لذلك، فإن كل ما يصدر عنك سيظل دائما جميلا في نظري
- وآسفة لأني قلت أني لا أود رؤيتك لمدة عام
- ليس عاما واحدا فقط، قلت بعدها عامين ثم قلت للأبد
- أنا آسفة جدا
- لا عليك يا روح
- حقيقة الأمر أني لا أصــبر عن رؤيتك يوما واحدا، ناهيك عن عام كامل
- ولا أنا كذلك يا روح
- كيف سترجع بعد أن توصلني؟

- سأعود مشيا إلى سيارتي تماما كما جئت منها يا روح
- أليس هذا كثيرا عليك؟
- لكنه قليل جدا عليك
- أحبك جدا
- وأنا احبك أكثر

توقفت الركشة أخيرا بجوار مدخل المستشفى وترجلت منها ليلى. وقفت تودعه قليلا ثم أرسلت له بتلك القبلة التي ينتظرها عبر الهواء من يدها، وبعدها زلفت داخلة إلى الحي وبقي ياسر جالسا في الركشة يتأمل خيالها المبتعد تحت نور الغروب الخافت.

- والآن... أين ستذهب يا استاذ؟

أخرجه سؤال قائد الركشة من تأملاته الوجدانية.

- عد بي إلى المكان الذي أخذتني منه قرب جسر كوبر

التفّت الركشة في الشارع لتعود من حيث أتت وسرح ياسر مع أفكاره يقلبها في ذكريات هذا اليوم الجميل مع ليلى،

والذي لم يكدر صـــفوه عنده ما حدث في نهايته. يحس أنه سعيد ومرتاح ومتصالح مع نفسه ومع العالم، ويريد ابتداءا من هذه الليلة أن يختط خطا جديدا لحياته العابثة، ســيبدأ بإصــلاح الأمور مع أســرته ويضــع حدا لوضــع زواجه المعلق الذي يعيشــه، ســيزور عمته أكثر قبل أن تغادر هي أيضــاً هذه الدنيا ويفقدها، ســيبحث عن عمل يحبه ويناســبه يســتطيع من خلاله تمرير بعض خبراته التي اكتســبها في حياته لغيره من بني البشــر، وســيقلع تماما عن تعاطي أي صــنف من المخدرات، فتلك العقاقير لا يحتاجها شــخص مثله بلغ من السلام الداخلي أعلى المراتب.

أنزلته الركشــة في نفس البقعة التي ركبها منها ونقد ســائقها حســابه مضــاعفا كما طلبه دون انتقاص، وأخذ يســير على قدميه عائدا على نفس الطريق الذي جاء منه قبل قليل بصــحبة ليلى. كانت الحشــود أخف قليلا والظلام الآخذ في الانتشار أقتم كثيرا. نادى باسمه فجأة صوت يأتي من جانب الطريق فالتفت إلى مصــدره ورأى صــاحبيه مؤيد وأســامة يحملان الأعلام الكبيرة ويسيران في نفس اتجاه سيره. قال مؤيد

- احسنت صنعا يا ياسر بالخروج والاشتراك في هذه المظاهرة العظيمة. لقد كان يوما تاريخيا

- لقد حضرت للتو في الحقيقة ولم أدرك منها شيئا
- لقد فاتك الكثير يا صديقي
- لكني سعيد على كل حال يا مؤيد بأن جماهير هذا الشعب الصابر قد أرسلت رسالة لا لبس فيها للعسكر

تدخل اسامة قائلا

- اذن هيا رافقنا يا ياسر
- إلى أين؟ ألم تنته المظاهرات بعد؟
- لقد انتهت مظاهرة اليوم لكن النضال ضد الظلم لا ينتهي. سنذهب لنحضر تجمعا خطابيا للثوار بالقرب من جامعة الخرطوم
- حسنا هيا بنا

سار ثلاثتهم عائدين نحو بوابة الجامعة ثم دخلوا إلى الشارع الجانبي الذي يقود إلى شارع الجمهورية الموازي، وهناك في وسط عديد المباني التي تتبع للجامعة تجمع عدد كبير من الثوار، رجالا ونساءا، صغارا وكبارا للاستماع إلى مخاطبات ثورية صارخة، تعد باستكمال النضال والمقاومة ضد بطش الطغمة العسكرية الحاكمة إلى أن يتحقق حلم الدولة المدنية الديموقراطية الحرة التي يحلم بها

ويستحقها شعب السودان. وقف ياسر بين صاحبيه مبهورا بهذا الزخم الثوري الهائل، وهذه الطاقة الحالمة التي تشـــع من جميع من حوله، وعاهد نفســـه على أن يخرج في كل المواكب والمســـيرات والمظـاهرات القـادمـة حتى يتحقق الحلم.

اســـتمرت المخاطبة لفترة، ما بين خطابات ثورية، وشـــعر وغناء. تفاعل وجدان ياسر معها بعمق، وتمنى لو شـاركته ليلى مثل هذه اللحظات الوطنية الخالصـــة. أخرج هاتفه ليكتب لها فوجد رسالة منها

- هل وصلت يا روح؟
- ليس بعد. التقيت بمؤيد وأســـامة وذهبنا لحضـــور تجمع للثوار قرب جامعة الخرطوم
- أنتبه لنفســـك يا روح، فهذا المكان قريب من قواعد العسكر
- لا تقلقي بشأني. كم تمنيت أن تكوني معي
- وأنا أيضاً. ربما في المرة القادمة
- إن شاء الله
- أحبك...
- وأنا أحبك أكثـ

وقبل أن يكتب اصبعه حرف الراء على شاشة هاتفه كان هزيم الرصاص المفاجئ يدوي عاليا مما جعل الجموع من حوله تتراكض فزعة في كل الاتجاهات. اصطدم جسم أحدهم بيده الممسكة بالهاتف فأطارته بعيدا حتى وقع مرتطما بشدة على الأرض. أراد أن يذهب إليه ليلتقطه فتدافعته الجموع المنسحبة حتى وقع على الأرض هو أيضاً وداست عليه بعض الأقدام المندفعة. التفت حوله بحثا عن صاحبيه ليطلب منهما المساعدة فلم يجدهما وسط الجماهير الراكضة. هم بأن يقوم ليجري بدوره معهم تاركا هاتفه لكن شيئا معدنيا قويا اصطدم برأسه من الخلف فأرداه من جديد طريحا فوق اسفلت الشارع. حاول أن يقاوم الألم الرهيب الذي نزل عليه ويفتح عينيه فلم يرى سوى دخان أبيض يحيطه. بدأ صدره يختنق وتنفسه يتقطع. لابد أن الشيء الذي اصطدم برأسه كان قنبلة غاز مسيل للدموع...

منطرحا على الأرض في ألم بدأت دماء ياسر تسيل من رأسه مكونة بقعة دم كبيرة حوله. يحاول ببقايا جهده الضعيف الباقي أن يتنفس فلا يدخل في رئتيه إلا الغاز الأبيض الملعون فيزيد صدره اختناقا. بدأت الأصوات من حوله على ضجتها العالية تخفت، وبدأت عيناه الربع مفتوحتين تبصران خيطا من النور يأتي من بعيد من قلب الظلمة، وترسلان إلى عقله المحتضر صورا متتالية عن

حياته. رأى أباه وأمه، وعمته وزكريا الغفير. رأى أصدقائه وجيرانه، وزملاء دراسته ورفقاء مهنته. رأى زوجته وأطفاله الثلاثة، ثم رأي ليلى فابتسم وأغلق عينيه...

-78-

في إحدى ساحات حي الملازمين وبقرب منزل قضى فيه ياسر سنوات طفولته وقسما من شبابه انتصبت منصة عالية، وتجمعت عندها حشود كبيرة، وارتفعت لافتة فخيمة مكتوب عليها (شارع الشهيد ياسر علي محمد). بجوار المنصة وفي مقدمة الصفوف جلس مؤيد وأسامة وعماد وياسين وعمر ومصعب ومعهم عم زكريا الغفير يستمعون لأحد قادة الثوار يخطب ويقول

- إن ياسر لم يمت، فهو يعيش داخل كل واحد منا. هذا الرجل المكافح الفريد الذي ترك رفاه الحياة في أمريكا وخلف أسرته هناك وراءه وعاد إلى الوطن خصيصا ليشارك شعبه رحلته النضالية ضد بطش العسكر لهو مصدر الهام لثورتنا المستمرة. كان ياسر محبا للحياة كارها للموت، ولكنه قدم روحه بمحبة من أجل هذا الوطن. نعدك يا ياسر بأننا

سنقتص لدمك الطاهر من أولئك المجرمين الذين سفكوه، ونعدك أيضاً بأن نسير على خطاك لا نكل حتى نبني جميعا الدولة الكريمة التي كنت تحلم بها يا ياسر

ضجت الجموع الحاضرة بالتصفيق، وعلت الهتافات الثورية، وأطلقت النساء الزغاريد الصاخبة، بينما جلست صامتة على أحد الكراسي في المؤخرة فتاة متوسطة الطول، ترتدي عباءة سوداء وخمارا أسود، وجهها أسمر وشعرها فاحم السواد، وعيناها عسليتان لكنهما محمرتان من شدة البكاء. أخذت تقلب نظرها بين اللافتة التي تحمل اسمه أمامها، وبين البيت الذي يحمل ذكرياتها معه من ورائها، ثم دفنت وجهها في كفيها وعادت تبكي من جديد...

تمت

على مدى العامين الأخيرين عانى ياسر من اكتئاب متصاعد الحدة، ترك أثرا سالبا على علاقته بزوجته وأولاده، فيقرر العودة إلى السودان بعد سنوات طويلة في الغربة تاركا عمله وأسرته وراءه في أمريكا. تتتبع الرواية الحوارات الهادرة التي تدور بين ياسر ونفسه المكتئبة، ومحاولاته اليائسة لاستعادة شيء من الحياة، وانهزامه مرة بعد مرة لسطوة أفكاره العدمية. يكتشف أن مجرد العودة لأرض طفولته ليست كافية لاستعادة شغفه بالوجود الذي لا ترى فيه نفسه إلا سلسلة من حلقات عبثية بلا هدف. يحاول ياسر في بعض الأحيان أن يكسر حصار نفسه عليه بتعاطي المخدرات، والجلوس على النيل أو حتى بالانهماك في نوبة ذكر صوفية، لكنه في أغلب أحواله ينعزل مخذولا على فراشه مستسلما لقصف أفكاره المتوحشة. وهو في قلب عتمته تظهر فجأة ليلى في حياته، لترسله إلى عوالم نورانية لم يكن يعرفها من قبل...

تبدأ الرواية ببطيء حذر مثل بطلها في الفصل الأول والذي يصف تلمسه لعالمه القديم بعد عودته. تتصاعد الاحداث وتتسارع في الفصل الثاني عندما تشرق ليلى على عالم ياسر الكئيب وترفعه إلى جنة من الحب والجنس. اما في الفصل الثالث فيختلط بطئ الصراعات الفلسفية والاخلاقية في رأس ياسر مع سرعة الاحداث من حوله والتي اجبرته في النهاية على المغادرة. أصف لك ذلك عزيزي القارئ لأطلب منك قليلا من الصبر اذا شعرت بهدوء الفصل الاول، لأنه ببساطة ذلك الهدوء المريب الذي يسبق التسونامي!

المؤلف

